
كتابي
٣٩
اعترافات
جان جاك روسو
الجزء
الأول
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

إعترافات جان جاك روسو

CONFESSIONS
de
J. J . Rousseau

(١)

حلم .. طالما تمنيت تحقيقه !

عزيزي القارىء ..

● بصدور هذه الترجمة الكاملة « لاعترافات » جان جاك روسو ، يتحقق حلم من أضخم الأحلام الأدبية التي راودتني منذ عشقت الأدب ، وادركتني حرفته ! .. ويتجسم هدف من اعز الأهداف التي اغرتني بإصدار سلسلة (مطبوعات كتابي) منذ زمن قريب . ولئن كانت هذه المطبوعات قد تمكنت من أن تبلغ هذا الهدف في مثل هذا الزمن القصير ، بعد أن ظلت « اعترافات » روسو منيعة «مستعصية» على النشر بالعربية طيلة نحو قرنين كاملين ، ترجمت خلالهما إلى جميع اللغات الحية ، ما عدا لغتنا العربية ! .. فإن هذه السلسلة ما كانت لتحقق هذا الهدف من أهدافها لو لم تتلقها أنت وتتعهدها منذ ولدت برعايتك وإعزازك اللذين مكناها من تذليل جميع الصعاب التي تعترض طريقها ، والسير قدما نحو غايتها .

وإذا اردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبي الخالد الذي توافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ سلامه موسى في عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (اخبار اليوم) .. إذ قال : « .. واعترافات جان جاك روسو من الكتب التي كان يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة .. فلقد تغيرت اوربا بتأثير أفكار هذا الأديب . ونستطيع أن نعزو أهم التطورات التي حدثت في هذه القارة إلى آرائه، التي يتلخص مغزاها في كلمات معدودة، هي: ان الطبيعة حسنة، والإنسان طيب، ولكنهما يفسدان بالمجتمع السيىء .. فما أحوجنا في البلاد العربية إلى هذه الخمائر!» .

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن صدقى فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير عام ١٩٣٩ يقول : « انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجهمرة القراء عن مطالعة (العقد الاجتماعى) و (اميل) و (هيلويز الجديدة) ، ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، اما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تتبدل ، فنحن نتعرف فيما نحسه فى أعماقنا على غرائز رجل الكهوف .. فكم بالحرى إذا كان صاحب هذه النجوى مثل صاحب (الاعترافات) ، أقرب إلى عصرنا بثقافته ، وإن كان أشبه بأهل الفطرة فى صراحته ، وجرأته ؟ ! » .

والواقع أن هذه (الاعترافات) التى تقدم « مطبوعات كتابى » إليك اليوم أول ترجمة أمينة كاملة لها باللغة العربية، والتى تعتبر من أعظم الشوامخ الخالدة فى الأدب «الكلاسيكى»، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى « جان جاك روسو » ، فى الثلاثة والخمسين عاما الأولى من حياته على الأقل .. ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه (الاعترافات) ، أنها كانت أول عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فيظهرها على حقيقتها الكاملة دون أى زيف أو تستر .. فقد سجل « روسو » فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته — خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها — دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة ، وكأنه مؤمن صادق التوبة ، يصارح إلهه بأخطائه برهانا على صدق توبته ، والتماسا لصفحه .

ولكن .. هل كان هذا هو الهدف الذى ابتغاه « جان جاك روسو » من وراء تسجيل اعترافاته ؟

قد نجد الجواب عن هــذا السؤال فى مؤلفاته التى سبقت « الاعترافات » ، وفى كتاب « اميل » بالذات .. فلقــد أورد « روسو » فى هذا الكتاب ، وفى بعض مؤلفاته السابقة ، صورا من حياته، ومن الشخصيات التى صادفته وأثرت فيه.. ولكنه كان يســدل عليها سترا من الزيف و « الرتوش » ، شأن كل كاتب واديب ، حين توحى إليه بعض مراحل حياته وذكرياته بمادة تنساب على طرف قلمه أثناء الكتابة، فيحاول أن يحيطها ببعض المظاهر المفتعلة التى تباعد بين هذه المادة وبين شخصيته الحقيقية فى نظر القارىء !

ولكن « روسو » كان يهدف من إيراد هذه الذكريات إلى اكثر من مجرد رسم شخصيات ، أو افتعال أحداث . كان يسعى إلى أن يقدم تجاربه للناس ، سيما فى ميدان التربيــة ورعاية النشء . فلمــا واتتــه الجــرأة ، نزع ســتر الزيف والتضليل ، وساق الحــديث صريحــا واضــحا ، واعترف بالسرقة والانحراف ــ مثلا ــ لينبه الآباء إلى العوامل التى قد تدفع بالأبناء بعيدا عن جادة الصواب .. ولينبه المجتمع إلى الأشياء التى تنكبه بالمنحرفين من الأعضاء .

وهذا ما نلمسه واضحا فى بعض مواضع من «الاعترافات» : فهو يقول تعليقا على معاملة ابيه لأخيه الأكبر : « كان من جراء الحنان الضافى الذى أسبغه أبى على ، أن أهمل هــذا الأخ .. وتأثرت تربية أخى بهذا الإهمال ، فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع ادمان الفجور !» .... الخ .

.. ويبين – فى سياق حديثه عن المدة التى قضاها فى تعلم حرفة الحفر على المعادن – كيف أن مخالطة الصغار لزملاء يكبرونهم سنا ، ويختلفون عنهم بيئة ونشأة ، يدفعهم إلى الخضوع لما يوحى به إليهم هؤلاء الكبار .. إذ تعود «جان» الصغير السرقة بإيعاز من زميل له !

كل هـذه الصور توحى بأن « الاعترافات » لم تكن – فى غايتها – سوى دروس اجتماعية وتربوية .

الاضطهادات تلاحقه فى كل مكان !

● ولقد تناولت « الاعترافات » حياة «روسو» حتى سنة ١٧٦٥ .. ومن الطريف أنه بدأ فى وضعها عندما هاجر إلى انجلترا . فإن بعض كتبه السابقة – « أميل » و « العقد الاجتماعى » و « هيلويز الجديدة » – تضمنت من الآراء والمهاجمات ما أثار غضب حكومة فرنسا ، ورجال الكنيسة ، وانصار المدارس الفلسفية فى فرنسا وهولندا وجنيف ، حتى لقد أحرقت كتبه علنا فى بعض البلدان ، واضطر إلى أن يهرب من فرنسا إلى جمهورية (بيرن) ، ولكن مجلس شيوخها أمره بمبارحتها ، فرحل إلى (مورتيير) بمقاطعة نيوشاتل – وكانت تحت حكم فردريك الثانى البروسى ..

على أن « روسو » ما لبث أن أصدر كتاب « خطابات الجبل » ، فاذا الضجة التى أحدثها هذا الكتاب ، تضطره إلى الرحيل إلى جزيرة (سان بيير) فى بحيرة (بيين) .. ولكن مجلس شيوخ جمهورية (بيزن) عاد فأمره بمبارحة هـذه الجزيرة التى كانت تابعة للجمهورية !

وكان « روسو » قد تلقى دعوة من صديق إنجليزى ، فسافر إلى إنجلترا .. ووصل إلى هناك فى يناير سنة ١٧٦٦ ، فمكث شهرين فى لندن ، ثم انتقل إلى الريف فى (ووتون) بستراتفوردشاير ، حيث وضع الكراسات الست الأولى من « الاعترافات » . وتصادف أن نشرت الصحف فى تلك الأثناء خطابا بتوقيع ملك بروسيا ، يطعن فى أخلاق « روسو » ، فظن هذا بمضيفية واصدقائه فى انجلترا الظنون ، ونزح فى مايو سنة ١٧٦٧ إلى (اميين) ، حيث نزل بقلعة (ترای) التى كانت ملكا للأمير دى كونتى ، فأقام بها ردحا تحت اسم « رينو » !.. وهناك استأنف كتابة «الاعترافات» . ثم رحل إلى (جرينوبل)، فما لبث أن ملها وسئم أهلها ، ومن ثم رحل إلى (بورجوان) ، بيدأن جوها لم يلائم صحته ، فانتقل فى سنة ١٧٦٩ إلى (مونكان) ، حيث اتم الكراسة العاشرة من اعترافاته ..

وما لبث « روسو » أن عاد إلى باريس ، حيث سمح له بالإقامة ، على شريطة ان لا يكتب شيئا ضد الحكومة أو الدين . فانصرف إلى نقل « النوتات » الموسيقية ، وإلى الاختلاط بعلية القوم . حتى إذا كان شهر مايو سنة ١٧٧٨ ، نقل الكاتب الفيلسوف — الذى كان قد بلغ السادسة والستين من عمره — إلى كوخ فى (ارمنونفيل) يمتلكه الكونت جيراردان .. وهناك، توفى فجأة فى ٣ يوليو من ذلك العام . وقد ذهب فريق من الناس — ومنهم مدام دى ستايل — إلى أنه انتحر .. كما ذهب فريق آخر إلى أنه مات فى نوبة صرع .

الطبعة التى ترجمنا عنها الاعترافات

● ولقد كان من عادة « روسو » أن يشرف بنفسه على

إصدار طبعة واحدة من كل كتاب يضعه . على أنه كان يتدخل في الطبعات التي تصدر بعد ذلك ، فيضيف إليها بعض الملاحظات، دون ان يحذف أو يغير شيئا من موادها .

ولقد تولى ثلاثة من اقــرب خلصــائه ــ هم « دوبيرو » و « مولتون » الجنيفى ، ومركيز « جــيراردان » ــ فحص مخطوطاته بعد موته ، ومطابقتها على ما سبق أن أفضى به إليهم .. وقد انتهت تحقيقاتهم بصدد « الاعترافات » إلى أصـــدار طبعة منها في (جنيف) في سنة ١٧٨٢ .. على أن « دوبيرو » لم يرض عن التعديلات التي أدخلت على الكراســات الست ، فأصدر بنفسه طبعة أخرى ، استند فيها إلى ما كان بين يديه من وثائق ، لا سيما رسائل « روسو » .

وفي سنة ١٨٠١ صدرت طبعة ثالثة من « الاعترافات » ، أخذت عن أصول قدمتها مدام « روسو » ، ولا تزال محفوظة في البرلمان الفرنسي .. وكان الفارق بين كل من هذه الطبعات الثلاث وبين الآخرين ، لا يعدو مجرد تعديلات بسيطة في بعض العبارات ، وليس في الوقائع .

والترجمة التي تقدمها لك «مطبوعات كتابي» اليوم، أخذت عن طبعة أصدرتها دار « لوفيفر » في سنة ١٨٥٩ ، بعد دراسة الطبعات الثلاث وتحقيقها،ومن تمفهي تعتبر أدق طبعة صدرت من «اعترافات جان جاك روسو» .. وقد بذل الزميل القدير المرحوم محمد بدر الدين خليل في نقلها إلى العربية كل جهــد ممكن ، للمحافظة على النص والروح بأمانة تامة ، لم يشبها أي اختصار، أو حذف، أو تحوير .. بل لقد بذل عناية فائقة

لجعل التعبير والاسلوب اقرب ما يكونان إلى النص الذى كتبه الأديب العبقرى ، بقدر ما سمحت بذلك لغتنا العربية ..

وأخيرا ، فأملى أن تكون « مطبوعات كتابى » ، بنقلها هذا التراث الإنسانى الخالد إلى لغتنا ، قد ساهمت فى تزويد المكتبة العربيةبأثر شامخ منشوامخ الأعمالالأدبية الباقيةعلىالزمن..

ولهذه المناسبة ، احسبك تقرنى على انه لم يكن من الممكن نشر كتاب يبلغالألف صفحة تقريبا، فىجزء واحد من(مطبوعات كتابى) ، ومن ثم لم يكن بد من نشر هـــذه « الاعترافات » فى خمسة أجزاء متتابعة ، أولها هذا الجزء الذى بين يديك ..

وإلى اللقاء على صفحات الجزء الثانى من هذه الاعترافات.

والله ولى التوفيق

حلمى مراد



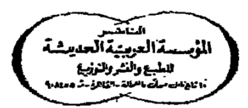


يصدره : حلمي مراد

مطبوعات كتابي

اعترافات جان چاك روسو

الجزء الأول



كتابى

إصدار جديد

يصدره حلمى مراد

●●●

كتب دورية للقصة والثقافة الرفيعة .

● مختارات كتابى : باقة منتقاة متجانسة لأروع الكتب العالمية

● مطبوعات كتابى : الترجمة الأمينة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

● روايـات كتـابى : ترجمة أحدث الروايات العالمية المعاصرة

●●●

شعـــار كتـــــابى

مصباح الفكــر عنـد الإغـريق

●●●

ريشـــة

الأستـاذ/ إسماعيـل ديــاب

●●●

إشـــراف

الأستـاذ / حمـــدى مصـطفـى

●●●

المكاتبـات

هيئة التحرير : حلمى مراد : ١٨ شارع العباسين ــ مصر الجديدة ت : ٦٧٥١٢٦ ــ ٢٩١٤٤٤٩

النـــاشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ - ٨٢٦٧٤٧

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ــ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى بروكسى مصر الجديدة ــ القاهـرة : ت : ٨٢٦٢٨٠ ــ ٩٠٨٤٥٥ ــ ٢٥٨٦١٩٧ ج.م.ع .



اعترافات جان جاك روسو

الجزء الأول

الكراسة الأولى

١ ـ من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧١٩

إننى مقـــدم على مشروع لم يسبقه مثيل ، ولن يكون له نظير . إذ اننى أبغى أن أعرض على أقرانى إنسانا فى أصدق صور طبيعته .. وهذا الإنسان هو : أنا !.. أنا وحدى !.. فانى أعرف مشاعر قلبى ، كذلك أعرف البشر ! ولست أرانى قد خلقت على شاكلة غيرى ممن رأيت ، بل إننى لأجرؤ على أن اعتقد بأننى لم أخلق على غرار أحد ممن فى الوجود !.. وإذا لم أكن أفضل منهم ، فاننى ــ على الأقل ــ أختلف عنهم !.. ولن يتسنى البت فيما إذا كانت الطبيعة قد أصابت أو أخطأت إذ أتلفت القالب الذى صاغتنى فيـــه ، إلا بعد قراءة هـــذه الاعترافات !

فاذا ما انطلقت آخر صيحات بوق البعث ، عندما يقدر له أن يدوى ، فلسوف أمثل أمام الحاكم العادل وهـــذا الكتاب بين يدى . ولسوف أقول فى رباطة جأش : « هذا ما فعلت ، وما فكرت ، وما كنت .. لقد رويت فى كتابى الطيب والخبيث على السواء ، بصراحة ، فلم أمح أى ردىء ، ولا انتحلت زورا أى طيب .. وإذا كنت قد استخدمت بعض التزويق الفارغ ـ بين وقت وآخر ــ فما ذلك إلا لأملأ فراغـــا نشـــأ عن نقص فى الذاكرة . ولربما قطعت بصدق أمر أعـــرف أنه « قد » يكون صحيحا ، ولكننى قط لم أزعم صدق ما عرفته زيفا .. لقـــد صورت نفسى على حقيقتها : فى ضعتهـــا وزرايتها .. وفى

صلاحها ، وحصافة عقلها ، وسموها .. تبعا للحال التى كنت فيها !.. لقد كشفت عن أعمق أغوار نفسى ، كمـا كنت أنت تراها ، أيها الخالد السرمدى .. فأجمع حولى الحشد الذى لا حصر له من أبناء جنسى ، ودعهم يصغون إلى اعترافاتى ، فيرثون لخستى ، ويخجلون لمثالبى . ثم ادع كلا منهم إلى أن يكشف بدوره ـ وبعين الصراحة ـ أسرار فؤاده ، عند قوائم عرشك ، وليقل إن جرؤ: « لقد كنت خيرا من ذاك الرجل » !

* * *

ولدت فى (جنيف) ، فى عام ١٧٢١ ، للمواطنين « ايزاك روسو » و « سوزان برنار » ، وكان تقسيم ميراث أسرة أبى ـ على قلته ـ بين خمسة عشر ابنا وابنة ، قد هبط بنصيب أبى إلى نذر لا يكاد يذكر ، فلم تكن له وسـيلة عيش سوى مهنته كـ « ساعاتى » ـ وكان فى الحق جد بارع فيها ـ أما أمى فكانت أحسن منه حالا . كانت ابنة القس البروتستانتى « برنار » ، وكانت ماهرة ، جميلة ، وقد وجد والدى عناء فى الظفر بيدها ، إذ بدأ حبهما منذ طفولتهما الباكرة ، وما إن بلغا الثامنة حتى اعتادا أن يتمشيا كل مساء فى طريق (تريى) ، أبدع طرق جنيف.. فلما صارا فى العاشرة ، لم يعودا يفترقان. وعزز التعاطف والائتلاف الروحى ذلك الاحساس الذى خلقته الألفة بينهما .. ولم يكن كل منهما ـ وقد خلق مرهف الحس رقيق الشعور ـ ليرجو سوى تلك اللحظة التى يتاح له فيها أن يكتشف عند الآخر نفس ما كان يخالجه من إحسـاس .. أو ـ على الأصح ـ كانت تلك اللحظة ترتقبهما ، فأسلم كل منهما قلبه للآخر فى أول فرصة .. وكأنى بالقدر ـ حين لاح

انه يعارضهما ـــ قد زادهما وجدا .. وإذا بالعاشق الشاب الذى عجز عن الظفر بحبيبته ـ إذ أبى أهلها أن يزوجوه إياها ـ يذوب أسى وحزنا ، فنصحته فتـاته بالترحال ، وبأن يسعى لنسيانها . فسافر ، ولكن .. دون جدوى ، إذ عاد مدلها أكثر من ذى قبل ! ووجد تلك التى أحبها لا تزال وفيـة ، صادقة الحب . فلم يبق لهما ـــ بعد تلك التجربـة التى اختبرا بهـا عاطفتهما ـــ إلا أن يظلا متحابين طيلة عمريهما .. فأقسما أن يفعلا ذلك ، وباركت السماء تعاهدهما !

وحدث أن وقع « جابرييل برنار »ـــ شقيق أمى ـــ فى حب احدى شقيقات أبى ، فلم توافق على خطبتـه إلا على شريطة أن يتزوج أخوها من أختـه . وهكذا دبر الحب كل شىء ، وعقدت الزيجتان فى يوم واحد ، فأصبح خالى زوج عمتى، وقدر لأولادهما أن يكونـوا أولاد عمومة وخؤولة لى .. وفى نهاية العام الأول للزواج ، رزق كل من الفريقين بطفل ، ثم تشتت شملهما .. فقـد كان خـالى مهندسـا ، فعين فى خدمـة الإمبراطورية ـــ فى المجر ـــ تحت إمرة الأمير « يوجين » ، واستطاع أن يبلى بلاء حسنا فى معركة (بلجراد) . أما أبى ، فقد رحل ـــ بعد مولد أخى الأوحد ـــ إلى القسطنطينية ، حيث استدعى ليتولى منصب « ساعاتى السلطان » ! واستطاعت أمى ـــ فى غيـابه ـــ أن تكسب ولاء عـدد كبير من المعجبين ، بفضل جمالها وذكائها ومواهبها (١) . وكان من أشد هؤلاء

---

(١) كانت مواهبها تفوق مكانتها الاجتماعية بكثير .. فان أباها القس كان يحبها الى درجة العبادة ، وقد بذل فى تعليمها وتربيتهـا عناية فائقة ، ومن =

المعجبين تهافتا ، مسـيو « ديلا كلوزير » ، المندوب الفرنسى المقيم . ولابد أن شغفه بها كان عارما ، فقد رأيته شديد التأثر وهو يحدثنى عنها ، بعد ذلك بثلاثين عاما ! على أن أمى كانت تتذرع لمقاومة كل محاولات بما هو أكثر من الفضيلة .. كانت تحب زوجها حبا مبرحا . وقد راحت تلحف عليه فى العودة ، فترك كل شىء ورجع . وكانت الثمرة التعسة لهذه العودة ، إذ ولدت بعد عشرة أشهر ، ضعيفا سقيما . وقد كبدت أمى حياتها ، وكان مولدى أول ما حاق بى من نحس وتعاسة !

ولم يقص على أحد قط كيف احتمل أبى هذا المصاب ، ولكنى أعرف أنه لم يتعز أبـدا ، وكان يخـال أنه يرى زوجتـه فى شخصى ، دون أن يقـوى على أن ينسى اننى الذى حرمتـه إياها !.. أبـدا لم يحتضنى دون أن الاحظ — من تنهـداته والاختلاجات التى كانت تعتـريه وهو يضمنى إلى صدره — أن حسرة مريرة كانت تخالط قبلاتـه ، فلا تزيدها إلا حنانا . وكان إذا قال لى : « لنتحدث عن أمك يا جان جاك » ، أجبت : « حسنا ، لسوف نبكى إذن يا أبت ! » .. وكانت هذه العبارة

=

ثم فانها كانت تجيد الرسم ، والغناء ، والعزف على آلة تشبه العود . كمـا كانت كثيرة الاطلاع ، وكانت تنظم أشعارا لا بأس بها . وقد حدث — أثناء غياب زوجها وأخيها — أن خرجت للنزهة مع زوجة أخيها ، فصادفتا شخصا ذكرهما بالغائبين ، واذا هى تقول على الفور شعرا هذا معناه :

وهذان السيدان الغائبان .. عزيزان علينا من كل جانب ، فهما صـديقانا وحبيبانا ، وهما زوجانا وشقيقانا .. وهما والدا طفلينا !

وحدها كفيلة بأن تبعث الدمع إلى عينيه ، فكان يهتف متأوها :
« آه !.. ألا ردها إلى !.. كن عزائى عن فقدهنا ، وأملأ الفراغ الذى خلفته فى نفسى !.. أفترانى كنت أحبك هذا الحب كله ، لو انك كنت مجرد ابن لى ؟ » .. وبعد اربعين عاما من مصابه فيها ، مات بين ذراعى زوجة ثانية .. ولكن اسم الأولى كان على شفتيه ، وصورتها فى قرارة فؤاده !

وهكذا كان الاثنان اللذان أوجدانى ، ولم يورثانى ـ من كل النعم التى اسبغتها عليهما السماء ـ سوى قلب رقيق مرهف الحس .. ولقد كان قلباهما منبعى سعادتهما ، أما قلبى فقد كان منبع كل شقوة فى حياتى !

* * *

ولقد هبطت إلى الدنيا فى حال تقرب من الموت ، فلم يكن ثمة أمل يذكر فى إنقاذ حياتى . وكنت أحمل فى كيانى بذور علة أخذت تقسوى على مر الزمن ، ولا تبارحنى فى بعض الأوقات ، إلا لتقسو فى تعذيبى بشكل آخر . وقد أولتنى إحدى عماتى ـ وكانت شابة لطيفة فاضلة ـ من الرعاية ما أنقذ حياتى . وهى لا تزال حتى كتابة هذه السطور على قيد الحياة ، وقد بلغت الثمانين من عمرها ، وتوفرت على تمريض زوج يصغرها سنا ، ولكن الافراط فى الشراب أنهك قواه .. اننى لأغفر لك ، يا عمتى العزيزة ، أن أبقيت على حياتى . وما أعمق أسفى إذ ارانى عاجزا عن أن أرد أليك ـ فى أواخر ايامك ـ تلك الرعاية السابقة التى اوليتنيها فى أوائل

ايامى ! (١) .. كذلك لا تزال مرضعتى العزيزة العجوز « جاكلين » على قيد الحياة ، موفورة الصحة والقوة . وكأنى باليدين اللتين فتحتا عينى عند مولدى ، ستغمضانهما عند وفاتى !

ولقد تنبه إحساسى قبل أن يتنبه فكرى .. وهو شىء يحدث لجميع البشر ، ولكننى كنت أكثر من سواى خبرة به وتجربة له .. ولست أدرى ماذا كنت أفعل قبل أن أبلغ الخامسة أو السادسة . ولا أعرف كيف تعلمت القراءة .. وكل ما أذكره ، أول مرة قرأت فيها ، وما كان لها من تأثير ، فقد اتخذتها تاريخا لما درجت عليه من شعور مستمر بالذات .. وكانت أمى قد خلفت بعض قصص غرامية ، شرعت فى قراءتها مع أبى ، عقب العشاء ، فى كل ليلة . وكان القصد من ذلك ـ فى البداية ـ مجرد تدريبى على القراءة ، بالاستعانة بالكتب المشوقة . وكأن الشغف لم يلبث أن دب فينا ، فكنا نتناوب القراءة دون توقف ، وننفق ليالى بأكملها فى هذا العمل . وكنا نعجز عن التحول عن الكتاب حتى نفرغ منه . وكان أبى يقول أحيانا فى استحياء ، وهو يسمع العصافير تشرع فى الشقشقة مع مطلع النهار : « هيا بنا إلى الفراش .. كأنى أنا الطفل ولست أنت ! » .

---

(١) كانت هذه العمة تدعى مدام جونسيرو . وقد رتب لها روسو ـ منذ مارس سنة ١٧٦٧ ـ معاشا قدره مائة جنيه ، كان يدفعه اليها دائما ، وفى مواظبة دقيقة ، حتى فى أشد أوقات ضيقه !

وبفضل هذا الأسلوب الخطر ، استطعت فى أمد قصير أن اكتسب حذقا بالغا للقراءة والفهم .. ليس هذا فحسب ، بل اننى أحرزت أيضا دارية بالعواطف المشبوبة ، كانت نادرة بالنسبة لطفل فى سنى . فباتت جميع مشاعر الحياة العادية مألوفة لدى، وإن لم أكن أدرك كنهها .. كنت أحس بكل شيء ، دون أن أفقه كنه أحاسيسى . فمن المؤكد أن هــذه المشاعر المهوشة المبهمة ــ التى كنت أشعر بها واحدا بعد آخر ــ لم تؤلف نسيجا قوى الادراك لدى ، لأننى لم أكن أحظى إذ ذاك بهذه القوى ، ولكنهــا ساعدت على تشكيلها فى أعماقى على نسق خاص ، وأوحت إلى بأفــكار خيالية غريبة عن الحياة الإنسانية ، لم تقو التجربة وقوة التفكير على أن تبرئنى تماما منها طيلة حياتى !

٢ ــ من سنة ١٧١٩ إلى سنة ١٧٢٣

وفرغنا من الروايات فى صيف سنة ١٧١٩ ، فاذا الشتاء التالى يوافينا بمادة تختلف عنها . إذ اننا لم نكد نستنفد مكتبة أمى ، حتى تحولنا إلى نصيبها ــ الذى آل إلينا ــ من مكتبة أبيها . وكان بها بعض كتب دسمه ، لحسن الحظ . وما كان من المنتظر أن تكون غير ذلك ، إذ كانت جزءا من مكتبة جمعها قس ، كان ــ فى الوقت ذاته ــ عالما ، على غرار ما كان مألوفا فى أيامه . كما كان رجلا ذا ذوق وذكاء ! وكان من هذه الكتب التى آلت الينا : « تاريخ الإمبراطورية والكنيسة » للوسيور ، و « رسالة فى تاريخ العالم » لبوسويه ، و « حيــاة مشاهير الرجال » لبلوتارك ، و «تاريخ البندقية» لناقى ، و «التطورات»

و « الأصول » لأوفيـنـد ، و « العوالم » و « حـوار الموتى » لفونتنيل ، وبعض مؤلفات موليير .. فنقلت كل هذه إلى غرفة أبى ، وأخذت أقرؤها عليه وهو عاكف على عمـله . وكنت استوعبها فى استساغة نادرة ، بل لعلها كانت فذة بالنسبة لعمرى . وأصبح « بلوتارك » ـ بوجـه خاص ـ هو أحب المؤلفين إلى نفسى ، فأبرأنى الاسـتمتاع بقراءة كتابه مرارا وتكرارا من بعض الشغف الذى كان قد تملكنى نحو الروايات ، وسرعان ما شغلت بأبطاله : وبدأت أفضل « اجيسلاوس » و « بروتس » و « ارسـتيدس » على « اوروندانيس » و « ارتامينس » و «جوبا» . وقد أدى هذا الاطلاع المشوق ، والمحادثات التى كان يثيرها بينى وبين أبى ، إلى تولد روح الحرية فى نفسى .. تلك الروح الأبية ، المنيعة ، التى لا تطيق العبودية أو الاسترقاق ، والتى عذبتنى طـوال حياتى ، فى مواقف كانت بعيدة عن أن تتيح لها مجالا .. وهكذا أصبحت أفكارى فى شغل لا ينقطع بروما وأثينا ، وقد دبت فيهما الحياة خلال سير عظمائهما . وقد أذكى حماسى أننى ولدت مواطنا فى جمهورية ، وابنا لأب كانت وطنيته هى أشد عواطفه اتقادا ، فكنت أخال نفسى إغريقيا أو رومانيا ـ حسب شخصية العظيم الذى أقـرأ سيرته ـ وكنت أذيب شخصيتى فى شخصيته ، كمـا كان الاسهاب فى ذكر صفات الجلد والبسالة ـ التى كانت تستهوينى ـ يجعل عينى تومضـان ، وصوتى يقوى . وقد حدث ذات يوم ، أن انطلقت أروى سيرة « سيكفولا » للأفراد الذين ضمتهم مائدتنا ، فاذا بالجزع يتولاهم إذ رأونى

فى غمـــرة التحمس أتقـــدم فأضــــم قبضتى على المشـــواة ـــ « الشواية » ـــ الساخنة ، لأصور عملا من أعمال البطل !

وكان لى شقيق يكبرنى بســـبع سنوات ، يتلقى عن أبى حرفته ، وقد كان من جراء الحنان الضافى الذى أسبغه أبى على ، أن أهمل هذا الأخ، وهى معاملة لا أقرها ولا أحبذها !.. وتأثرت تربية أخى بهذا الاهمال ، فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع إدمان الفجور . وقد عهد به أبى إلى معلم آخر ، فكان لا ينفك يهرب منه ، ومن البيت ، حتى اننى نادرا ما رأيته ، وأكاد أقول اننى لم أكن أعرفه ! على أننى لم أكف عن أن أحبه فى شـــغف . أما هو فقد أحبنى كما يحب الشريد أى شىء !.. وأذكـــر أن أبى عاقبـــه ـــ فى إحـــدى المناسبات ـــ بغلظة وغضب ، فاندفعت ملقيا بنفسى بينهما ، واحتضنته .

وبذلك حجبت جسمه بجسمى ، فتلقيت عنه الضربات التى كانت موجهة إليه !.. وظللت متشبثا بهذا الوضع فى عناد ، حتى اضطر أبى فى النهاية إلى أن يتخلى عن العقاب ، إما لأن صرخاتى ودموعى الانت قلبه ، أو لأنه خشى أن يؤذينى أكثر مما كان يؤذى أخى . على أن حـــال هـــذا الأخ ما لبثت ان ازدادت سوءا ، ففر واختفى كل أثر له . وسمعنا بعد ذلك بزمن أنه كان فى ألمانيا . بيد أنه لم يكتب إلينا قط ، ولا تلقينا عنه نبأ على الاطلاق ، ومن ثم صرت الابن الأوحد لأبى !

وإذا كان هذا البائس قد نشأ محوطا بالاهمال ، إلا أن هذه لم تكن حال أخيه .. أنا ! فما كان أبناء الملوك ليحظوا بأكثر

من الرعاية التى حظيت بها فى سنى حياتى الأولى .. كنت معبود كل المحيطين بى .. على أن هذه العبادة لم تجعل منى طفلا مدللا مفسودا ، كما هو المألوف فى الأطفال الذين يحظون بحب أهلهم . ولم يتح لى قط — إلى أن غادرت دار أبى — أن أجرى فى الطرقات مع سواى من الأطفال ، ولا أحتاج أحد إلى أن يشجع أو يكبح فى نفسى تلك النزوات الخيالية التى تعترض حياة الأطفال ، والتى تعزى — خطأ — إلى الطبيعة ، وهى فى الواقع من ثمار التربية .. ولقد كنت أرتكب المآخذ المألوفة لدى أقرانى فى السن : فكنت ثرثارا ، نهما ، كذوبا فى بعض الأحيان .. وربما كنت أسرق بعض الفاكهة ، أو الحلوى ، أو المأكولات .. ولكنى لم أنشد قط متعة فى إيذاء الغير ، أو الإضرار بهم ، أو اتهامهم ، أو فى تعذيب الحيوانات البكماء المسكينة . وإن كنت أذكر اننى تبولت مرة فى قدر أو وعاء لجارة لنا ـ تدعى مدام «كلو» — بينما كانت فى الكنيسة . وانى لأجهر ، حتى بعد أن بلغت هذه السن ، بأن ذكرى هذا الحادث تثير ضحكى .. فقد كانت مدام كلو أكثر الذين عرفتهم إمعانا فى الشكوى ولجاجة فى التذمر ، برغم أنها كانت طيبة فيما عدا ذلك .. وهذه — بايجاز وصدق — كبرى إساءاتى فى الطفولة !

* * *

وكيف كان من الممكن أن أغدو شريرا ، وقد كانت عيناى لا تقعان إلا على أمثلة للطف الدماثة ، ولم يكن يحيط بى سوى خير ناس فى الدنيا ؟.. والحق أن أبى وعمتى ومربيتى وأقاربى وأصدقائى وجيرانى ، لم يكونوا يخضعون لرغباتى ،

ولكنهم كانوا يحبونني ؛ وكنت أنا الآخر أحبهم . وقليلا ماكانت رغباتي تثير ــ أو تستحق ــ معارضة ؛ حتى ليخطر لي أنني لم تكن لي أية رغبات على الاطلاق !.. وبوسعي أن أقسم على أنني ما عرفت كنه النزوات أو الشطط في الهوى ؛ إلى أن قدر لي أن أعمل في خدمة معلم . وفيما عدا الأوقات التي كنت أقضيها في القراءة أو الكتابة ــ بصحبة أبي ــ أو التي كانت مربيتي تصحبني فيها للنزهة .. فيما عدا هذه الأوقات ، كنت دائما مع عمتي ؛ أجلس أو أقف إلى جوارها ؛ أرقبها وهي تطرز ؛ أو أصغي إليها وهي تغني .. وكنت أغتبط بهذا . ولقد طبعت بشاشتها ولطفها ووجهها السمح أثرا عميقا ؛ بهيجا ؛ في ذهني ؛ حتى انني لا أزال أتمثلها بخلقها ومظهرها وتصرفاتها ؛ ولا أزال أذكر لهجتها الحنون .. وبوسعي أن أصف ما كانت ترتديه من ثياب ؛ وكيف كانت تصفف شعرها ؛ دون أن أنسى الخصلتين اللتين كانتا تتدليان على صدغيها ؛ من شعرها الأسود ؛ على غرار ما كان شائعا في ذلك العهد .

وإني لأعتقد بأنني مدين لها بميلي ــ بل ولعي ـ بالموسيقى، وهو الولع الذي لم يستكمل نموه في نفسي إلا بعد ذلك بزمن طويل . وكانت تعرف عددا من الألحان والأغاني الممتازة ؛ التي اعتادت أن ترددها بصوت جد رفيع رخيم !.. وقد كان الطرب الذي فطرت عليه نفس هذه المرأة الرائعة ؛ يطرد عنها وعن كل المحيطين بها الوساوس والاكتئاب . وكان السحر الذي يفرضه غناؤها على نفسي عظيما ؛ حتى أن بعض

أغانيها بقيت على الدوام فى ذاكرتى .. بل إن كثيرا من أغانيها التى كنت قد نسيتها تماما منذ أيام طفولتى ، ترتد اليوم إلى ذهنى ـ بعد أن فقدت هذه العمة ، وبعد أن تقدم بى العمر ـ مصحوبة بسحر لا قبل لى بوصفه ! أفيصدق أحد أننى وقد غدوت شيخا مخرفا ، تنتهبه الهموم والمتاعب ، أجد نفسى ـ فى بعض الأوقات ـ منخرطا فى البكاء كالطفل ، عندما أترنم باحدى هذه الأغانى بصوت متحشرج مهدم ؟.. بل إن إحدى هذه الأغانى عاودتنى بكل جزئية من لحنها ، وإن استعصت على بعض كلماتها ، برغم كل جهد أبذله لاستعادتها .. وها هو ذا مطلعها ، وكل ما أستطيع أن أذكره من بقيتها :

« لست أجرؤ يا « تيرسيس » على سماع مزمارك تحت شجرة الدردار .

« فقد بدأ القوم يتحدثون عنا فى قريتنا !

«... راع ، ... من خطر ، فالشوك دائما تحت الورد»(١)

وانى لأتساءل : أين السحر المؤثر الذى يجده فؤادى فى هذه الأغنية ؟.. انها نزوة وأهمة لا أستطيع أن أفهمها . ومع ذلك فمن المستحيل تماما أن أردد هذه الأغنية دون أن تقطع

---

(١) لا تزال هذه الأغنية معروفة فى باريس ، وشائعة بين طبقات العمال فيها ، وهذه هى تتمة الكلام الناقص :

« القلب اذا ما اشتبك بحب راع ، لا ينجو من خطر

« فالشوك دائما تحت الورد » .

على دموعى الاسترسال فيها ! ولقد اعتزمت مرارا لا حصر لها أن اكتب إلى باريس متحريا عن بقية الكلمات ، إذا كان ثمة من يعرفها . على اننى أكاد أكون موقنا من أن قسطا من الطرب الذى أشعر به إذ أتذكر اللحن ، لن يلبث أن يتلاشى ، إذا تبينت أن هناك من ترنم بهذه الأغنية غير عمتى « سوسن » المسكينة !

* * *

وهكذا كانت مشاعرى الأولى فى بداية عهدى بالحياة .. وهكذا بدأ يتكون ويتكشف فى صدرى ذلك القلب الأبى الشفوق وتلك الشخصية التى لا تلين ولا تنثنى برغم رقتها القريبة من الأنوثة ، والتى استطاعت خلال حياتى ــ بتذبذبهـا بين الخجل والجرأة ، وبين الضعف والسيطرة على النفس ــ أن تجعلنى متقلبا ، والتى تسببت فى أن أصبحت التقوى والمتعة ، واللهو والتعقل ، تفلت من قبضتى على السواء !

ثم قطع على المضى فى الحظوة بهـذه التربية حادث ، كان لتبعاته تأثير على كل ما تبع ذلك فى حيـاتى : فقـد اشتجر أبى مع «يوزباشى» فى الجيش الفرنسى يدعى « جوتييه » ، كان على علاقة ببعض أعضاء المجلس الشعبى . ولقد نزف أنف ذلك « الجوتييه » ـ الذى كان جبانا ، وقحا ـ أثناء الشجار ، فأراد أن يثأر لنفسه ، واتهم أبى بأنه شهر سيفه داخل أسوار المدينة . وقـد تشبث أبى ــ الذى أرادوا أن يلقـوا به فى السجن ــ بأن لابد لصاحب الاتهـام أن يرسل هو الآخر إلى السجن ، وفقا للقانون . فلما عجز عن أن يحقق هذا ، آثر أن

يهجر (جنيف) ، وأن ينفى نفسه من وطنه بقية حياته ، على أن يتخلى عن أمر يتعلق بالشرف والحرية ، كما تراءى له !

وبقيت أنا فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان فى تلك الحقبة يعمل فى إنشاء استحكامات (جنيف) . وكانت ابنته الكبرى قد ماتت ، وبقى له ابن فى مثل سنى . فأوفدنا معا إلى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، كى نتلقى ــ إلى جانب اللغة اللاتينية ــ كل تلك السفاسف الداعيــة للأسف ، والتى يزج بها تحت اسم التربية والتعليم . وقد ألانت السنتان اللتان قضيتهما فى القرية من خشونتى الرومانية بعض الشىء ، وردتانى طفــلا من جديد . ففى جنيف كنت أهوى المطالعة والاطلاع ، إذ لم تكن ثمة مهام مفروضة على .. أما فى (بوسى) فان واجباتى جعلتنى أحب الألعاب التى كانت تتيح لى الفرار من تلك الواجبات . وكان الإقليم جديدا بالنسبة إلى ، فلم يهن استمتاعى به ، وقــد تملكتنى عاطفــة قوية نحوه ، لم تخب منذ ذلك الحين . فكانت ذكرى الأيــام الهنيئة التى قضيتها هناك تملأ نفسى حنينا محسورا إلى بهجتها ، فى كل فترات حياتى ، حتى اليوم الذى قدر لى فيه أن أعود إلى ذلك الإقليم !

ولقد كان مسيو « لامبرسييه » لبيبا ، ذكيا ، لم يسرف قط فيما كان يفرضه علينا من واجبات ، ولم يهمــل فى تعليمنا . ويكفى دليلا على أن أسلوبه فى التعليم كان جيدا ، أننى برغم كراهيتى للقيود ، لم أذكر مرة سويعات دراستى بامتعاض .. وأننى ، حتى إذا كنت لم أتعلم كثيرا على يديه ، استوعبت فى

غير عناء ما تلقيته عنه ، فلم أنسه أبداً . وكانت بساطة الحياة الريفية لا تقدر بقيمة فى اعتبارى ، فقد فتحت قلبى للصداقة. إذ أننى لم أكن قد عرفت حتى ذاك الحين سوى بعض المشاعر ، التى كانت ـ على سموها ـ خيالية متعلقة بأوهام !. على أن تعود العيش فى وئام مع ابن خالى ـ وابن عمتى فى الوقت ذاته ـ شد كلا منا إلى الآخر بروابط من التعاطف ، وسرعان ما أصبحت عواطفى نحوه أكثر مودة من تلك التى كنت أوثر بها أخى ، ولم يقدر لها قط أن تهن أو تضعف . وكان ابن خالى طويلا ، نحيفا ، ضعيفا .. رقيقا فى مسلكه بقدر ما كان رقيقا فى بنيانه ، لم يحاول مطلقا أن يسىء استغلال الايثار الذى كان يلقاه فى البيت بوصفه ابن الرجل الذى كان يكفلنى !.. وكانت واجباتنا ، وميولنا ، وأذواقنا واحدة . وكنا وحيدين ، وفى سن واحدة ، وكل منا بحاجة إلى زميل .. فكان الفراق ـ فى نظرنا ـ نوعا من الهلاك !.. ومع أنه لم تتح لنا سوى فرص قليلة لإبداء هذا التعلق المتبادل ، إلا أنه كان تعلقا قويا شديداً ، فلم يكن من العسير علينا ـ فحسب ـ أن نعيش لحظة متباعدين ، بل إننا لم نكن نتصور أن من المحتمل أن نفترق !

.. ولما كان كل منا على استعداد لأن يجنح إلى اللطف والدعة مع الآخر ـ فى الأحوال التى لم يكن فيها أى قسر ـ فاننا كنا داوما على اتفاق فى كل شىء . وإذا كان ابن خالى قد اعتاد أن يحظى بشىء من الامتياز دونى ، عندما كنا نجتمع باللذين كانا يرعياننا ـ نظرا لمكانته فى اعتبارهما ـ فاننى

كنت أحظى ، إذا ما خلا كل منا إلى الآخر ، بامتياز عليه ، مما كان يحقق التعادل بيننا .. فكنت ــ ونحن نستذكر دروسنا ــ أؤنبه إذا ما أبطأ ، كما كنت أساعده إذا ما فرغت من واجباتى الدراسية .. أما فى تسليتنا وألعابنا ، فقد كان عقلى أكثر نشاطا من عقله دائما ، مما كان يكفل لى الزعامة . وقصارى القول أن شخصيتينا انسجمتا تمام الانسجام ، كما أن الصداقة التى توثقت بيننا كانت من الاخلاص الصادق بحيث اننا لم نكن نفترق تقريبا ، طوال السنوات الخمس التى قضيناها معا ، سواء فى (بوسى) أو فى (جنيف) .. ومع أننا كنا نشتجر أحيانا ، الا أن الشجار لم يكن ليفرق بيننا ، ولا كانت منازعاتنا تدوم لأكثر من ربع ساعة ، ولا كان أى منا يشكو الآخر أو يتجنى عليه !.. وقد تكون هذه الملاحظات صبيانية ــ إن شئت أن تراها كذلك ــ ولكنها تضرب مثلا قد يكون فريدا فى نوعه ، مذ وجد أطفال على الأرض !

* * *

ولقد راقت لى الحياة التى مارستها فى (بوسى) ، حتى انها لو دامت أطول مما قدر لها لكانت خليقة بأن تشكل شخصيتى .. فقد كان أساسها الحنان ، والعطف ، والرقة .. وكنت أومن بأن أحدا من أبناء نوعنا لم يكن يبزنى فيما فطرت عليه من تحرر من الغرور . وكنت أسمو بنفسى فأحلق عاليا ، ثم لا ألبث سراعا أن أهوى إلى ضعفى الطبيعى واستخذائى .. كانت أكثر رغباتى إلحاحا ، هى أن أكون محبوبا لدى كل من يتصل بى عن كثب . وقد كنت ذا فطرة رقيقة ، وكذلك كان ابن خالى ، والشخصان اللذان وكلت إليهما رعايتنا . ومن ثم

فاننى لم أشهد ، ولا خبرت ـ خلال عامين كاملين ـ أى شعور أهوج عنيفا ، بل كان كل شيء يغذى فى قلبى تلك الميول التى أودعته الطبيعة إياها . ولم أكن أعرف سعادة تسمو على أن أرى كل الدنيا راضية عنى، وعن كل شيء ! ولن أنسى ما حييت أن شيئا لم يكن يقض راحـــة بالى ، قـــدر مشاهدتى أمارات القلق والاستياء على محيـــا الآنسة « لامبرسييه » ـــ أخت القس ـــ عندما كان يقـــدر لى أن أتردد أو أتلعثم ، وأنا أتلو الدرس الدينى من الذاكرة فى الكنيسة . كان هذا ـــ فى حـــد ذاته ـــ أكثر إزعاجا لى من أن أكشف عن عجز فى أمام الملأ ، على ما كان فى هذا من إيلام لنفسى . ذلك لأنه وإن لم يستخفنى الاطراء ، إلا أننى كنت شديد التأثر بما يخجل . وانى لاذهب هنا إلى القول بأن التفكير فى تأنيبات الآنسة « لامبرسييه » كان أقل ازعاجا لى من الخوف من أن أجرح شعورها !

على أن الشدة لم تكن تعوز الآنسة وشقيقها ، إذا دعا إليها الأمر .. ولكن هذه الشدة كانت عادلة فى الغالب ، ولم تكن قط صادرة عن انفعال أو موجدة ، ومن ثم فانها كانت تؤلمنى دون أن تثير تمردى .. كان الاخفاق فى الارضاء أقسى وقعا على نفسى من العقاب ، وكانت أمارات الاستياء أكثر إيذاء لى من العقاب البدنى .. وقد يكون من المحرج أن أمضى فى الحديث عن نفسى بأكثر من هذا ، ولكننى لا أجد بدا .. فما أشد ما تتغير إليه معاملة المرء للصغار ، إذا قدر له أن يرى بجلاء مدى آثار أسلوب المعاملة المألوف ، الذى ينتهج دائما دون ما تبصر ولا حكمة !.. وان الدرس الهام الذى قد يستمد من مثـــال

واحد ــ شائع بقدر ما هو خطير العواقب ــ ليحملني على أن أروى هذا المثال :

كانت الآنسة « لامبرسييه » تكن لنا حنان الأمومة ، ولكنها كانت كذلك تفرض علينـــا سلطان الأم ، وكانت أحيانا تذهب في ذلك إلى حد معاقبتنا ـ كما يعاقب الأطفال ـ عندما نستحق ذلك . ولقـــد اكتفت ــ بعض الوقت ــ بالتهديدات ، فكان الانذار بالعقاب يبدو لي رهيبا ، إذ كان جديدا على .. على أنني تبينت ــ بعد تنفيذه ــ أن الواقع كان أقل رهبـــة من الترقب .. والأغرب من ذلك ، أن العقاب جعلني أكثر تعلقا بتلك التي أنفذته في ! ووجدتني بحاجة إلى أن أتذرع بقوة هذا التعلق ، وبكل ما أوتيت من وداعة فطرية ، لأكبح نفسي عن اتيان ما قد يجعلني أهلا لتكرار العقاب ، إذ أنني كنت أشعر في الألم ــ على ما فيه من خزي ــ بلـــذة تجعلني أقل خوفا ، وأكثر رغبة في أن أحظى به مرة أخـــرى ، من نفس اليد !.. ولا ريب في أن غريزة جنسية ما ، ذات نضوج مبـــكر سبق أوانها ، كانت تخالط هذا الشعور ، لأن عين النوع من العقاب لم يكن يبدو مستحبا إذا ما أوقعه بي شقيق الآنسة !.. على أنه لم يكن ثمة خوف من أن يحل القس محل أخته في معاقبتي ، نظرا لرقة مشاعره . وإذا كنت قد نأيت بنفسي عن أن أستحق العقاب ، فما كان ذلك إلا عن خوف من أن أتسبب في استياء الآنسة لامبرسييه . ذلك لأن كرم الخلق كان أقوى تأثيرا على نفسي من كل لذة حسية ، ومن ثم فقد كان دائما يسيطر على هذه الأخيرة في أعماقي !



كانت كذلك تفرض علينا سلطان الأم ، وكانت
أحيانا تذهب فى ذلك الى حد معاقبتنا ..

ولقد نجم تكرر العقاب ـــ الذى تفاديته دون أن أخشاه ـــ عن غير ذنب منى .. ولى أن أقول اننى أفدت منه ، دون أى تبكيت من ضميرى .. ولكن هذه المرة الثانية كانت هى الأخيرة كذلك ، لأن الآنسة لامبرسييه ـــ التى لاحظت ولا شك شيئا أقنعها بأن العقاب لم يؤت الأثر المنشود ـــ أعلنت أن هـــذا العقاب يضنيها ، وأنها لذلك اعتزمت أن تتحول عنه ! وكنا حتى ذلك الحين ننام فى غرفتها ، بل وفى سريرها أحيانا ، أثناء الشتاء . ولكنا ـــ بعد يومين ـــ نقلنا للنوم فى غرفة أخرى . ومنذ ذلك الوقت ، حظيت بشرف المعـــاملة كفتى كبير ، وهو شرف كنت على استعداد لأن اتخلى عنه مغتبطا !

* * *

ومنذا الذى كان يصدق أن هذا العقاب الصـــبيانى الذى كانت تنزله بى ـــ وأنا لم أتجاوز الثامنة من عمرى ـــ شابة فى الثلاثين ، قد أثر على ميولى ، ورغباتى ، ونزواتى ، وعلى نفسى ذاتها ، طوال بقية حياتى ، وبشكل يناقض تماما النتيجة الطبيعية التى كان ينبغى أن يؤدى إليهـــا ؟.. فما أن اتقدت مشاعرى مرة ، حتى انطلقت شهـــواتى ، وإن لم تحفل بأن تتطلع إلى أكثر من الارضاء المحدود الذى شعرت به بالفعل فى ذلك العقاب !.. على أننى برغم دمى الحار ـــ الذى كان يتقد بالشهوة منذ مولدى تقريبا ـــ صنت نفسى عن كل شـــائبة ، حتى السن التى تستيقظ فيها أبرد الطباع وأكثرها فتـــورا وبطءا !.. فقضيت زمنا طويلا التهم كل الحسان اللائى كنت أقابلهن بنظرات متقـــدة ، وأنـــا أتعذب دون أن أدرى لذلك سببا !.. وكان خيالى لا يفتأ يذكرنى بهن ، لا لشىء إلا لأستغل

أطيافهن على طريقتى الخاصة ، فأجعل منهن نسخا عديدة من الآنسة لامبرسييه ! .. بل إن هذا الذوق الغريب ـ الذى ظل كامنا فى نفسى على الدوام ، والذى ذهب سلطانه على إلى حد أن فرض على الحرمان واستبد بى إلى درجة تثير الغيظ ـ ان أخلاقى ، حتى بعد أن بلغت سنى النضوج ، برغم أنه كان خليقا ـ بطبيعته ـ بأن يقوض من هذه الأخلاق !

وإذا كانت ثمة تربية عفة طاهرة ، فهذه هى تربيتى يقينا. فان عماتى الثلاث لم يكن أمثلة للتقوى فحسب ، بل إنهن كن متحفظات إلى درجة لم تعد مألوفة بين النساء منذ أمد طويل. وكان أبى محبا للهو ، ولكنه كان فى لهوه من أتباع المدرسة القديمة فى الكياسة ، فما نطق يوما بكلمة يمكن أن تبعث حمرة الخجل إلى وجنات العذارى ، ولو فى حضرة نساء يؤثرهن بما لم يكن يؤثر به سواهن من حب .. ولم يكن الوقار ـ الخليق بأن يلتزم فى حضورالصغار ـ موضوع مراعاة فى أسرة ما ، قدر ما كان مرعيا فى أسرتى ، وفى حضورى ..

وقد وجدت من السيد لامبرسييه نفس الحرص فى هذه الناحية ، حتى لقد فصل من خدمته خادما جد بارعة ، لمجرد انها استعملت فى حضورنا تعبيرا كان يعتبر مستهجنا غير لائق !.. وقد ظللت حتى بلغت مبلغ الرجال ، دون ما فكرة واضحة عن الجماع بين الجنسين .. ليس هذا فحسب ، بل إن الصورة المبهمة ، غير الواضحة المعالم عن الجماع ، لم تكن لتخطر ببالى إلا فى أقبح الأشكال وأزراها . وكنت أشعر نحو البغايا بازدراء عارم لم تخف حدته يوما ، وظل أى مشهد

للفجور يملأ نفسى بالسخط ، بل وبالاشمئزاز دائما . . وهكذا ولد استبشاعى للفسق منذ اليوم الذى سرت فيه إلى تـلال (بيتى ساكونيكس) ـ على غير قصد واضح منى ـ فشهدت على الجانبين حفرا فى الأرض ، قيل لى إن تلك المخلوقات ـ البغايا ـ كن يمارسن فيهـا بغاءهن . وقد ظل مجـرد التفكير فى أى بغى ، يبعث فى ذهنى صورة جمـاع الكلاب ، فكانت الذكرى وحدها كافية لأن تثير اشمئزازى !

هذا الاتجاه الذى اتجهت إليه تربيتى ، والذى أدى ـ فى حد ذاته ـ إلى تأخير الاندلاعات الأولى لطباع قابلة للالتهاب . . أقول إن هذا الاتجاه وجد ـ كمـا ذكرت ـ ما يعززه فى الاتجاه الذى اتخذته أولى بوادر الحس الشهوانى فى حالتى . فان اقتصارى فى شغل خيالى على ما أحسست به بالفعـل ـ برغم ما كان فوران دمى يسببه لى من متاعب ـ علمنى كيف أحول شهواتى نحو هذا النوع من اللهو الذى كنت آلفه ، دون أن اتمادى إلى ذلك النوع الذى وجدت نفسى تبغضه ، والذى كان جد وثيق الارتباط بالنوع الآخـر !. . فكنت فى تصوراتى الطائشة ، وفى فوراتى الجنسية المـكبوتة ، وفى التصرغـات الهوجاء التى كانت تدفعنى هذه وتلك إليها أحيانا . . كنت فى كل هذه ، ألجأ فى « خيالى » إلى الاستعانة بالجنس الآخر ، دون أن يخطر قط ببالى أن هـذا الجنس يصـلح لخدمة أى غرض سوى ذاك الغرض الذى كنت أتحـرق شوقا إلى أن استخدمه فيه . وعلى هذا النحو استطعت ـ برغم ما جبلت عليه من طبيعة شهوانية هوجاء تسبق أوانها فى النضوج ـ

أن أجتاز فترة البلوغ دون شـــهوات ، بل دون ما إدراك لأية ملذات شهوانية اللهم إلا تلك التى نبهت الآنســـة لامبرسييه حسى إليها فى براءة تامة ، ودون أن تفطن !

فلما بلغت ــ مع الزمن ــ مبلغ الرجال ، إذا بالأحاسيس التى كانت خليقة بأن تقضى على ، هى ذاتها التى صانتنى من الدمار . . وبدلا من أن يختفى شعورى الصبيانى القديم ، إذا به يقترن بالشعور الآخر ــ المتسامى ــ بدرجة تعذر على معها أن أقصيه عن الرغبات التى أخذت شهواتى تذكيها فى نفسى . . وكان هذا الجنون ، إلى جانب ما جبلت عليه من خجل فطرى ، يجعلنى دائما أبعد ما أكون عن أن أروق فى نظر النساء ، إذ كانت تعوزنى الجرأة على أن أقول كل ما ينبغى أن يقال ، كما كانت تعوزنى القدرة على أن أفعل كل ما ينبغى أن يفعل . . ذلك لأن النوع الذى كان يروق لى من المتعة ــ والذى كانت اللذة الأخرى هى الحلقة النهائية المكملة له ــ لم يكن ممـــا يلجأ إليه المشوق إلى اللذة ، ولا مما يخطر ببال المرأة التى تجد من نفسها استعدادا لأن تمنح اللذة !.

* * *

وهكذا قضيت عمرى فى شوق متقاعس ، دون أن أنبس ببنت شفة فى حضرة أولئك النساء اللواتى أحببتهن كل الحب . . على أننى أرضيت ذوقى أخيرا ــ وأنـــا أشـــد ما أكون استحياء من المجاهرة به ــ فى مواقف كانت تتمشى معه ، وإن احتفظت فى نفسى بالفكرة ! . . فكان مجرد الاستلقاء عند قدمى سيدة جليلة ، وإطاعة أوامرها ، واستغفارى إياها ، أحلى

متعة فى رأيى !.. وكلما أذكى خيالى النشـــيط وقدة دمائى . ازداد ظهورى بمظهر العاشق الخجـول . ومن الســـهل أن يتصور أى امرىء أن هذا النهج فى الهوى لا يقـود إلى نتائج عاجلة ، ولا هو جد خطير على فضيلة أولئك الذين يخضعون لسلطانه .. ومن أجل هذا ، ندر أن ضاجعت امرأة ، ولكننى ــ مع ذلك ــ متعت نفسى بطريقتى الخاصـــة .. أعنى ، فى خيالى فقط !.. وهكذا تسنى لأحاسيسى المنسجمة مع طبعى الخجول وروحى الخيالية الشاعرية ، أن تصـــون مشاعرى نقية ، وأخلاقى خالصة مما يعاب ، وذلك بفضل نفس النزوات التى كانت خليقة ــ إذا ما اقترنت بقليل من النزق ــ بأن تزج بى إلى أبشع مسلك شهوى حيوانى !

بهذا أكون اجتزت أصعب الخطوات فى أظلم وأقذر الدروب فى اعترافاتى . وإنه لأيسر على المرء أن يعترف بالذنب ، منه بأن يقر بالنزق الذى يدعو إلى الخزى . ومن ثم غانى واثق من أننى ــ بعد أن جرؤت على أن أقول ما قلت ــ لن أجفل من شىء . وفى وسع أى إنسان أن يقدر مدى ما كبدتنى هذه الاعترافات ، إذا علم أننى خلال حياتى كلها لم اجسر قط على أن أفضى بشىء من ضـــلالاتى لأولئك الذين احببتهم بعاطفة هوجاء حرمتنى البصر والسمع ، وسلبتنى مداركى ، وجعلتنى ارتجف فى اختلاجات عنيفة .. فما استطعت يوما أن احمل نفسى على أن أسأل امرأة أن تمنحنى النعمة المشتهاة دون كل النعم ، مهما كنت وثيق الصلة بها !.. أجل لم يحدث لى هذا سوى مرة واحدة ، وكان ذلك فى حداثتى ، ومع فتاة من سنى .. وحتى فى تلك المرة ، كانت الأنثى هى السباقة إلى العرض !

وإذ أرجع بالذاكرة إلى المعالم الأولى فى حياتى الداخلية ، أعثر على عوامل قد تبدو ـ فى بعض الأحيان ـ غير ذات بال ، ولكنها مع ذلك اتحدت لتنتج فى قوة أثرا بسيطا مهذبا .. كما أعثر على عوامل أخرى ، قد تبدو ـ فى ظاهرها ـ كسابقتها ، ولكنها كونت اتحادات مختلفة عن تلك ، بفضل تعاون ظروف معينة ، دون أن يتصور المرء مطلقا أنهـا كانت مترابطة !.. فمثلا ، منذا الذى يعتقد أن نزعة من أقوى نزعات نفسى قد هذبت وذللت فى أعماقى النبع الذى فاض منه فى دمى سيل من الشهوة ومن التخنث ؟.. ولسوف أرسم على ضوء هذا الموضوع ـ ودون أن أخرج عن نطاقه ـ صورة أخرى مختلفة: فقد حدث ذات يوم أن كنت استذكر درسى فى عزلة فى الحجرة المجاورة للمطبخ ، وكانت الخادم قد وضعت أمشاط الآنسة لامبرسييه أمام المدفاة لتجف . فلما جاءت لتستعيدها ، وجدت مشطا قد تحطمت جميع أسنانه .. فعلى من كان يقع اللوم ؟ لم يكن ثمة من دخل الحجرة سواى ! فلما سئلت ، أنكرت أننى مسست الأمشاط ، فشرع السيد والآنسة لامبرسييه فى أخذى بالرفق ، ثم بالضغط ، ثم بالوعيد ، ولكننى أصررت على إنكارى فى عناد . على أن القرائن كانت جد قوية ، بحيث فاقت كل احتجاجاتى ـ برغم أنها كانت المرة الأولى التى ظن فيها أننى أكذب بمثل هذه الجرأة ! ـ فاعتبرت المسألة خطيرة ، وكانت فى الواقع جديرة بذلك . وبدأ الذنب ، والكذب ، والعناد ، خليقة كلها بأن تتطلب العقاب ، ولكن العقوبة لم تنفذ بيد الآنسة لامبرسييه فى هذه المرة ، وإنما أرسل خطاب إلى خالى برنار ، فحضر واتهم ابن خالى المسكين بذنب آخر

خطير ، لا يقل عن ذنبى ، فحق عليه نفس العقاب ، وما كان أفظعه !.. فلو أنهم شاءوا أن يستخلصوا العلاج من الداء ، وأن يقتلوا إلى الأبد أحاسيسى المكبوتة ، لما فعلوا أكثر مما فعلوا فى هذه المناسبة ، فقد كفت مشاعرى الشهوية عن إزعاجى أمدا طويلا بعدها !

ذلك أنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا منى الاعتراف المنشود. ومع أننى مثلت بين أيديهم عدة مرات ، وتعرضت لمحاولات أرهقتنى إلى درجة خليقة بالرثاء ، إلا أننى لم أتزعزع عن موقفى . وكنت على استعداد لأن أصمد حتى الموت ، وقد عقدت عزمى بالفعل على ذلك ! واضطرت القوة إلى أن تتراجع أمام « العناد الشيطانى » الذى كان صادرا عن غلام صغير — كما وصفوا ثباتى — وأخيرا نجوت بجلدى من هذه المحاكمة القاسية وأنا محطم .. ولكننى كنت منتصرا ! ولقد انقضى حتى الآن خمسون عاما منذ وقع هذا الحادث — فلست أخشى أن أعاقب ثانية من أجله — ومن ثم فاننى أعلن على مشهد من السماء أننى كنت بريئا من الذنب ، وأننى لم أكسر المشط أو أمسه ، ولا اقتربت من المدفأة ، بل ولا فكرت فى ذلك .. ولا جدوى من وراء سؤالى عن كيفية حدوث ما حدث ، فاننى لا أدرى ولا أستطيع أن أدرى .. كل الذى أعلمه عن يقين ، هو أننى لا شأن لى به !

* * *

ولكم أن تتصوروا شعور غلام خجول ، ومطيع فى حياته العادية ، ولكنه شديد الاعتزاز ، مفرط الكبرياء ، جامح

العواطف .. غلام لم ينقد قط إلا إلى صوت العقل ، ولم يعامل إلا بالرفق ، والانصاف ، والتقدير ، فليست لديه أية فكرة عن الظلم .. تصوروا غلاما كهذا يتعرف للمرة الأولى على مثل هذه الصورة الفظيعة للظلم ، وعلى أيدى أولئك الذين كان يحبهم بالذات ويحترمهم أكثر من غيرهم !.. فيالها من صدمة خيبت آراءه ! ويا له من حادث أخل باتزان مشاعره ! ويا له من انقلاب ألم بقلبه وعقله وكل كيانه الذهنى والمعنوى على صغره ! تصوروا هذا إن استطعتم !.. أما أنا ، فإننى أعجز عن تبين أو تتبع أى أثر من الآثار التى خالجتنى من جرائه !.. ذلك أنه لم يكن لى من الإدراك يومئذ ما يمكننى من أن أرى إلى أى مدى كانت الظواهر تقف ضدى ، ومن أن أضع نفسى فى موقف الآخرين. لقد صمدت فى موقفى ، فكان كل ما شعرت به يتمثل فى قسوة العقاب الرهيب عن ذنب لم ارتكبه .. ولم احس بالألم الجسدى ـ برغم شدته ـ إلا قليلا ، وإنما كان كل شعورى ينحصر فى السخط ، والغضب ، والقنوط .. وكذلك كان ابن خالى ـ الذى كانت حاله مشابهة لحالى ، والذى عوقب لخطأ صدر عن غير إرادته وكأنه كان عملا مدبرا متعمدا ـ فقد لاذ بسخط مثل سخطى ، وانساق إلى عين الانفعال الذى انسقت إليه . وإذ كنا ننام فى سرير واحد ، فقد احتضن كل منا الآخر فى ضمات تشنجية ، حتى شعرنا بأننا نوشك أن نختنق . وعندما سرى عن قلبينا الصغيرين بعض الشىء ـ فى النهاية ـ بدأ القلبان ينفثان غلهما ، فاستوينا جالسين فى سريرنا ، ورحنا نصرخ بأعلى صوتنا ، مرات لا عداد لها : « أيها الجلاد !.. الجلاد !.. الجلاد ! ».

إننى لأشعر ــ إذ أكتب هذه الكلمات ــ بأن خفقات قلبى تتسارع ، فلسوف تظل ذكرى تلك اللحظات ماثلة أمامى أبدا ، ولو عشت مائة ألف سنة !.. لقد ظل أول شعور لى بالعنف والظلم محفورا فى نفسى إلى درجة أن كل الأفكار المتصلة به تردنى دائمـا إلى الانفعالات الأولى التى خالجتنى .. وقـد اشتد هذا الشعور ، الذى لا قيمة له فى جوهره إلا لدى أنـا وحدى ، اشتد فى حد ذاته ، واستقل عن كل تأثر أو ميـل شخصى ، حتى أن قلبى ليكتوى حنقـا كلما سمعت أو رأيت أى عمل من أعمال الظلم ــ مهما تكن فريسته أو أينما يرتكب ــ وكأنما ينصب تأثيره على أنا .. وعندما أقرأ عن فظائع أى جبار طاغية ، أو منكرات أى قس لئيم ، فاننى لا أتردد فى أن أغمد خنجرا فى قلب شـقيين كهذين ، وأنـا مسرور .. ولو قضى على بأن أعدم مائة مرة من أجل ذلك !.. وكثيرا ما أنهكت نفسى ــ حتى يتفصد العـرق منى ــ وأنا أطارد ، أو أرمى بالأحجار ديكا أو بقرة أو كلبا ، أو أى حيوان أكون قد رأيته يعذب حيوانا آخر لمجرد شعوره بأنه الأقوى !.. وقد تكون هذه النزعة طبيعية بالنسبة لى ــ وإنى لأعتقد أنها كذلك ! ــ ولكن الأثر الذى خلفه الظلم الأول فى نفسى ظل طويلا مرتبطا بها بقوة بالغة ، إلى درجة لم يكن من الممكن معها ألا يقـوى ويشتد !

وبوقوع الحادث الذى رويتـه ، ولت طمأنينـة طفولتى ووداعتها ، فكففت منذ تلك اللحظة عن الاستمتاع بأية سعادة صافية ، ولا أزال أشعر ــ إلى اليوم ــ بأن ذكـرى مفاتن

طفولتى ، وقفت عند ذلك الحد ! ولقد مكثنا بعد الحادث بضعة شهور فى (بوسى) ، غير أننا كنا هناك كما كان الإنسان الأول فيما يصورونه لنا : كنا فى جنة أرضية ، ولكنا لم نعد نستمتع بها ! صحيح أن حالنا ظلت فى ظاهرها على ما كانت عليه ؛ ولكنها كانت قد تغيرت فى جوهرها تغيرا تاما . فإن التعلق ، والاحترام ، والمودة ، والثقة ، لم تعد تربط التلميذين برائديهما . ومن ثم فإنا لم نعد نعتبرهما من « الآلهة » ! لم نعد نعتبرهما إلهين قادرين على استطلاع قلبينا . ولهذا اصبحنا أقل من ذى قبل استحياء من ارتكاب الأخطاء ، وأكثر خوفا من أن نتعرض للاتهام .. وبدأنا نفقد سذاجتنا ، وطاعتنا ، وشرعنا نلجأ إلى الكذب .. وقوضت كل رذائل السن التى كنا نجتازها ، براعتنا ، وألقت على موارد تسليتنا قناعا قبيحا ! بل إن الريف ذاته فقد فى نظرنا ما كان له من روعة وبساطة فاتنتين تتغلغلان فى القلب ، وأصبح يلوح لنا موحشا كئيبا . أصبح يبدو وكأنه استتر وراء قناع حجب جماله عن أعيننا . فكففنا عن فلاحة حوضينا فى الحديقة ، وعن غرس نباتاتنا وزهورنا .. ولم نعد نفلح الأرض فى رفق ونصيح فرحا حين نرى البذرة التى غرسناها قد بدأت تشق وجه الأرض . أصبحنا نكره الحياة ، وأصبح الغير يكرهوننا ، ومن ثم اصطحبنا خالى معه ، فافترقنا عن السيد والآنسة لامبرسييه وقد سئم كل فريق منا الفريق الآخر ، فلم نأسف على الفراق إلا قليلا !.. بل لقد مكثت حوالى ثلاثين عاما بعد مغادرة (بوسى) دون أن استعيد فترة إقامتى بها مصحوبة بأى سرور أو ذكريات !

أما الآن ــ وقد تجاوزت شرخ العمر ، وأخــذت أدنو من الشيخوخة ـــ فانني أشعر بهـــذه الذكريات بالذات تقفز إلى بالى ، بينما يتوارى سواها .. إنها لتنطبع على صفحة ذاكرتى بخطوط يتضاعف سحرها ووضوحها يوما بعد يوم ، وكأننى ــ إذ أشعر بالحياة وقد بدأت تتسلل منى ــ أحاول أن أمسك بناصيتها ، فأغتبط بأتفه أحداث ذلك العهد ، لا لشىء إلا لأنها تنتمى إلى تلك الفترة من حياتى !.. وأكاد أبصر الخادمة أو الخادم منهمكا فى تنسيق الغرفة ، أو عصفورا يمرق خــلال النافذة ، أو ذبابة تحط على يدى وأنا أتلو ما استذكرت من دروسى .. بل إننى لأتمثل الغرفة التى اعتدنا أن نقيم فيها ، بكل تفصيلاتها .. وإلى يمينها غرفة مكتب السيد لامبرسييه ، ولوحة نحاسية نقشت عليها رسوم كل البابوات ، و «بارومتر» ، وتقويم (نتيجـــة حائط) كبير معلق على الجدار ، وأشـــجار الخداش(١) الكثيفة ـــ التى كانت تنمو على بقعة جد مرتفعة من الحديقة ـــ تواجه مؤخرة الدار ، ومن ثم فانها كانت تنشر ظلالها على النافذة ، وقد تقتحمها أحيانا !.. وانى لأدرك أن القارىء غير راغب فى الإلمـــام بكل هذا ، ولكنى مسوق إلى أن أقصه عليه ، فلماذا لا تواتينى الجرأة على أن أروى له كذلك كل الحكايات التافهـــة التى وقعت فى ذلك العهـــد السعيد ، والتى تهزنى نشوة حين اتذكرها ؟

---

(١) « الخداش » نبات متسلق ذو ثمار حمراء ، يشبه العليق .

إننى لأتوق إلى أن أروى خمسا أو ستا منها ، بوجه خاص .. ولكن ، لنجعلها صفقة بيننا ! سأنزل عن خمس منها ، بيد أننى راغب فى أن أروى لك السادسة ، على شريطة أن تسمح لى بأن أرويها بكل تفصيل ممكن ، لكى أطيل فى اغتباطى !.. ولو أننى اقتصرت على ما فيه فكاهة لك ، لاخترت لك قصة سقوط الآنسة لامبرسييه فى المرج ، وانكشاف ظهرها ــ أو عجزها على الأصح ــ لسوء حظها ، حتى لقد بان بأكمله للملك (سردينيا) الذى تصادف مروره فى تلك الفتــرة !.. ولكن قصة شجرة الجوز المطلة على الشرفة ، أكثر إمتاعا لى ، إذ قمت فيها بدور ــ فى حين كنت مجرد متفرج فى قصة السقوط فى المرج ! ــ كما أعترف بأننى لا أجد ما يدعو قط إلى الضحك فى حادث أثار ــ برغم طرافته ــ خوفى على سلامة شخص كنت أحبه . فقد كنت أحب الآنسة لامبرسييه كأم ، بل أكثر من أم !

والآن ، انصتوا أيها المتشوقون إلى حكاية شجرة الجوز المطلة على الشرفة .. انصتوا إلى المأساة الرهيبة ، وحاولوا أن تتفادوا الارتجاف إن استطعتم !.. ففى خارج باب فناء البيت ، كانت تقوم إلى يسار المدخل شرفة اعتدنا أن نجلس فيها فيما بين الظهيرة والأصيل . ولمــا كانت فى غير وقاء من الشمس مطلقا ، فقــد أمر السيد لامبرسييه بإقامة شــجرة جوز هناك ، وتمت عملية غرسها فى أكثر مظاهر الاحتفــال جلالا ، إذ اختير نزيلا الدار ــ أنا وابن خــالى ــ اشبينين للشجرة ! وبينما كان التراب ينهال فى الثغرة التى أقيمت فيها الشجرة ، أسند كل منا الشجرة بإحدى يديه ، ورحنا نردد

أناشيد الانتصار والفوز !.. ولرى الشجرة ، أنشىء حـول أسفل جذعها ما يشبه الحوض . وإذ رحت وابن خالى نرقب ريها كل يوم بشغف ، اشتد بنا الاقتناع ـ بطبيعة الحال ـ بأن من المستحسن غرس شجرة أخرى فى الشرفة ذاتها ، فان هذا أفضل من أن ننشر غطاء على ما بين فروع شجرة الجوز من ثلمات .

وعقدنا العزم على أن نستأثر بما فى هذا العمل من فضل ، فلا نشرك معنا أحدا .. ولهذا بادرنـا فقطعنـا غصنا من صفصافة ، وغرسناه فى الشرفة ، على مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة أقدام من شـجرة الجوز الضخمة . ولم ننس أن نحفر حول شجرتنا قناة لريها شبيهة بتلك التى حفـرت حول الشجرة الأخرى ، ولكن الصعوبة تمثلت فى ابتكار طريقة لملء القناة بالماء ، إذ كان الماء ينساب على مسافة من الشجرة ، ولم يكن مباحا لنـا أن نهرع لاجتلابه .. ومع ذلك فلم يكن ثمة غنى عن اجتلاب قدر منه لصفصافتنا . وقضـينا بضعة أيام نجرب كل طريقة ممكنة للحصول على ماء ، حتى نجحنا إلى درجة دبت عندها الحياة فى الشجرة ، فنبتت عليها أوراق صغيرة . واقتنعنا نموها ـ الذى كنا نحسبه ونقيسه فى كل ساعة ـ بأنها لن تلبث أن تفىء علينا ظلالا ، برغم أن طولها لم يكن قد تجاوز قدما واحـدة !.. وإذ استأثرت شجرتنا بكل اهتمامنا حتى أننا لم نعـد قادرين على تلقى أو استذكار أى درس ، وأصبحنا في غشية حجبت عن عقولنا كل شىء آخر .. وإذ شد رائدانا قبضتيهما علينا ، وهما لا يدريان ما ألم بنا ،

رأينا أن اللحظة الحاسمة التى لن نجد فيهـا ماء لشـجرتنا وشيكة الحلول ، فطارت نفسانا شعاعا لمجرد التفكير فى رؤية الشجرة تذوى من العطش .. وأخيرا ، أوحت لنا الحاجة ــ وهى أم الاختراع ــ وبطريقة تجنبنا الأسى ، وتجنب الشجرة الهلاك المؤكد ، وذلك بأن نحفر قناة تحت سـطح الأرض ، تسرب إلى صفصافتنا ــ خفية ــ قسطا من المـاء الموجه إلى شجرة الجوز !.. على أن المشروع فشل فى البداية ، برغم الحماس الذى اكتنف تنفيذه . فقد حفر النفق بطريقة بدائية ، فلم يجر الماء فيه مطلقا ، إذ انهار التراب وسد القناة ، وامتلأ المدخل بالطين ، وتلف كل شىء ! ولكن شيئا من هذا لم يثبط من عزمنا ، فان الدأب يقهر الصعاب جميعا ، ومن ثم زدنـا المجرى عمقا لنمكن الماء من الجريان ، كما قطعنا قيعان بعض الصناديق إلى شرائح صغيرة ضيقة ، بسط بعضها على القاع ــ شريحة إثر شريحة ــ وأقيمت الباقية على الجانبين بميل أقام قناة مثلثة الشكل . ثم غرسـنا بضـع قطع صغيرة من الخشب متباعدة لدى المدخل ، فكانت أشبه بحاجز أو مصفاة تصد الوحل والأحجار دون أن تمنـع انسياب المـاء .. ثم غطينا مجراتنا بتراب دسناه فى حذر وعناية حتى سويناه مع سطح الأرض . وإذ انتهى كل شىء ، شرعنا ننتظر ــ ونحن فى أشد الانفعال من جراء الأمل والخوف ــ موعد الرى .. وحانت الساعة أخيرا ، بعد انتظار خلناه استغرق قرونا ، فجاء السيد لامبرسييه ليعاون فى العملية كالمعتـاد ، بينمـا حرصنا نحن على أن نكون خلفه لكى نحجب شجرتنا ، التى كان ــ لحسن الحظ ــ يوليها ظهره !

وما أن سكب أول دلو من الماء ، حتى رأينا بعضه يجرى إلى قناتنا ، وعند هذا المنظر فارقنا تعقلنا ، فبدأنا نطلق صيحات ابتهاج حملت السيد لامبرسييه على أن يلتفت ، وكانت هذه هي الطامة ، فقد تولاه اهتمام ضاف وهو يرى ما كانت عليه التربة التي قامت فيها شجرة الجوز من جودة ، وكيف ابتلعت الماء بشراهة . وإذ دهش لرؤيته الماء ينساب موزعا بين حوضين ، صاح بدوره ، وأنعم النظر ، فتبين الحيلة ! وإذ ذاك أمر باحضار معول ، وكسر بضربة واحدة شريحتين أو ثلاثا من خشبنا ، ثم صرخ بصوت جهورى : « قناة ! قناة ! » ، وراح يكيل الضربات في كل اتجاه ، دون ما رحمة ، فكأنما كانت كل منها تصيب قلبينا مباشرة ! وإن هي إلا لحظات حتى كانت شرائحنا الخشبية ، وقناتنا ، ومجراها ، والصفصافة ، وكل شيء ، قد تقوض واجتث من مكانه ، دون أن ينبس القس خلال هذا العمل التدميرى بكلمة ، اللهم إلا ذلك التعجب الذى راح يكرره دون توقف : « قناة ! » .. وهكذا راح يصرخ وهو يهدم كل شيء : « قناة ! قناة ! » . ومن الطبيعى أن يخطر بالبال أن المغامرة انتهت أسوأ نهاية بالنسبة للمهندسين الصغيرين ، ولكن هذا الحدس خاطىء ، فقد انقضى ذكرها بانتهاء الهدم ، ولم ينبس السيد لامبرسييه قط بكلمة لوم ، أو ينظر إلينا في استياء ، كما أنه لم يشر إليها بشيء مطلقا . بل اننا لم نلبث أن سمعناه بعد قليل يقهقه مع أخته ، فقد كانت قهقهته تسمع عن بعد .. على أن الأكثر مدعاة للدهشة هو اننا ـ بعد أن زايلنا الخوف الأول ـ لم نشعر بأى انزعاج أو ضيق ، بل اننا غرسنا شجرة ثانية في

بقعة أخرى ، وكثيرا ما كنا نذكر نفسينا بالنكبة التى انقضت على محاولتنا الأولى ، بأن رحنا نردد فى لهجـــة ذات معنى : « قناة ! قناة ! » .. وكانت تواتينى ــ حتى ذلك الوقت ــ نوبات من الزهو ، بين آن وآخـــر ، إذ أخـــال نفسى مثـــل « اريستديس » أو « بروتس » أو غيرهما من أبطال التاريخ ، ولكن هذه النوبات لم تلبث أن زايلتنى إذ شعرت بأول نبضات الغرور واضحة ملموسة .. فقـــد لاح لى أن إنشاءنا قنـــاة بأيدينا ، وغرسنا فرعا من شجرة لنتحدى به دوحة ضخمة ، كان عملا يرقى إلى ذروة المجد !.. وهكذا كنت ــ وأنا فى العاشرة من عمرى ــ أقدر على تمييز المجد من « قيصر » حين كان فى الثلاثين !

وقد ظلت شجرة الجوز هذه ، والقصة الصغيرة المتعلقة بها ، حيتين فى ذاكرتى ، أو أنهما عادتا إليها بعد حين ، حتى لقد كان من المشروعات التى وفرت لى سرورا عظيما ــ خلال رحلتى إلى جنيف ، فى سنة ١٧٥٤ ــ أن قررت الذهـــاب إلى (بوسى) وزيارة مراتع صباى ، وفى مقدمتها جميعا « شجرة الجوز » التى كان عمرها فى ذلك الوقت قد بلغ ثلث قرن !.. ولكنى شغلت طيلة فترة وجودى هنـــاك ، ولم يكن لى كثير سلطان على نفسى ، فلم أجد لحظة أرضى فيها هذه الرغبة . وليس ثمة احتمال يذكر فى أن تسنح لى هـــذه الفرصـــة مرة أخرى ، ومع ذلك فان الرغبة لم تتلاش بتبدد الأمل فى تحقيقها ، بل أكاد أوقن من أننى إذا قدر لى أن أعود إلى تلك البقـــاع

الحبيبة ، وأن أجد شــجرة الجوز العزيزة قائمة على قيــد الحياة ، فلن أحجم عن أن أرويها بدموعى !

* * *

وبعد عودتى إلى جنيف ، أقمت مع خالى عامين أو ثلاثة ، ريثما يقرر أصدقائى ما ينبغى أن يتم بشأنى . ولما كان خالى قد أراد ابنه على أن يكون مهندسا ، فقد حمله على أن يتلقى شيئا عن الرسم ، كما علمه مبادىء «يوكليد»(١) ، فاستذكرت هذه المواد معه ، وتولانى ميل إليها ، وإلى الرسم بوجه خاص. وفى تلك الاثناء ، كان الجدل يدور حول ما إذا كان يخلق بى أن أصبح صانع ساعات ، أو من رجال القانون ، أو قســا واعظا !.. وكان ميلى يتجه إلى تفضيل الاحتمال الأخير منها ، إذ كان الوعظ يبدو لى أمرا بديعا ، بيد أن الدخل الضئيل الذى كان يدره عقار أمى ــ والذى كان يجب أن يقسم بينى وبين أخى ــ لم يكن كافيا لأن يمكننى من متابعة دراساتى . ولم تكن ثمة ضرورة عاجلة لاتخاذ قرار ، نظرا لسنى فى تلك الفترة ، ولذلك مكثت مؤقتا مع خالى ، دون أن أفيد كثيرا من وقتى ، ودون أن أدفع مبلغا يذكر لقــاء نفقات إقامتى ، كمــا كان الانصاف يقتضى .. أما خالى ، فمع أنه كان محبا للهو مثــل أبى ، إلا أنه كان عاجزا عن أن يكون مثله فى تقيده بالواجب ،

---

(١) كان « يوكليد » عالما رياضيا عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد وضع أصولا ــ أو مبادىء ــ للعلوم الرياضية فى ١٣ مجلدا، خص الهندسة منها بتسعة مجلدات .

كما أنه لم يكن يكبد نفسه كثير عناء من أجلنا . وكانت عمتى تعتبر من المنصرفات للتقوى ــ بحيث كانت تؤثر أن تنشد المزامير على أن تعنى بتعليمنا ! ــ ومن ثم فقد أتيحت لنا حرية كادت أن تكون مطلقة ، ولكنا لم نسىء استغلالها قط ، فكنا دائما قانعين بصحبتنا أحدنا للآخر ، إذ لم نكن نفترق قط ، كما أننا لم نتعرض لمغريات تحملنا على أن نتخذ من أندادنا من أبناء الشارع رفاقا ، فلم نتعلم شيئا من العادات المنحلة التى كان التبطل خليقا بأن يقودنا إليها .. بل إننى لأخطىء إذ أقول إننا كنا متبطلين ، فاننا لم ننحط قط إلى هذا الدرك فى حياتنا ؛ وكان من أعظم ما حبانا به الحظ أن كل الطرق التى كنا ننتهجها لتسلية نفسينا ، والتى شغفنا بها على التوالى ، كانت تشغلنا معا فى البيت ، دون أن ننساق لغواية الخروج إلى عرض الطريق .. فكنا نصنع أقفاصا ، وصافرات « الناى » ، وخذاريف (الفحلات التى يلعب بها الأطفال) ، وطبولا ، وبيوتا ، وقاذفات للحصى (أو مقاليع) ، وأقواسا للرماية . ولقد اتلفنا أدوات جدنا فى محاولاتنا أن نصنع ساعات ، كما كان يصنع هو !.. وكان لنا مزاج خاص فى الاسراف فى نماذج الورق ، وفى الرسم ، واستخدام الالوان المائية ، وتوزيع الأضواء ، وإفساد الألوان . ولقد وفد على جنيف صاحب مسرح إيطالى يدعى «جامبا ــ كورتا» ، فذهبنا لمشاهدة عرضه مرة ، لم نرغب بعدها فى الذهاب مرة أخرى !.. ولكنه قدم فيما قدم عرضا للدمى (على غرار خيال الظل) ، فشرعنا نصنع دمى .. ولما كانت عرائسه تمثل تكاهات ، فقد عكفنا

على إعداد مسرحيات فكهة من وضعنا . ولما كانت تعوزنا الأداة التى تصدر ذلك الصوت المصوصو المصرصع ، فقد عمدنا إلى تقليده بأصوات نصدرها من حلقينا ، لكى نخرج مسرخياتنا الفكهة البديعة ، التى تذرع أقاربنا المساكين المتفضلون بالصبر كى يجلسوا وينصتوا إليها ! ولكن خالى برنار قرأ على الأسرة ذات يوم موعظة بديعة من تأليفه ، فاذا بنا نهجر المسرحيات الفكهة لنؤلف المواعظ !

وانى لأعترف بأن هذه التفصيلات ليست مشوقة جدا ، ولكنها تبين كيف أن تربيتنا الأولى كانت موجهة خير توجيه ، كما يبدو من اننا ندر أن انسقنا إلى اساءة استغلال الفرص التى كانت متاحة لنا ، برغم أننا كنا سيدى نفسينا وصاحبى السيطرة على وقتنا ، فى تلك السن المبكرة !.. ذلك لأننا لم نكن بحاجة تذكر إلى أن ننشد رفاقا وزملاء ، حتى أننا كنا نهمل الفرص التى تقود إلى ذلك . فكنا إذا خرجنا للتريض ، نظرنا ، ونحن نمر بأندادنا فى السن ، إلى وسائل لهوهم ، دون ما أدنى رغبة ، بل دون مجرد التفكير فى أن نشاركهم إياها . كانت صداقتنا المتبادلة تملأ قلبينا تمام الملء ، حتى لقد كان يكفينا أن نجتمع معا ، كى نجعل من أبسط أسباب التسلية ملهاة سارة !.. وما لبثنا أن استرعينا الانتباه بتلازمنا هذا ، وعدم افتراقنا ، سيما وأن ابن خالى كان فارع الطول ، بينما كنت أنا جد قصير ، فكنا نؤلف ثنائيا غريب التكوين !.. كان قوام ابن خالى الطويل النحيل ، ووجهه الصغير الشبيه بالتفاحة المسلوقة ، وأخلاقه الرقيقة ، ومشيته الهينة

المتخطرة ، تستثير سخف الأطفال ، فكان يسمى فى ساحة الحى « بارنا بريدانا ! » ، وكنا حين نغادر البيت لا نسمع سوى صيحة « بارنا بريدانا ! » تحف بنا . وقد احتمل هو ذلك بهدوء فاق هدوئى ، إذ كنت أفقد جلدى ، وأبدى الرغبة فى العراك ، وهذا عين ما كان ينشده الأوغاد الصغار . وقدر لى أن أتشاجر مرة ، فمنيت بالهزيمة . وحاول ابن خالى المسكين أن يساعدنى ما استطاع ، ولكنه كان ضعيفا ، فصرعته لكمة واحدة ، وإذ ذاك اشتد هياجى . على اننى ـــ وإن تلقيت لكمات وافرة ـــ لم أكن الهدف الحقيقى للعدوان ، وإنما كان « بارنا بريدانا » هو الهدف .. وما لبث غيظى المستعر أن زاد من استفحال الموقف ، حتى اننا لم نعد نجرؤ على الخروج من الدار ـــ فيما بعد ـــ إلا فى أويقات المدرسة ، خشية أن يتعقبنا الأطفال ليسخروا منا !

ألا ترون إذن اننى أقمت من نفسى ماحيا للمظالم !.. ولكى أصبح « بالادين »(١) حقا ، كنت فى حاجة إلى سيدة ، ولكننى أوتيت اثنتين ! فلقد اعتدت أن أذهب ـــ بين وقت وآخر ـــ لزيارة أبى فى (نيون) ، وهى بلدة صغيرة فى إقليم (فود) ، استقر به المقام فيها . وقد حظى بحب القوم هناك ، وقدر لابنه أن يشعر بآثار ذلك ، ففى الفترة القصيرة التى كنت امكثها معه ، كان الأصدقاء يتبارون فى الاحتفاء بى . وقد آثرتنى سيدة منهم ـــ كانت تدعى السيدة « دى فيلسون »

---

(١) رمز للبطل الذى يدافع عن الحق ويدفع الجور عن المظلومين .

ـ بألف قبلة ، ثم توجت كل هذه الحفاوة بأن اتخذتني ابنتها عشيقا لها !.. ومن الميسور أن تفهموا معنى « العشيق » هنا إذا تذكرتم أنني كنت في الحادية عشرة من عمري ، في حين أن الفتاة كانت في الثانية والعشرين !.. ولكن هؤلاء الشابات الخبيثات ـ جميعا ! ـ لم يكن يتورعن قط عن أن يلعبن أمام الملأ بدمى صغيرة ـ مثلي ـ لكي يسترن وراءها عشاقا كبارا ، أو لكي يغوين بها هؤلاء الكبار !.. أما أنا ، فلم أر شيئا من عدم التكافؤ بيننا ، فحملت المسألة على محمل الجد ، وانغمست بكل قلبي ـ أو بالحري بكل رأسي ـ إذ أنني لم أقبل على الحب إلا بذلك الجزء من نفسي ، فتماديت إلى درجة الجنون ، وكان طربي وانفعالي وخبالي تؤدي إلى مناظر كافية لأن تجعل أي فرد لا يتمالك نفسه من الضحك حتى ينشق جنباه !

ولقد ألفت نوعين صادقين من الحب يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف ، فلا يكاد يكون بينهما أي تشابه ، وإن كان كل منهما حارا مشبوبا ، كما أنهما يختلفان ـ كلاهما ـ عن الصداقة العاطفية .. بل إن عمري كله كان موزعا بين هذين النوعين من الحب ، برغم اختلافهما الجوهري ، فاعتدت أن أشعر بهما معا ، وفي آن واحد .. مثال ذلك أنني في الفترة التي أتحدث عنها ، وفي الوقت الذي كنت فيه مغرما بالآنسة « دي فيلسون » جهارا وفي أنانية طاغية ـ حتى أنني لم أكن أطيق أن يقترب منها أي رجل ! ـ في تلك الأثناء بالذات ، حظيت عدة مرات بلقاءات قصيرة ولكنها حافلة ، مع فتاة

معينة ـــ تدعى الآنسة « جوتون » ـــ فكانت تعمد خلال تلك اللقاءات إلى القيام بدور المعلمة ! وكان هذا غاية الأمر . ولكن « غاية الأمر » هذه ـــ وكانت هي « الغاية » فعلا ، بالنسبة لي ـــ بدت في نظري منتهى السعادة .. وإذ شعرت بقيمـــة الغموض ، وإن لم أكن أدري كيف استغله اللهم إلا في نطـــاق حيل الطفولة ، رحت أكيل بنفس الكيل للآنسة «دي فيلسون» ـــ التي لم ترتب في الأمر ـــ جزاء دأبها على استغلالي كستار لإخفاء عشاق آخرين ! بيـــد أن سري لم يلبث أن تكشف ـــ ويا لعظم أسفي ! ـــ أو أنه لم يحط من معلمتي الصغيرة بمثل ما كنت أحيطه به من كتمان ، ومن ثم فسرعان ما افترقنـــا .. وحدث بينما كنت اجتاز (كوتانس) ، في طريقي إلى (جنيف) ـــ بعد ذلك بوقت قصير ـــ أن سمعت بعض فتيات صغيرات يهتفن متهامسات : « جوتون تيك ـــ تاك روسو » !

ولقد كانت هذه الآنسة « جوتون » الصغيرة فتاة فذة .. فمع أنها لم تكن جميلة ، إلا أنها أوتيت وجها لا يسهل نسيانه ، ولا أزال أتمثله في مخيلتي في كثير من الأحيان ، في حنان لا يليق بشيخ أرعن !.. وما كان شكلها ، ولا أخلاقها ، ولا عيناها ـــ قبل كل شيء ـــ بالتي تتناسب مع سنها . وكان لهـــا مظهر أشم ، متسلط ، يتفق كل الاتفاق مع دورها ، كمعلمة ، بل إن مظهرها هذا هو الذي أوحى إلينا ـــ في الواقع ـــ بأول تفكير في هذا الدور .. ولكن أغرب ما كان فيها ، هو امتـــزاج بين الرعونـــة والتحفظ ، لم يكن من الهين إدراك مأتاه .. كانت تتصرف معي بكل حريتها ، ولكنها أبدا لم تسمح لي بأن أعاملها

بأي تحرر .. كانت تعاملني كما تعامل طفلا فحسب ، مما يوحي إلى بأن أعتقد أحد أمرين : إما أنها لم تعد ــ إذ ذاك ــ طفلة ، وإما أنها كانت ــ على العكس ــ من الطفولة بحيث أنها لم تر في الخطر الذى كانت تعرض له نفسها سوى لون من التسلية واللهو !

وكنت أهب نفسي تماما ــ كما ينبغي أن يقال ــ لكل من هاتين الفتاتين ، فاذا ما كنت مع إحداهما ، لم أفكر مطلقا في الأخرى . وفيما عدا ذلك ، لم يكن ثمة أى شبه ــ مهما يكن ضيلا ــ بين المشاعر التى كانت كل منهما تبعثها في نفسى ! كان بوسعى أن انفق كل حياتى مع الآنسة « دى فيلسون » دون أن يخطر لى أن أفارقها ، ولكن اغتباطى بالقرب منها كان هادئا وخلوا من الانفعال . وكنت أحبها أكثر مما احببت أية فتاة من فتيات المجتمع الراقى ، فقد كانت الفكاهات المنبعثة عن ذكاء لماح ، والمجون المستظرف ، وما كانت تبديه من مظاهر الغيرة العابرة ، تستهوينى وتستأثر بشغفى . وكنت أشعر بزهو وغرور لما كانت تضفيه على من مظاهر الإيثار أمام المزاحمين الكبار الذين كانت تعاملهم في ازدراء !.. وكنت اتعذب ، ولكننى أحببت العذاب !.. وكان التصفيق ، والتشجيع ، والضحك ، تبعث الثقة والإلهام في نفسى .. وكانت تنتابنى نوبات من الوجد المشبوب ثم تنفثىء في فكاهات جريئة .. كان الحب يحيلنى شخصا آخر ، في المجتمعات .. أما في الخلوات ، فكنت محرجا ، فاترا ، بل لعلنى كنت ضيق الصدر . ومع ذلك فاننى كنت أشعر بعاطفة صادقة نحوها ،

وكنت أتألم إذا هى مرضت ، بل اننى كنت أتمنى لو أهبها صحتى كى تستعيد عافيتها ـ برغم أننى كنت أعرف، بالتجربة، معنى المرض ومعنى العافية ! ـ وكنت أفكر فيها وأفتقدها حين أغيب عنها .. أما حين أكون بالقرب منها ، فان عناقها كان يهز قلبى ، دون أن يهز حواسى ! كنت متعلقا بها دون ما طمع يشوب حبى ، فكان خيالى لا يطلب أكثر مما كانت هى تنعم على به ، ومع ذلك فاننى لم أكن أطيق أن أراها تفعل مثل ذلك للغير . كنت أحبها حب الأخ لأخته ، ولكننى كنت إغار عليها غيرة العاشق على معشوقته !.. وكنت خليقا بأن أغار على الآنسة « جوتون » غيرة التركى ، أو المجنون أو النمر ، لو أننى توهمت مرة أنها قادرة على أن تبدى لغيرى ما كانت تبديه لى من معاملة .. ولكنها لم تكن قادرة ، بل إن هذه المعاملة كانت صنيعا اعتدت أن أسألها إياه وأنا جاث أمامها !

كنت أسعى إلى الآنسة « دى فيلسون » بفرح طاغ ، ولكن دون ما انفعال ، فى حين أننى كنت لا أكاد أرى الآنسة « جوتون » حتى تنبهر حواسى ، فلا أعود أرى سواها !.. كنت آلف الأولى دون ما كلفة ، بينما كنت فى حضرة الثانية على النقيض خجولا بقدر ما كنت منفعلا ، حتى فى أقصى درجات الفتنا . وأعتقد أننى كنت خليقا بأن أموت لو أننى مكثت معها طويلا ، فان خفقات قلبى كانت كفيلة بأن تخنق أنفاسى !.. وكنت أخشى أن تستاء منى الاثنتان على السواء ، ولكنى كنت أغمر الأولى بمزيد من حفاوتى ، وأبدى للثانية مزيدا من



فى حين أننى كنت لا أكاد أرى الآنســـة « جوتون »
حتى تنبهر حواسى ، فلا أعــود أرى ســـواها !..

خضوعى، فما كان لأى شىء فى الدنيا أن يحملنى على أن أغضب الآنسة « دى فيلسون » ، أما إذا امرتنى الآنسة « جوتون » بأن ألقى بنفسى فى اللهب ، فأعتقد أننى كنت قمينا بأن أطيعها فى الحال !.. ولم يستمر حبى ـــ أو بالحرى لقاءاتى ـــ للأخيرة سوى وقت قصير . قصير بالنسبة لسعادة كل منا ! ومع أن علاقاتى بالآنسة « دى فيلسون » لم تكن فى خطورة علاقاتى بالأخرى ، إلا أنها لم تخل من الخطر ، بعد أن استمرت أمدا أطول . وجدير بجميع العلاقات التى على هذه الشاكلة أن تنتهى دائما بطريقة شاعرية ، وأن تصبح مادة لزفرات الأسى. ومع أن صلتى بالآنسة دى فيلسون كانت أقل شدة واضطراما من علاقتى بالآنسة جوتون ، إلا أنها كانت أكثر توثقا ومتانة ، فلم نفترق قط دون دموع ، وكان من الخليق بالعجب حقـا ، ذلك الفراغ المحير الذى كنت أشعر بأننى أتردى فيه بمجرد أن كنت أفارقها !.. فما كنت أتحدث أو أفـكر فى سواها ، وكان أساى صادقا ومحتدما ، ولكنى أعتقد أن هـذا الأسى المنطوى على البطولة لم يكن ـــ فى قراره ـــ من أجل الفتـاة نفسها ، وإنما كان للمتع التى اعتدت أن أنعم بها فى قرب الفتاة ، دور فى خلقه ، وإن لم أفطن إذ ذاك !.. ولقد اعتدنا ـ لتخفيف لوعات البعاد ـ أن نتراسل بخطابات كنا نضمنها من الشجون ما يذيب قلب الصخر !

وظفرت فى النهاية ، إذ أن الفتـاة لم تستطع أن تمضى فى التجلد ، فجاءت إلى (جنيف) لترانى . وفى هذه المرة ، فقدت حجاى تماما ، فكنت منتشيا ، مجنونـا ، أثناء اليومين اللذين

مكثتهما . فلمـــا رحلت ، رغبت فى أن ألقى بنفسى فى المـــاء وراءها ، وتردد صراخى فى الهواء !.. وبعد ثمانية أيـــام ، أرسلت لى بعض الحلوى وقفازين . وكنت خليقا بأن اعتبر هذا مجاملة عظيمة لولا أننى علمت ـــ فى الوقت ذاته ـــ أنها تزوجت ، وأن الزيارة التى راق لها أن تشرفنى بها إنما دبرت فى الواقع من أجل شراء ثوب الزفاف !.. ولن أحاول أن أصف حنقى ، ففى الوسع تصـــوره !.. وأقسمت ـــ فى غضبى السامى ـــ ألا أرى « الغـــادرة » مـــرة أخـــرى ، إذ لم أكن لأتصور عقابا أكثر قسوة عليها من هذا !.. ولكنها لم تمت من قسوتى ، إذ حدث ـــ بعد عشرين عاما ـــ بينما كنت أتنزه مع أبى فى النهر ، أثناء إحدى زياراتى له ، أن سألته عن سيدتين كانتا فى قارب على غير مبعـــدة منا ، فهتف أبى مبتســـما : « عجبا ! ألا ينبئك قلبك ؟.. انها حبيبتك القديمة ، التى كانت الآنسة دى فيلسون ، وأصبحت الســـيدة كريستان ! » .. واجفلت إذ سمعت الاسم الذى كاد يصبح منسيا ، وسألت النوتيين أن يحولا اتجاه قاربنا ، فمع أن الفرصة كانت سانحة ـــ فى تلك اللحظة ـــ لكى أثأر لنفسى ، إلا أننى لم أر أية قيمة لأن أعاتب امرأة فى الأربعين ، وأن أجدد خصاما مضى عليـــه عشرون عاما !

٣ ـــ من سنة ١٧٢٣ إلى سنة ١٧٢٨

وهكذا بددت أغلى فترات صباى فى الحمـــاقات ، قبل أن يستقر الرأى على مهنتى المقبلة . وبعد جدل طويل بشـــأن ميولى الطبيعية ، انعقد العزم على مهنـــة لم أكن أكن لهـــا

سوى أقل ميل . فقد عهـد بى إلى السيد « ماسيرون » ـ كاتب البلدة ـ لأتعلم على يديه مهنة المحاماة النافعة !.. وكان مجرد الاسم الدارج لهذه المهنة ـ « مغتصب الأجر » ـ بغيضا لدى غاية البغض ، ولم يستهونى الأمل فى كسب عدد من « الكراونات »(١) من مهنة « وضيعة » كهذه !.. بل إن العمل ذاته بدا لى مملا لا يطاق ، فان المطالبة المستمرة ، والشعور بالعبودية أتما كراهيتى ، فما ولجت المكتب مرة دون أن أشعر بنفور أخذ يزداد حدة يوما بعد يوم ! كذلك كان السيد ماسيرون من ناحيته ضيقا بى ، فكان يعاملنى بازدراء ، ولا يفتأ يرمينى بالغباء والبلادة ، ويردد على أذنى كل يوم أن خالى أنبأه بأننى على قسط من المعرفـة ، فى حين أننى كنت ـ فى الواقع ـ لا أعرف شيئا !.. وأنه بشره بأننى فتى ذكى ، فى حين أنه ابتلاه بجحش !.. وفصلت أخيرا من المكتب ، موصوما بأننى غير كفء مطلقا ، وصرح معاونو السيد ماسيرون بأننى لم أكن أصلح لشىء سوى نقل الملفات !

وإذ انتهى الأمر فى تقرير مهنتى على هذه الصورة ، أرسلت لأتعلم حرفة .. لا لدى « ساعاتى » ، وإنما لدى أحد النافقشين على المعادن(٢) . وكان الصغار الذى عاملنى به السيد ماسيرون قد أذل نفسى كثيرا ، فأطعت بدون تذمر . وكان معلمى الجديد ـ السيد ديكومين ـ شابا فظا ، قاسيا أفلح

---

(١) « الكراون » عملة تعادل ثلاثة فرنكات .

(٢) حفار يصنع الأختام و « الميداليات » بالحفر على المعادن .

فى أمد وجيز فى إطفاء كل ما كان لى فى طفولتى من ذكاء ، وفى تخدير طبيعتى الودود النشيطة ، وفى الهبوط بى إلى مرتبة « صبى الصانع » فعلا ، سواء فى العقل أو فى المركز !.. وقدر لما كنت قد حصلته من اللاتينية والتاريخ ، ولما عرفته عن الاقدمين وآثارهم ، أن ينسى أمدا طويلا .. بل إننى لم أعد أذكر أن قد كان فى الدنيا أى من الرومان ! ولم يعد أبى يرى فى ـ حين ذهبت لزيارته ـ معبوده القديم .. كما أننى لم أعد ؛ فى نظر السيدات ، « جان جاك » الكيس المقرب إلى قلوبهن . وأيقنت أنا نفسى ، من أن الأخوين لامبرسييه ما كانا ليعرفان فى شخصى تلميذهما القديم، حتى اننى خجلت من أن أزورهما ، فلم ارهما منذ ذلك الحين . وحلت أرذل الميول وأحط مفاسد السوقة محل أسباب التسلية الساذجة ، بل إنها محت كل ذكرى لها ! ولابد أننى كنت قد أوتيت استعدادا عظيما للانحدار ـ برغم أننى حظيت بنشأة أعظم ما تكون استقامة ـ ذلك لأن الانقلاب أصابنى بسرعة عظيمة ، دون أتفه عسر ، فما قدر قط « القيصر » مبكر النضوج أن أصبح « لاريدون » بمثل هذه السرعة !(١)

ولم تكن الحرفة ـ فى حد ذاتها ـ هى التى لم تصادف هوى من نفسى ، إذ كان لدى ميل أكيد للرسم ، وقد لذ لى العمل

---

(١) استعير هذا الاسم من « لافونتين » الذى أطلقه على الكلاب المنحطة ، فى أسطورة بعنوان : « التربية » ، اذ قال : « أواه ! كم من قياصرة أصبحوا لاريدونات ؟ » .

بآلة الحفر ، ولمـا كان ثمة طلب محدود على الحفار المـاهر للاستعانة به فى صناعة الساعات ، فقد ساورنى الأمل فى أن أبلغ الكمال فى هذه الحرفة . ولعلنى كنت بالغا هذه الدرجـة لولا أن فظاظة معلمى الوحشـية ، وإفراطه فى فرض القيـود على ، حملانى على أن أكـره عملى ! وكنت أسـترق بعض ساعات العمل لاتوفر على بعض أعمال مشابهة ــ ولكنهـا كانت تفتننى بما كنت أحسه فى ممارستها من حرية ــ فكنت احفر الأوسمة التى ترمز إلى طبقة من الأشراف ابتكرتها لنفسى ولزملائى . وفاجأنى معلمى مرة وأنا فى هذا العمل المحظور ، فضربنى ضربا مبرحا ، معلنا أننى كنت أتدرب لأغدو مزيفـا للنقود ، إذ أن الأوسمة التى صنعتها كانت تحمل رسم شعار الجمهورية . . وأقسم إننى لم أوت ــ إذ ذاك ــ أية فكرة عن النقود الزائفة ، بل اننى لم أوت إلا أتفه فكرة عن النقـود الطيبة ! . . وكان إلمـامى بعملات الرومان ــ التى قرأت عنها فى الكتب ــ يفوق معرفتى بنقودنا المستعملة !

وأخيرا ، أدت ربقة معلمى إلى أن صار العمل ــ الذى كنت مهيأ لأن اشغف به ــ شيئا لا يطاق ، وافعمتنى برذائل كنت خليقا بأن أكرهها لولا جبروته ، مثـل الكذب ، والتكاسل ، والسرقة ! . . ولقد علمتنى ذكرى التبدل الذى أصابنى فى هذه الفترة من حياتى ــ أكثر من أى شىء آخر ــ الفرق بين تبعية الابن للأب ، وبين الخضوع الذليل . ومع ما فطرت عليه من خجل واستحياء ، لم يكن ثمة عيب يجافى خصالى الطبيعية قدر بذاءة اللسان . على أننى كنت استمتع بحرية كريمة لم تلبث

أن تعرضت للقمع تدريجيا ـ بعد ابتعادى عن أبى ـ حتى تلاشت تماما . وكنت جريئا مع أبى ، غير مكبوت مع السيد لامبرسييه ، معتدلا مع خالى ، فصرت جبانا مع معلمى ! ومنذ تلك اللحظة أصبحت طفلا حائرا ضالا . ولما كنت قد ألفت أن أكون على قدم المساواة التامة فى اتصالاتى بمن يكبروننى ، ولم أعرف ملهاة بعيدة عن متناولى ، ولا رأيت صفحة طعام لا يحق لى أن أنال منها نصيبا ، ولا رغبة لا أملك أن أعبر عنها جهارا .. لما كنت قد ألفت كل هذا ، واعتدت أن يكون كل ما فى قلبى على طرف لسانى ، فان من الميسور تقدير ما كنت مسوقا إلى أن أتحول إليه فى بيت لم أكن أجسر فيه على أن أفتح فمى ، وكنت مضطرا فيه إلى أن أغادر المائدة قبل أن افرغ من نصف الوجبة ، وأن أبرح الغرفة بمجرد أن أفرغ من شأنى بها .. فى بيت كنت فيه مغلولا إلى عملى باستمرار ، ولم أكن أرى فيه سوى أسباب المتعة لسواى والحرمان لنفسى .. حيث كانت رؤيتى الحرية التى يستمتع بها معلمى وزملائى تضاعف من وطأة الخضوع على نفسى ، وحيث لم أكن أجرؤ على أن أفتح فمى إذا ما ثار الجدل حول أمور كنت على خير دراية بها !.. وقصارى القول ، حيث كان كل ما يقع عليه بصرى يغدو هدفا لشوقى ، لمجرد أننى كنت محروما من كل شىء !

منذ ذلك الحين فارقتنى وداعتى ولطفى وخفة روحى ، وتلك البشاشة التى كانت ـ فيما مضى ـ تقينى العقاب إذا ما ارتكبت ذنبا . كل هذه تبددت . ولا أتمالك أن اضحك كلما تذكرت

كيف أنني ـــ ذات مساء ـــ أرسلت إلى الفراش ، فى بيت أبى، دون عشاء ، لذنب أتيته . . وفيما كنت أجتاز المطبخ وفى يدى كسرة خبز تدعو إلى الأسى ، رأيت قطعة لحم تقلب على السفود ـــ «الشواية» ـــ فأخذت أتنسم عبيرها ! وكان كل أهل البيت وقوفا حول النار ، فاضطررت إلى أن ألقى على كل منهم تحية المساء ، أثناء مرورى ، حتى إذا فرغت من تحيتهم ، غمزت بعينى لقطعة اللحم التى بدت بديعة المنظر ، والتى كانت زكية الرائحة ، ولم أتمالك أن انحنيت لها ـــ كما انحنيت للآخرين ـــ وقلت بلهجة حزينة : « عمى مساء يا قطعـــة الشواء ! » . واطربتهم هذه الملحة السانجة إلى درجة جعلتهم يستبقوننى للعشاء . ولعلها كانت كفيلة بأن تتخذ نفس الوقع من نفس معلمى ، ولكنى واثق من أنها لم تخطر ببالى قط ، ومن اننى ما كنت لأجد الشجاعة على أن أقولها فى حضوره !

وبهذا النهج تعلمت كيف أكتم ما اشتهى ، وكيف أنافق ، واكذب ، و ـــ أخيرا ـــ أسرق !.. وهو أمر لم يخطر ـــ حتى ذلك الوقت ـــ ببالى مطلقا ، ولم أستطع منذ ذلك الحين أن ابرىء نفسى منه تماما . ذلك لأن الاشتهاء المكبوت والضعف يقودان دائما إلى هذا الاتجاه ، الأمر الذى يفسر السر فى أن جميع الخدم نصابون ، وفى أن جميع الصبيان لدى أصـــحاب الحرف مسوقون إلى أن يكونوا كذلك .. ولكن هؤلاء يفقدون ـــ بتقدمهم فى مدارج العمر ـــ هـــذه الرذيلة المشينة ، إذا أتيحت لهم المساواة فى جوع وادع مأمون ، يألفون فيه أن يكون كل ما يرونه فى متناولهم . ولما لم تتح لى هذه الميزات ، فاننى لم أملك أن أجنى نفس الفوائد !.. وأكاد أقول إن الذى يدفع

الطفل إلى أن يخطو أولى خطواته نحـو الشر ، هو دائمـا المبادىء الطيبة التى يساء توجيههـا . فلقد مكثت مع معلمى عاما دون أن افكر فى الاقدام على أخـذ اى شىء ـ حتى من المأكولات ـ برغم ما لاقيت من حرمـان وإغراء مستمرين . وكانت أولى سرقاتى من أجل شخص سواى ، ولكنها فتحت الباب لسرقات أخرى ، لم يكن الباعث إليها أمرا محمودا ! . .

فلقد كان لدى معلمى عامل باليومية ـ يدعى السيد «فيرا» ـ يقيم فى دار مجاورة ، وله حديقة على مسافة منها تنتج نوعـا راقيا من (الاسفاناخ) . وخطر للسيد فيرا ـ الذى لم يكن يحصل على حاجته من المـال ـ أن يسرق بعض الاسفاناخ الصغيرة التى كانت أمه تستنبتها ، فيبيعها لتدر عليه ما يكفى لامداده بفطور طيب ليومين أو ثلاثة . ولما لم يكن راغبا فى أن يقدم بنفسه على المغامرة ، كما أنه لم يكن خفيف الحركة ، فقد اختارنى لهذه المهمة . وبعد محايلات أولية وتملقات ـ زاد من سهولة نجاحها فى التأثير على ، أننى لم اكن أدرك هدفها ـ عرض على الأمر كفكرة خطرت له عفو اللحظة . فعارضتها بشدة ، ولكنه ألح . وليس بوسعى قط أن أقاوم التملق ، ومن ثم فقد انصعت له ، وأخذت أذهب فى كل صباح فأجمع أبدع نبتات الاسفاناخ وأحملها إلى سوق (مولار) ، حيث أدركت امرأة طيبة أنى كنت أسرقها لتوى ، فكانت ترمينى بهذا الاتهام لتبخسنى الثمن . وكنت فى ذعرى أقبـل اى ثمن تقدمه ، ثم أحمله إلى فيرا ، فسرعان ما يتحـول المبـلغ إلى فطور كنت اتكفل باحضاره ، وكان يتقاسمه مع زميل آخر ، بينما أقنع أنا

ببضع لقيمات . . ولم أتذوق قط النبيذ الذى كانا يتناولانه مع هذا الفطور !

واستمرت هذه الخطة عدة أيام ، دون أن يخطر لى قط أن أسرق ـ بدورى ، من الباطن ـ السارق الأصلى ، وأن أفرض « عوائد » على ما كانت تدره اسفاناخ السيد فيرا ! بل كنت أؤدى دورى فى المهمة بمنتهى الاخلاص ، وليس لى من حافز سوى رغبتى فى ارضاء ذاك الذى كان يحرضنى . ومع ذلك ، فكم من صفعات وشتائم وقسوة كنت خليقا بأن أتلقاها ـــ لو أن امرى انفضح ـــ بينما كان من المؤكد أن يبادر الوغد إلى انتحال أكذوبة تقابل بالتصديق ـــ ومن ثم يتضاعف عقابى إذ يعتبر اتهامى اياه ـــ وهو العامل وانا الصبى ـــ وقاحة !.. وهكذا نرى أنه ـــ فى كافة ظروف الحياة ـــ كثيرا ما يحدث أن المذنب القوى ينجى نفسه على حساب البرىء الضعيف !.. وبهذه الطريقة تعلمت أن السرقة لم تكن من الفظاعة بالقـــدر الذى كنت أتصورها عليه ، وأنه ليس من شىء اشتهيه يعز على ، ما دام فى متناول يدى. ولم أكن سيىء التغذية على طول الخط ، ولكن العفة أصبحت أمرا متعذرا على وأنا أرى معلمى ينظر إليها كشىء منكر !.. ويبدو لى أن اعتياد اقصاء الصغار عن المـــائدة ، فى الوقت الذى تحمل إليها فيه أشهى الأطعمة ، هو أروع طريقة تنتهج لجعلهم نهمين ولصوصا !.. وسرعان ما أصبحت نهما ولصا ، واستطعت أن أمضى موفقا ـــ بوجه عام ـــ فلم يفتضح أمرى إلا فى مرات نادرة كنت افاجأ فيها !

اننى لأرتجف ـ واضحك فى الوقت ذاته ـ إذ اتذكر أن سرقة

بعض التفاح كادت تكبدني غاليا ! فقد كانت تلك التفاحات فى قرار حجرة لاختزان المؤن ، تضاء بالنور المنساب من المطبخ خلال كوة عالية ذات شبكة حديدية . وفى ذات يوم ، وقد خلت الدار إلا منى ، صعدت على المعجن ـ حوض العجين ـ لألقى نظرة على الثمار الغالية فى حديقة « هيسبريد »(١) . ولما كانت بعيدة عن متناولى ، فقد أحضرت سيخا لأحاول أن أتبين ما إذا كان بوسعى أن أمس التفاحات ، ولكنه كان جد قصير . ولكى أزيده طولا ، ربطت إليه سيخا صغيرا ، كان يستخدم فى شي الحيوانات الصغيرة ، إذ كان معلمى مغرما بالصيد . ودفعت السيخين عدة مرات ، دون أن أوفق . وأخيرا ، شعرت لعظم اغتباطى ، أننى أصبت تفاحة ، فتأهبت لأن استحوذ عليها ، ولكن .. منذا الذى يستطيع أن يصف اساى ، حين وجدتها أكبر من أن تمر خلال قضبان الكوة ! وكم من حيل بذلتها لأنفذها خلال القضبان !.. وكان لابد لى من العثور على ما يبقى السيخ فى مكانه ، والحصول على سكين ذات طول كاف لشطر التفاحة ، وقطعة من الخشب استعين بها على إبقاء التفاحة عاليا . وتمكنت أخيرا من أن أشطرها ، يحدونى الأمل فى أن استطيع أن أجتذب النصفين ، واحدا بعد الآخر ، ولكنهما ما أن انفصلا حتى هويا إلى أرض المخزن ! ـ ألا فلتشاركنى أساى ، أيها القارىء الشفوق ! ـ ومع ذلك فإننى لم أفقد جلدى مطلقا ، لكننى كنت قد ضيعت

---

(١) هيسبريد : اسم لواحدة من عذارى ورد ذكرهن فى أساطير الاغريق على أنهن كن يحرسن شجرة تثمر تفاحات ذهبية .

وقتا ليس بالقصير ، فخشيت أن أفاجـأ ، وأرجأت القيـام بمحاولة أخرى ـ تكون موفقة ـ إلى اليوم التالى ، وعدت إلى عملى فى سـكينة ، وكأننى لم آت أمـرا ، دون أن أفـكر فى الشاهدين المشطورين اللذين كانا يقبعان فى المخزن !

وفى اليوم التالى ، انتهزت فرصة سانحة ، وقمت بمحاولة جديدة . فصعدت على مقعدى ، وربطت السيخين وهيأتهما ، وهممت بأن ادفعهما ، ولكن « الغول » لم يكن نائما ، لسوء الحظ . فقد فتح باب المخزن بغتة ، وخرج منه معلمى ، فعقد ذراعيه ، وتطلع إلى ، وقال : « تشجع ! » .

إن القـلم يسـقط من يدى !.. على أن حساسيتى إزاء العقاب لم تلبث أن ضعفت ، من جراء سوء المعاملة المستمر ، فكنت أنظر إلى السرقة على أنها نوع من التعويض يخول لى الاستمرار فيها ! وبدلا من أن أستعرض ما فات وأقدر ما كنت ألقى من عقاب ، رحت أتطلع إلى الأمام وأفكر فى الانتقام !.. ورحت أرى أننى إذا كنت أضرب بزعم أننى لص ، فان هذا الضرب يخـولنى أن أتصرف كلص . وتبينت أن السرقـة والضرب أمران يسيران جنبا إلى جنب ، فجعلت منهما جانبين فى صـفقة عادلة .. فـاذا قمت بدورى ، كان على أن ادع معلمى يؤدى دوره ! وبهذا التفكير ، شرعت أمارس السرقة بنفس أكثر طمأنينة من ذى قبل . وكنت أقول لنفسى : « ما هى النتيجة ؟.. سأضرب ؟.. لا بأس ، لقد تعودت الضرب ! » .

اننى مشغوف بالأكل ، ولكنى لست شرها .. وأنا مغرم بارضاء نزواتى البدنية ، ولكنى لست نهما ، فان لى ميولا كثيرة

أخرى تحول دون ذلك . وما جشمت نفسي يوما أية متـاعب بشأن الطعام ، اللهم إلا حين يكون قلبي خاليا مما يشغله ، وهذه حال كانت من القلة في حياتي بحيث أنني نادرا ما وجدت وقتا للتفـكير في الأطايب اللذيذة . ولهـذا السبب لم أقصر اتجاهاتي في اللصوصية على المواد الغذائية ــ لأمد طويل ــ بل سرعان ما بسطتهـا إلى كل شيء كان يغريني ! وإذا كنت لم أصبح لصا محترفا ، فإنما ذلك لأنني لم أجد قط في النقود إغراء شديدا . وكانت في الطريق إلى خارج « الورشـة » العامة حجرة خاصة لمعلمي ، وجدت وسيلة لأن افتح بابهـا وأغلقه دون أن يفطن أحد إلى ذلك . وهناك ، رحت أشاطره خير عدده وآلاته ورسومه وتجاربه .. بل كل شيء كان يجتذب ميولي ، وكان هو يحرص على إبقـائه بعيـدا عني لهـذا السبب !.. وكانت هذه السرقات ــ في قرارهـا ــ بريئـة تماما ، إذ ما كنت استغلهـا إلا في خدمـة معلمي . على انني انتشيت إذ وجدت هذه التوافه في متناولي ، وخيـل إلى انني كنت أسلبه مواهبه وما كان ينتج عنهـا ! وإلى جانب ذلك ، وجدت صناديق تحوي مبارد وأساور صغيرة وبعض النفائس والعملات الذهبية والفضية . وكنت حين أجد في جيبي أربع أو خمس قطع من فئة « السو »(١) ، أعتبر نفسي غنيا . ومع ذلك ، فضلا عن انني لم أمس شيئا مما وجدته هناك ، فانني لا اذكر قط انني رمقتها يوما بعينين مشوقتين . وإنما كنت انظر

(١) « السو » عملة فرنسية صغيرة تعـادل ٥ سنتيمات ، أو جزءا من عشرين من الفرنك .

إليها فى جزع أكثر منى فى ابتهاج ! وأعتقد أن هذا الاستنكار لسرقة المـــال والنفائس كان راجعا ـــ إلى حد كبير ـــ إلى تربيتى ، وإلى ما كان يقترن بها من أفكار دفينة عن العـــار ، والسجن ، والعقاب ، والمشانق ، مما كان كفيلا بأن يجعلنى أرتجف فرقا لو أننى تأثرت بالاغراء .. هذا فى حين أن أحابيلى كانت تبدو فى نظرى كمجرد أعمال خبيثة ـــ أو « شقاوة » ـــ لا أكثر ، وأنها لا يمكن أن تفضى إلى أكثر من « علقة » طيبة من معلمى .. وكنت أعد نفسى مقـــدما لذلك !.. وأكرر أننى لم أشعر قط برغبة كافية فى أن أكبح نفسى ، فلم يكن ثمة ما يقلق ضميرى . وكانت قصاصة واحدة من ورق الرسم البديع أكثر إغراء لى من نقود تكفى لأن ابتاع رزمة منه ! وهذه الظاهرة الفذة ترتبط باحدى ميزات خلقى وشخصيتى ، وقد كان لها من عظم النفوذ على مسلكى ما يجعلها أهلا للشرح !

❋ ❋ ❋

أننى إنسان ذو حمية بالغة ، إذا ما استبدت بى سورتها ، فلن يعدل اندفاعى شىء : إذ أنسى كل حكمة ، وكل شـــعور بالاحترام والخوف والوقار ، فاذا أنا أغدو شرسا ، متهورا ، عنيفا ، غير هيـــاب .. لا يصـــدنى أى إحساس بالعـــار ، ولا يرهبنى أى خطـــر .. بل اننى لا أحفـــل من الكون كله إلا بالغاية التى تشـــغل بالى فحســـب ! على أن هـــذا كله لا يستمر إلا لحظة ، ثم إذا بى فى اللحظة التـــالية أنغمس فى سكون تام . أما فى لحظـــات هدوئى ، فأنـــا الخور والجبن ذاتهما ، إذ يخيفنى ويثبط همتى كل شىء : فالذبـــابة التى تمر بى وهى تطن تفزعنى .. واضطرارى إلى أن اقول كلمة أو

أبدى حركة ، يقض خمولى .. وهكذا يتسلط على الخوف والخجل إلى درجة يسرنى معها أن استخفى عن بصر زملائى من الآدميين !.. وإذا كان على أن آتى تصرفا فاننى لا أدرى ماذا ينبغى أن افعل . وإذا قدر على أن أتكلم ، فإننى لا أدرى ما ينبغى أن أقول . وإذا نظر أحد إلى ، تولانى الارتباك !.. ولقد أوفق إلى الكلمات الخليقة بأن تقال ، عندما استثار لدرجة عالية ، ولكنى ــ فى الحديث العادى ــ لا أعثر البتة على شىء يقال ، وأغدو فى حال لا تطاق ، لمجرد أن أجدنى مضطرا إلى الكلام !.. أضف إلى ذلك أن ليس بين رغباتى المتسلطة ما يتجه إلى أشياء يمكن أن تشترى . فلست اشتهى سوى المتع البريئة ، غير الزائفة ، وكلها مما يسممه المال ويفسده . من ذلك أننى مشغوف بمتع الطعام ، ولكننى ــ إذ لا أحتمل عبء الجلوس فى جماعة ، أو الشراب فى حسانة ــ لا أملك أن أحظى بها إلا برفقة صديق .. أما إذا كنت وحيدا ، فان خيالى يشغل إذ ذاك بأمور أخرى ، فلا يعود للأكل حظوة لدى . وبرغم أن دمى الحار يهفو إلى النساء ، فان قلبى المشبوب أشد حنينا إلى العاطفة الصادقة . ومن ثم تفقد النساء ــ اللاتى يشترين بالمال ــ كل مفاتنهن فى نظرى .. بل أنى أرتاب فى أن أجد من نفسى قابلية للافادة منهن . كذلك شأنى مع كل المتع التى فى متناول يدى ، فأنا أجدها غثة طالما كانت لا تكبدنى شيئا !.. وإنما أحب من المتع وأسباب اللذة ما لا يكون ملكا لأول إنسان يعرف كيف يستمرئها !

والمال .. أبدا ما تراءى لى نفيسا كما يقدر عادة ، بل إنه

لم يبد لى قط ذا صلاحية خاصة ، فهو عديم القيمة فى حد ذاته ، إذ لابد من استبداله لكى يتيسر الاستمتاع به . فالمرء مضطر إلى أن يشترى ، ويساوم ، ويتعرض للغش ، ويغبن ويبهظ ، ولا يخدم حق الخدمة .. وحين أنشد شيئا جيد الصنف ، أوقن من أننى لن أحصل بالمال إلا على صنف ردىء !.. فاذا ما دفعت نقودا من أجل بيضة طازجة ، وجدتها فاسدة .. أو من أجل ثمرة طيبة من الفاكهة ، ألفيتها فجة .. وقد ادفع من أجل فتاة ، فاذا بها مفسودة !.. وأنا مولع بالنبيذ الجيد ، ولكن أين أظفر به ؟ الدى تاجر الخمور ؟ مهما أفعل فإنه لن يتحرج عن أن يسمنى ! ولو شئت أن أحظى بخدمة طيبة حقا ، فياللعناء وياللحيرة ! لا بد لى من أصدقاء ، ورسل ، ومن أن أمنح عمولات ، وأكتب ، وأروح واجىء ، وأنتظر .. وغالبا ما أكون فى النهاية ضحية للغش !.. أى عناء ألقاه من مالى ! إن خوفى منه لأشد من شغفى بالخمر الجيدة !

كم من مرات يخطئها الحصر ، خرجت فيها ـ أثناء تعلمي الحرفة وبعد ذلك ـ وأنا اعتزم شراء بعض الحلوى .. فكنت أقبل على حانوت صانع الحلوى ، فأرى بعض النسوة عند طاولة البيع . وأخال أننى ابصرهن بالفعل وهن يتضاحكن من هذا النهم الصغير !.. فأذهب إلى الفاكهى ، وأرمق الكمثرى فيغوينى شذاها ، ويرمقنى شابان أو ثلاثة على مقربة .. وهذا رجل يعرفنى ، يقف أمام حانوته .. وأرى فتاة مقبلة من بعد ، أفتراها خادم الدار ؟ إن قصر نظرى يهيىء لى كافة الرؤى الوهمية ، فأخال المارة جميعا من المعارف ،

وهكذا أجد فى كل مكان من العراقيل ما يفزعنى ويصدنى .. وتتضاعف رغبتى بازدياد خجلى واستحيائى ، ثم أعود — فى النهاية — إلى البيت ، كالمغفل ، والشوق يضنينى ، وفى جيبى الوسيلة لإشباعه ولكنى لم أوت الجرأة على أن ابتاع شيئا ! ولقد أنساق إلى أكثر التفصيلات اجتلابـا للملل إذا سمحت لنفسى — وأنا أصف كيف كانت نقودى تنفق ، عن طريقى أو عن طريق سواى — بأن اشرح الارتبـاك ، والاستحياء ، والإحجام ، والتململ ، والازعاج ، التى كنت أمر بها دائما .. على أن القارىء المتتبع لمجرى حياتى ، لن يلبث ـ إذا ما عرف حقيقة طباعى وسجيتى — أن يفهم كل هذا دون أن أتجشم عناء روايته عليه !

ولو تسنى له فهم هذا ، فسيسهل عليه إدراك ظاهرة من ابرز ظواهر التناقض لدى : وهى اجتمـاع شح يكاد يكون خسيسا ، مع بغض شديد للنقود !.. فما النقود سوى قطعة من أثاث لا أجد فيها من الراحة سوى القليل ، حتى أنه لا يخطر ببالى قط أن أصبو إليها عندما لا تتوفر لى .. وحتى إذا ظفرت بها ، فانى ابقيها طويلا دون أن أنفقها ، عجزا منى عن أن أدرى كيف استخدمها بطريقة تدخل السرور على نفسى. أما إذا سنحت لى فرصة ملائمة ومواتية ، فاننى أقبـل على استخدام النقود حتى ليخلو كيسى منها قبل أن افطن !.. وإلى جانب ذلك ، فلا داعى لأن يتوقع أحـد أن يجـد عندى تلك الخلة العجيبة التى تتوفر فى البخلاء : الانفاق ، لمجرد التظاهر بالانفاق ! بل اننى — على النقيض — أنفق فى السر من أجل

الاستمتاع ، وبدلا من أن أفخر بالانفاق أخفيه ! ويبلغ من شدة شعوري بأن لا نفع للمـــال لدي ، أنني أكاد أخجل إذ أقتني أي قدر منه ؛ وأكون أشد خجلا حين استخدمه !.. ولو قدر لي يوما من الدخل ما يكفي لأن أعيش حيـــاة مريحـــة ، فانني أجزم بانني ما كنت لأكون بخيلا ، بل كنت أنفقه عن آخره ، دون أن أحاول زيادته . ولكن ظـــروفي غير المستقرة تلزمني الحرص ، فأنا أعبد الحرية ، وأمقت الكبت والعنـــاء ، وأن أكون عالة على الغير ! وطالمـــا بقي المـــال في كيسي ، فانه يطمئنني إلى استقلالي ، ويعفيني مؤونة البحث عن أعمـــال لتملأ الكيس من جديد ، وهي ضرورة تبعث الجزع في نفسي دائما .. ومن ثم فان الخوف من أن أرى ما لدي من المـــال قد استنزف ، يجعلني اكتنزه في حرص .. فالمـــال الذي يمتلكه الشخص هو أداة حريته ، أما حين نسعى إليه ملهوفين فيكون أداة العبودية .. ولهذا أتشبث بما لدي ، ولا أرغب في مزيد!

ومن ثم فان عدم شغفي بالمال لم يكن سوى تقاعس وتبلد ، فان متعة الاقتناء لا تستحق عناء التحصيل .. وكذلك الحال بالنسبة لإسرافي ، فهو ليس أكثر من تقاعس وبلادة ، وعندما تحين فرصة الانفاق النافع ، فانني لا أحسن استغلالهـــا .. فالمـــال أقل إغراء لي من الأشياء ، إذ أن ثمة وسيطا ـــ على الدوام ـــ بين المـــال وبين اقتناء الأشياء المنشودة ، في حين أنه لا يوجد أي وسيط بين الأشياء وبين الاستمتاع بها .. فاذا ما رأيت الشيء فانه يستهويني ، وما أن أتبين وسيلة الظفر به حتى يفقد إغراءه !.. ولهـــذا الســـبب اعتـــدت أن أرتكب السرقـــات ، ولا أزال ـــ حتى الآن ـــ اختلس التوافه التي

تستهوينى ، والتى أوثر أن آخذها بهذه الطريقة على أن اطلبها .. ولكنى لا أذكر أننى — سواء فى طفولتى أو فى كبرى — قد سلبت أى امرىء درهما واحدا ، اللهم إلا فى مناسبة واحدة — منذ خمس عشرة سنة — إذ سرقت سبعة « ليبرات » وعشر قطع من فئة « السو » . وهذا الحادث جدير بالذكر ، لأنه يشتمل على خليط عجيب من النزق والقحة ، ما كنت لاصدقه بسهولة لو أنه كان يتعلق بشخص سواى !

ولقد وقع هذا الحادث فى باريس ، إذ كنت أتمشى مع السيد « دى فرانسوى » فى حدائق (الباليه رويال) حوالى الساعة الخامسة . فاذا به يخرج ساعته ، فيستطلعها الوقت ، ثم يقول : « لنذهب إلى الأوبرا ! » . ووافقت ، نذهبنا . واستأجر السيد مقعدين فى « الصالة » ، وأعطانى إحدى التذكرتين ، ثم مضى بالثانية يتقدمنى ، فتبعته . ودخل إلى « الصالة » ، فلما هممت بالدخول خلفه ، إذا بالناس يسدون الطريق . وتلفت فاذا كل فرد واقف ، فظننت أن من السهل أن أتوه وسط الزحام ، أو أن أوهم السيد « دى فرانسوى » بأننى ظللت ، على أية حال . ومن ثم خرجت فاسترجعت ثمن التذكرة ، وانصرفت بالنقود ، دون أن يخطر ببالى أن الجميع كانوا قد اتخذوا مجالسهم بمجرد بلوغى الباب الخارجى ، وأن السيد « دى فرانسوى » قد تبين أننى لم أكن موجودا ! [1] .. وإذ لم يكن ثمة تصرف ينافى مسلكى العادى

(١) ذكرت جورج صاند فى كتابها : « تاريخ حياتى » ، أن السيد دى فرانسواى — وكان جدها — اعتاد أن ينكر دائما صدق هذه القصة .

مثل هذا التصرف فاننى اذكره لأبين أن هنـــاك لحظات ينبغى الا يحكم فيها على الرجال بأعمالهم ، لأنهم يكونون فى شـــبه ذهول أو شرود !.. ذلك لأننى لم أكن راغبا فى اختلاس النقود ذاتها ، وإنما أردت أن أسرق وجه استخدامها ، ولكن هـــذا التصرف كان مشينا بقدر ما كان بعيدا عن السرقة !

* * *

ولن يقدر لى أن أفرغ من كل هذه التفصيلات لو أننى ألححت بكافة الدروب التى اتبعتها ــ أثناء تعلمى الحرفة ــ فى هبوطى من ذرى البطولة النبيلة ، إلى درك التفاهة ! ومـــع ذلك ، فاننى لم أستمرىء رذائل المركز الذى كنت فيه ، وإن مارستها. وسئمت أسباب التسلية التى كان زملائى يقبلون عليها ، حتى إذا اشتد تقييد حريتى فجعل العمل فى نظرى أمرا لا يطاق ، سمئت كل شىء !.. وجدد هذا من شغفى بالقراءة ، بعد أن كنت قد فقدته زمنا . ولكن هذه القراءة ــ التى كنت أختلس لها فترة من وقت العمل ــ أصبحت عيبـــا جديدا استوجب عقابى .. وإذا الميل إليها يتحول ــ بالقمع ــ إلى وجد لم يلبث أن أصبح جنونا !.. وكانت «لاتريبو» ــ وهى امرأة اشتهرت باعارة الكتب ــ تمدنى بكتب كافة الوان الأدب ، وكانت كلها ــ الغث منها والنفيس ــ سواء عندى ، إذ لم يكن لى فى الأمر خيار ، فأخذت أقرأ كل شىء بنفس النهم : رحت أقـــرا وأنـــا أمام طاولة العمل ، واقرأ وانا منطلق فى بعض المهام ، واقرأ بجوار صوان الملابس، وأنسى نفسى ساعات طويلة حتى يدور رأسى لفرط القراءة .. فما كنت أملك ســـوى أن أقرأ ! كان

معلمي يراقبني ، ويباغتني ، ويضربني ، وينتزع الكتب مني .. وكم من مجلدات مزقت وأحرقت وطوح بها من النافذة ! .. وكم من مؤلفات تركت ناقصة الأجـزاء ـ لهذا السبب ـ في مكتبة « لاتريبو » !.. وكنت إذا عزت على النقـود ، أقـدم للمرأة أقمصـتي ، وأربطة عنقي ، وملابسي .. كمـا كانت تستولي مني في يوم الأحد من كل أسبوع على قطع « السو » الثلاث التي كنت أتقاضاها لمصروفي الخاص !

سيقال لي هنا إن النقود باتت من الضرورات لي . وهذا حق ، ولكنه لم ينطبق على إلا عندما حرمني شغفي بالقراءة ، من كل نشاط . فان انصرافي بكل نفسي إلى هوايتي ، وعـدم اكتراثي بغير القراءة ، ألهاني عن السرقة ! وهذه ميزة أخرى من الميزات البارزة في شخصيتي ، ففي غمرة انغماسي في أي مسلك في الحيـاة ، يستطيع أي أمر تافه أن يجتذبني ، وأن يحولني ، وأن يستأثر بانتباهي ، ثم يغدو شغفا . وإذ ذاك يصبح كل شيء منسيا ، فلا أعود أفكر في غير الشيء الجديد الذي يستحوذ على اهتمامي .. وهـكذا كان قلبي يخفق في صـبر نافذ إذا ما أحضرت كتابا جديدا ودسسته في جيبي ، فلا أكاد أخلو إلى نفسي حتى أخرج الكتاب ، ولا أعود أفكر في التنقيب في حجرة معلمي بالورشـة .. ولا أكاد أصدق أنني كنت أقدم على السرقة ، ولو كانت لي أهواء تكلفني نفقـة أبهظ .. كنت في اقتصاري على الحاضر ، لا أجد اتجاها إلى أن أدبر أمر المستقبل بهذه الطريقـة ، فقد كانت « لاتريبو » تعطيني الكتب بالنسـيئة (بالتقسيط) ، وكانت الدفعـات

صغيرة ، ولكنى كنت أنسى كل شىء بمجرد أن أطمئن إلى وجود الكتاب فى جيبى . وكانت النقود التى تأتينى بطـرق شريفة تذهب بنفس الأسلوب إلى يدى هذه المرأة ! ولم يكن أهون على ـ عند ما تشتد فى الضغط على ـ من أن أنزل عما أمتلك. وكانت السرقة ـ قبل الحاجة إلى المسروق ـ تتطلب كثيرا من بعد النظر ، ومن ثم لم أكن أتعرض لاغراء يحملنى على السرقة لكى أدفـع ما كانت المـرأة تطلبـه !.. وكان من جـراء المشاجرات ، والضرب ، والاطلاع خفيـة على كتب أسىء اختيارها ، أن صرت شرسـا ، صـموتا ، وشرد عقلى ، وأصبحت أعيش منطويا !.. على أنـه إذا كان إدراكى لم يعصـمنى من الكتب السـخيفة والفاسـدة ، فـإن حظى الحسن صاننى من الكتب الفاحشـة والنـابية .. لا لأن « لاتريبو » ـ التى كانت امرأة لينة الجانب ، من كل اعتبار ـ كانت تثير أى اعتراض دون إعارتى هذه الكتب ، وإنما لأنها كانت تذكرها لى فى لهجة مشوبة بالغموض ، لكى تضاعف من قيمتها لدى ، فاذا بهـذا الغموض ، يحملنى على رفضـها ، بدافع من الاستهجان والاستحياء .. وقد ساعدنى حظى على الاحتفاظ بهذا المسلك الطيب الورع ، فانقضى أكثر من ثلاثين عاما قبل أن تقع عيناى على أحد هذه الكتب الخطرة ، التى ما كانت أية سيدة رقيقة لتجد مطالعتها مريحة ، لأنها لا تقرأ إلا بيد واحدة فقط ! (١) .

---

(١) يقصد روسو الكتب المثيرة ، التى كان يبلغ من عنف اثارتها للقـارىء أن تغريه على ممارسة العادات السيئة .

وفى أقل من عام ، كنت قد استوعبت الثروة الضئيلة من الكتب ، التى كانت لدى « لاتريبو » ، وأصبح افتقارى إلى ما يشغلنى ـ خلال فراغى ـ أمرا مضنيا . وكنت قد أبرأت نفسى من نزواتى الصبيانية النابية ، بفضل ولعى بالمطالعة . بل انى بفضل الكتب التى كنت أقرؤها ـ برغم أنها كانت سيئة الاختيار ، وكثيرا ما كانت رديئة ـ ملأت قلبى بمشاعر أنبل من تلك التى كان محيط حياتى يوحى إلى بها . وإذ امتلأت اشمئزازا من كل شىء كان فى متناول يدى ، وشعورا بأن كل ما كان خليقا باغرائى قد أقصى عنى تماما ، لم أعد أرى ثمة ما يمكن أن يهفو إليه فؤادى . وكانت حواسى المهتاجة قد طال شوقها إلى متعة لم يكن فى وسعى أن أدرك كنهها ، ولو فى الخيال !.. كنت نائيا عن المتعة الواقعية ، وكأننى خال من الجنس .. وكنت ـ لاكتمال نموى وإرهاف مشاعرى ـ أفكر احيانا فى نزواتى ، ولكنى لم أكن أبصر مما وراءها أى شىء .. وفى هذه الحال العجيبة ، أقبل خيالى المضطرب على شاغل انقذنى من نفسى وهذا من حساسيتى الشهوية النامية !.. وكان هذا الشاغل هو تعليل نفسى بالحالات والمواقف التى استرعت انتباهى أثناء مطالعاتى . وبفضل تذكرها ، وتنويعها ، والجمع بينها ، وتصور انها تمت لى حقيقة ، أصبحت واحدا من الشخصيات التى كانت تملأ خيالى ، وأصبحت أرى نفسى ـ دائما ـ فى أكثر هذه المواقف ملاءمة لذوقى .. وأخيرا ، جعلتنى الحال الخيالية ـ التى وفقت إلى وضع نفسى فيها ـ أنسى حالى الحقيقية التى لم أكن راضيا

عنها ! وقد أفضى بى هذا الولع بالموضـــوعات الخيــالية ، والاستعداد الذى كنت أتوسل به إلى شغل نفسى بها ، إلى الاستمئزاز من كل شىء حولى ، وإلى اقـــرار ذلك الميل إلى الوحدة الذى لم يفارقنى بعد ذلك . وسنرى ـ أكثر من مرة ـ فى سياق الحديث ، الآثار العجيبــة التى ترتبت على هـــذا السلوك الذى كان يبدو كئيبا ، ومنطويا ، ولكنه ـ فى الواقع ـ راجع إلى قلب مفرط العطف ، ومفرط الحب ، ومفرط الحنان ، اضطر إلى أن يغذى نفسه بالأوهام إذ عجـــز عن أن يجد فى الوجود أى قلب آخر يشـــبهه ! على أننى أكتفى ـــ فى الوقت الحاضر ـــ بأننى حددت أصـــل ومبعث هوايـــة خففت كل نزواتى ، وفرضت عليها من نفســـها قيودا ، فجعلتنى على الدوام بطىء التصرف ، نظرا لفرط تأجج شهوتى !

* * *

وهكذا بلغت العام السادس عشر من عمرى ، وأنا قلق ، غير راض عن نفسى ولا عن أى شىء ، خلو من شىء من الميول التى تتوفر فى مثل الحال التى كنت أعيش فيهـــا .. خلو من ملاهى السن التى كنت أجتازها ، يضنينى اشتهاء الغاية التى كنت أجهل كنهها .. فكنت أبكى دون ما داع للدموع ، وأتنهد دون أن أدرى لذلك سببا ! وقصارى القـــول ، كنت أداعب أطياف خيالى بحنان ، لأننى لم أكن أرى حولى شيئا يرجحها . وكان زملائى ـــ الذين كانوا يتعلمون الحرفة معى ـــ يفدون فى أيام الآحاد يبحثون عنى بعد الصلاة ، لأذهب فأنشـــد بعض اللهو معهم . كنت أشعر بأننى خليق بأن اغتبط لو استطعت

أن أهرب منهم ، ولكنى لم أكد اشترك فى ملاهيهم مرة ، حتى ازددت تحمسا وتماديت إلى أبعد مما كانوا يذهبون إليه !.. هكذا كان مسلكى دائما ، يصعب حملى على الشيء ، كما يصعب إيقافى عن المضى فيه إذا ما بدأت !.. فكنت ــ خلال نزهاتنا خارج المدينة ــ أذهب إلى أبعد مما يذهب إليه أى واحد منهم ، دون ما تفكير فى العودة ، ما لم يتذكرها لى الآخرون !.. ولقد تورطت فى هذا الصدد مرتين ، إذ أغلقت ابواب المدينة قبل أن أتمكن من العودة ! فكنت ــ فى اليوم التالى ــ أقابل بمن معلمى بما يمكن تصوره ! بل إننى أنذرت فى المرة الثانية بأن أقابل ــ إذا ما تكرر التأخر ــ استقبالا جعلنى أعقد العزم على أن لا أقدم على التعرض لهذا الخطر ثانية !.. ومع ذلك ، فقد قدر للمرة الثالثة أن تأتى ، برغم بشاعتها : فقد أفسد على حرصى ضابط لعين من الحرس ــ كان يدعى الكابتن مينوتولى ــ اعتاد دائما أن يغلق « البوابة » التى كان يحرسها قبل أن تغلق الأبواب الأخرى بنصف ساعة ! وكنت فى تلك المرة عائدا مع زميلين ، وقبل أن نبلغ المدينة بنصف فرسخ ، سمعت البوق الذى يستحث العائدين ، فضاعفت من خطاى .. وعدت أسمع البوق ، فهرعت بكل قواى .. ووصلت وأنا مقطوع الأنفاس ، غارقا فى العرق ، وقد راح قلبى يخفق بعنف .. ورأيت الجنود ــ من بعد ــ يتخذون مراكزهم ، فاندفعت نحو البوابة وأنا أصرخ بصوت كاد يخنقه التهدج .. ولكن الفرصة كانت قد فاتت ، فما أن أصبحت على عشرين خطوة من مركز الحراسة الامامى ، حتى رفعت القنطرة الأولى ! وارتعدت

وأنا أرى طرفيها الرهيبين يرتفعان فى الهواء ؛ كنذير شؤم بغيض بالمصير الذى كان فى تلك اللحظة يفغر فاه ليبتلعنى !

وفى الفورة الأولى لأساى ، ألقيت بنفسى على الأرض المنحدرة ، ورحت أعضها . وبادر زميلاى لتوهما — وهما يضحكان من نحسهما — إلى تقرير ما ينبغى عليهما عمله . وقد حذوت حذوهما ، ولكن قرارى كان يختلف عن قرارهما . فقد أقسمت — فى تلك البقعة — ألا أعود إلى معلمى قط ! فلما ولجا المدينة فى الصباح التالى ، بعد أن فتحت الأبواب ، ودعتهما إلى الأبد ، ولم أسألهما سوى أن ينبئا ابن خالى « برنارد » بقرارى ، سرا ، وبالمكان الذى يستطيع أن يرانى فيه مرة أخرى !.. ولم أكن — منذ تتلمذت فى الحرفة — قد رأيته إلا لماما ، فقد ظللنا وقتا نلتقى فى يوم الأحد من كل أسبوع ، ولكن كلا منا أخذ يتجه رويدا إلى عادات غير عادات صاحبه ، فأخذت لقاءاتنا تقل باطراد . وأعتقد أن لأمه يدا فى هذا التحول ، فقد كان من أبناء الحى الراقى ، بينما كنت تلميذا فقيرا أتلقى أصول الصنعة . كنت من أبناء (سان جيرفيه) — حى الفقراء بالمدينة — فلم تعد ثمة مساواة بيننا ، برغم قرابتنا ، ومن ثم فقد كان من الحطة له أن يكون ذا شأن معى !.. ومع ذلك ، فإن الصلات بيننا لم تنقطع تماما ، فإن ابن خالى — بما أوتى من فطرة طيبة — كان يتبع فى بعض الأحيان ما كان يمليه عليه قلبه ، وليس ما كانت تمليه عليه أمه !.. فلما أنبىء بما عقدت عليه العزم ، أسرع إلى ، لا ليحاول أن يثنينى عنه أو يشاطرنيه ، وإنما ليخفف

متاعب فرارى ببعض المنـــح البســيطة ، إذ كانت مواردى لا تساعدنى على الذهاب بعيدا . وكان بين الأشياء الأخرى التى وهبنيها ، سيف صغير استهوانى كثيرا ، وظللت أحمله حتى بلغت (تورين) ، حيث اضطرتنى الضرورة إلى أن أنزل عنه . اننى كلما فكرت ــ منذ ذلك الحين ــ فى التصرف الذى انتهجه ابن خالى نجوى فى تلك اللحظـــة الحرجة ، ازددت اقتناعا بأنه إنما أتبع تعليمات أمه ، وربما أبيه أيضا . إذ أنه من الأمور التى لا سبيل إلى تصديقها ، أنه كان يقعد عن بذل اى مجهود لاستبقائى ، أو يحجم عن أن يتبعنى ، لو أنه كان يتصرف من تلقاء نفسه .. ولكنه ــ على العكس ــ كان فى مسلكه أقرب إلى تشجيعى على أن أمضى فى خطتى ، منه إلى إثنائى عنها !.. وعندما تبين أننى كنت مصمما ، تركنى دون أن يذرف كثير دمع . ولم يقدر لنا أن نتبادل الرسائل أو أن يرى أحدنا الآخر ، منذ ذلك الحين ! وإنه لأمر يدعو للأسف ، إذ كانت شخصيته بطبيعتها طيبة ، وكنا قد خلقنا لكى يحب كل منا الآخر !

وقبل أن استغرق فى الحديث عن حظى وقدرى ، اسمحوا لى أن أحول عينى لحظة إلى الحظ الذى كان خليقا بأن ينتظرنى ــ بحكم طبيعة الأمور ــ لو أننى وقعت بين يدى معلم أفضل من معلمى هذا .. فما كان ثمة ما هو أنسب لميـولى ، ولا ما هو أصلح لاسعادى ، من الحياة الهادئة ، المغمورة ، التى يحظى بها اى صاحب حرفة محترم ، لا سيما إذا كان من طبقة كطبقة الناقشين على المعادن فى (جنيف) .. إذ أن مثل هذا المركز

ـ الذى يدر من الكسب ما يكفى لتهيئة معاش مناسب ، ولكنه لا يكفى لتكوين ثروة ـ كان كفيلا بأن يحد من طموحى ما تبقى لى من العمر ، وبأن يفسح لى فراغا شريفا لكى أرعى ميولى المتواضعة ، وبأن يستبقينى فى المحيط المناسب لى ، دون أن يتيح لى أسباب تجاوزه !.. فقد كانت موارد خيالى من الخصب بحيث تخلع جمالا على كل المهن والأعمال وما يحيط بها ، ومن القوة بحيث تنقلنى ـ إن صح هذا التعبير ـ من حال إلى حال ، وفق ارادتى . لذلك لم يكن للمركز الذى أجد نفسى فيــه أى اعتبار مادى فى الواقع . وما كان أى مكان أوجد فيه ليبعد عن أولى قلاعى التى كنت أشيدها فى الهواء بمسافة تقعدنى عن أن ألوذ بقلعتى دون ما عناء !.. وترتب على هذا وحده أن أبسط مهنة ، المهنة التى تنطوى على أقل عنــاء ، والتى تتيح أكبر قدر من الحرية الفكرية ، هى التى كانت تروق لى أكثــر من سواها .. وهكذا كانت مهنتى تماما !.. وكان من الممكن أن أقضى حياة هادئة وادعة ، كتلك التى تتطلبها ميولى ، فى أحضان عقيدتى ، ووطنى، وأسرتى ، وأصدقائى .. وفى رتابة المهنة التى تلائم ذوقى ، وفى الرفقة المحببة إلى فؤادى .. كان من الممكن أن أكون مسيحيا طيبا ، ومواطنا طيبا ، وأبا طيبــا لأسرة ، وصديقا طيبا ، وعاملا طيبا ، ورجلا طيبــا فى كافة روابط الحياة .. وكان من الممكن أن أحب مركزى فى الحياة ، بل ولعلنى كنت أمجده .. وكان من الممكن بعد أن أقضى حياة بسيطة وخاملة مغمورة ، فى الواقع ـ أو فلأقل هادئة وقورا ـ

أن أموت بسلام ، فى أحضان أسرتى .. ومع أننى كنت خليقا بأن أغدو نسيا منسيا بعد قليـــل ـــ دون ما ريب ـــ إلا أننى كنت خليقا إذ ذاك بأن أجـــد من يحزن على ـ على الأقل ـــ ما بقى على قيد الحياة واحد ممن يذكروننى !

أية صورة أوشك أن أرسمها ، بدلا من هذه ؟.. لنكف عن استباق شجون الحياة ، فسوف أشـــغل قرائى بما هو فوق الكفاية من الأسى !

الكراسة الثانية

٤ ـ من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

بقدر ما بدت اللحظة ـ التى أوحى إلى فيها الخوف بفكرة الفرار ـ حزينة ، فان اللحظة التى أقدمت فيها على تنفيذ الفكرة بدت بهيجة .. فقد كنت أهجر بلدى ، وأهلى ، وأسباب عيشى، ومواردى، وأنا بعد صغيرا !.. كنت انصرف عن حرفة ـ وأنا فى منتصف دراستها ـ دون ما معرفة كافية بها ، تمكننى من أن أكسب عيشى .. كنت أسلم نفسى لأهوال العوز ، دون أية وسيلة لإنقاذ نفسى منها !.. كنت أعرض نفسى ـ وأنا بعد فى سن البراءة والضعف ـ لكل غوايات الرذيلة والقنوط .. كنت أنشد ـ فى البعد ـ العذاب ، والخطأ ، والزلات ، والعبودية ، والموت تحت ربقة أشد طغيانا من تلك التى لم أطق احتمالها !.. هذا ما كنت أوشك أن افعل ، وهذا هو المستقبل المحتمل الذى كان يجب أن أقدره !.. فما أبعد هذا عن الخيال المزوق !.. كان الاستقلال الذى اعتقدت أننى اكتسبته ، هو الشعور الوحيد الذى أخذ يحركنى .. فقد اعتقدت أن بوسعى ـ وأنا حر ، سيد نفسى ـ أن أفعل كل شىء ، وأن أحقق كل شىء ، وليس على سوى أن أدفع نفسى فاذا بى أرقى وأحلق فى الهواء !.. لقد دخلت الدنيا الواسعة وأنا عامر القلب بالشعور بالأمان ، وبأن هذه الدنيا لن تلبث أن تفعم بصيت أعمالى ، وأننى سأجد فى كل خطوة احتفالات ، وكنوزا ، ومغامرات ، وأصدقاء على استعداد لأن يخدمونى ، وعشيقات تواقات إلى إرضائى !..

فليس على سوى أن أظهر ، فأشغل بال الدنيا بأسرها .. ومع ذلك فلم أكن راغبـــا فى الدنيا كلها ، إذ كان بوسعى أن استغنى عنها ، إلى حد ما !.. كانت الرفقة اللطيفة تكفينى ، دون أن أضنى نفسى ببقيـــة الدنيـــا .. كنت فى تواضعى قد قصرت نفسى على مجال ضيق ، مختار ، بهيج ، يكون سلطانى عليـــه أمرا محققا .. كان أقصى طموحى يتمثل فى نطاق غزو قلعة واحدة : فلو قدر لى أن أكون أثيرا لدى السيد والسيدة ، وحبيبا للابنة ، وصديقا للابن ، وحاميا للجيرة ، لقنعت .. فما كنت راغبا فى مزيد !

وفى ارتقاب هذا المستقبل المتواضع ، رحت أهيم حـــول المدينة لبضعة أيام ، متخذا مقـــامى لدى بعض فلاحين كنت أعرفهم . وقد استقبلونى فى كرم يفوق ما كان أى امرىء من سكان المدينة خليقا بأن يبذل لى ، فقد رحبوا بى ، وآوونى ، وغذونى بكرم يفـــوق كل ما كنت استحق .. ولا سبيل إلى وصف عملهم بأنه « احســـان » ، إذ أنهم لم يكونوا يخلعونه على بترفع أو من .. وهكذا رحت أتنقل وأهيم على وجهى ، حتى بلغت (كونفينيون) ، بمنطقة (سافوى) ، على بعـــد فرســـخين من (جنيف) . وكـــان مطرانهـــا يدعى الســـيد « دى بونفير » ، وقد استرعى انتباهى هذا الاسم الذائع فى تاريخ الجمهورية ، وكنت تواقا لأن اشهد سلالة « فرســـان الملعقة » (١) .

---

(١) كان هؤلاء الفرسان الكاثوليك من رعايا دوق سافوى ، وكانوا يؤلفون =

وسعيت إلى السيد « دى بونفير » ، فتلقـــانى فى رفق ، وتحدث عن زندقة (جنيف) ، وعن سلطان كنيسة الأم المقدسة ؛ ثم دعانى إلى العشاء . ولم أجد ما أرد به على حديث انتهى إلى هذه النتيجة ، بل اننى خرجت برأى أوحى إلى بأن المطارنة الذين يحظون بمثل هذا العشاء ، لا يقلون صلاحا عن كهنتنا . وكنت ـ يقينا ـ أكثر معرفة من السيد « دى بونفير » ، ولكنى كنت لا أقل صلاحية كضيف عنى كمتبحر فى علوم اللاهوت ؛ كما أن نبيذ « فرانجى » الذى قدم على المــائدة ، والذى لاح لى بديعا ، كان موفقا فى كسب كل حجة إلى صـــف المطران ؛ فقد كان خليقـــا بى أن استحيى من أن أوقف فم مثل هـــذا المضيف العجيب عن الــكلام .. ومن ثم فقـــد رحت أسلم بحججه ، أو ـــ على الأقل ـــ أحجم عن أن ابدى مقـــاومة صريحة . ولو أن أحدا رأى ما كنت أبدى من حذر ، لخالنى مخادعا . ولكن هذا غير صحيح ، فمن المحقق أننى إنما كنت أصدر فى تصرفى عن ملاطفة عامة ، إذ أن المجاملة ولين الجانب ليسا من الرذائل دائما ، بل انهما كثيرا ما يكونان من الفضائل ؛ لا سيما لدى الشبان .. ذلك لأن الكرم الذى يعاملنا به أى شخص ، يقربه إلى قلوبنا ، فاذا ما جاريناه فى آرائه فلن يكون

=

عصبة فى جنيف ، فى عهد الاصلاح ، وقد أطلق عليهم لقب « فرسان الملعقة » ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم « أكلوا أعداءهم بالملعقة » !.. ومن ثم فقد كانوا يحملون ملعقة مدلاة من أشرطة حول أعناقهم . وكان يرأسهم فارس من آل « دى بونفير » .

ذلك عن تملق ، بغيــة استغلال كرمــه ، وإنما هو تجنب لإغضابه ، أو لمقابلة حسنته بسيئة .. إذ ما الصالح الذى كان السيد دي بونفير يبتغيه من وراء استقبالى ، أو اكرامى ، أو محاولة اقناعى ؟.. لا شىء سوى مصلحتى أنا . هكذا انبأنى قلبى الشاب ، فهزنى عرفـان الجميل ، وتوقير مثل هــذا الكاهن الطيب . وكنت أشعر بتفوقى عليه فى المعرفة ، فلم أشأ أن اجازيه عن ضيافته بأن أذهله بهذا التفوق . ومن ثم لم يكن فى مسلكى شىء من النفاق ، فما فكرت قط فى أن أغير دينى ، بل إننى كنت أبعد ما أكون عن أن أروض نفسى سريعا على هذه الفكرة ، وما نظرت إليها إلا فى استنكار ساعد على أن يقصيها عنى أمدا طـويلا . إنمـا كانت كل رغبتى هى أن أتفادى اغضاب أولئك الذين كانوا يحسنون معاملتى سعيـا منهم إلى تحويلى عن عقيدتى . كنت أبغى أن أنمى حســن نواياهم ، وأن أدع لهم الأمل فى النجاح ، وذلك بأن أبدى لهم أننى أقل مناعة مما كنت فى الواقع . وكان مسـلكى فى ذلك يشبه تدلل النساء ذوات المكانة المحترمة ، اللائى يعرفن كيف يثرن آمالا تفوق ما يعتزمن أن يحققنه أحيانا فى سـبيل بلوغ مآربهن ، دون أن يجدن بشىء ، أو يتقيدن بوعد !

كان العقل ، والشفقة ، ومراعاة النظام، تتطلب من الناس أن ينقذونى من الدمار الذى كنت أهرع لملاقاته ، وإعادتى إلى أسرتى ، بدلا من معاونتى على طيشى ! هذا ما كان كل إنسان صالح صادق التقوى خليقا بأن يفعله ، أو يحاول فعله . ولكن السيد « دى بونفير » وإن كان رجلا طيبا ، إلا أنه لم يكن ـ

قطعا ــ بالرجــل التقى .. بل إنه كان ــ على النقيض ــ متعصبا ، لا يعرف عن التقوى سوى أنهــا عبادة الصور ، وترديد التسابيح .. كان من ذلك النــوع من المبشرين الذين لا يملك الواحد منهم أن يفكر فى شىء لمصلحة عقيدته ، أفضل من كتابة الاتهامات ضــد قساوسة جنيف !.. وبدلا من أن يردنى إلى موطنى ، استغل الرغبة التى كنت أحس بهــا فى الفرار من هذا الموطن ، وعمل على أن يجعل العودة متعذرة على ، ولو شئتها !.. ومن المحتمل أن الطريق التى وجهنى إليها كانت كفيلة بأن توردنى موارد التعاسة ، أو أن تجعلنى امعة لا وزن له .. ولكنه لم يكن يتطلع إلى ذلك أو يحسب حسابه ، فما كان يرى أمامه سوى نفس أنقذت من الــكفر وردت إلى الكنيسة . وسواء أكنت شريفا أم وغدا ، فما قيمة ذلك ما دمت أذهب إلى القــداس ؟.. على أن المــرء يجب ألا يعتقد أن مثل هذا التفكير مستغرب لدى الكاثوليك ، بل إنه مألوف لدى كافة الأديان المتعصبة ، التى يعتبر الإيمان هو الشىء الرئيسى فيها ، وليس الأعمال !

وقال لى السيد دى بونفير : « إن الله يدعوك ، فاذهب إلى (انيسى) ، وهناك ستجد سيدة طيبة ، محسنة ، جعلها كرم الملك فى مركز يمكنها من إنقاذ الأوراح من الخطأ الذى نجت هى نفسها منه ! » . وكانت السيدة المقصودة هى « مدام دى فاران » ، التى اعتنقت الكاثوليكية حديثا ، والتى اضطرها القساوسة ــ فى الواقع ــ إلى أن تقتسم مع من كانوا يبيعون عقيدتهم من الدهماء ، معاشا قدره ألف فرنك كانت تتلقاه من ملك سردينيا . وشعرت بهوان من جراء طلب المعونة من سيدة

طيبة محسنة ، فقد كنت جد تواق إلى أن أحصل على ما يفي بحاجاتي ، وليس إلى أن أحظى بصدقات !.. كما أن التفرغ الدين لم يكن يستهوينى . ومــع ذلك فقد حملت نفسى — فى شىء من العناء — على أن أسعى إلى (انيسى) مدفوعا بالحاح السيد دى بونفير ، وبضغط الجوع ، وبمتعة الرحيل فى سبيل غاية محددة . وكان بوسعى أن أبلغ وجهتى فى يوم واحــد ، ولكننى استغرقت فى سفرى ثلاثة أيام ، إذ لم أكن فى عجلة من أمرى . ولم أجرؤ — فى تلك الاثناء — على أن ألج قصرا ، أو أقرع بابا ، فقد كنت بطبعى شديد الخجل . ولكنى كنت أغنى تحت النوافــذ التى يراودنى الأمــل فى أن يكون خلفهــا من يسمعنى . وكنت أصدم عندما أنهك رئتى بالجهد المتواصل ، ثم لا أرى سيدات ولا عذارى ينجذبن إلى صوتى أو معــانى أغانى ، لا سيما وأننى كنت أعرف منظومات رائعة علمنيهــا زملائى ، وكنت أغنيها فى إلقاء لا يقل عن معانيها روعة !

ووصلت أخيرا ، فرأيت « مدام دى فاران » . ولقد حددت هذه الفترة من عمرى شخصيتى ، فلست اقوى على أن أحمل نفسي على المرور بهــا مرا سريعا .. كنت فى منتصف العــام السادس عشر من عمرى ، وكنت بديع التكوين ، دون أن أكون ما يسمونه « فتى مليحا » .. كنت صغير القــدم ، مستوى الساق ، رضى الخلق ، ذا قسمات معبرة ، وفم صغير بديع ، وشعر فاحم ، وحاجبين أسودين ، وعينين صغيرتين غائرتين قليلا ، ولكنهما — مع ذلك — كانتا ترسلان بقوة تلك النار التى كانت تتأجج فى دمى !.. على أننى — لسوء الحظ — لم أكن

أعرف شيئا عن ذلك ، فما خطر لى قط ـ خلال حياتى ـ أن أفكر فى مظهرى الشخصى ، اللهم إلا بعد أن فات أوان الإفادة منه !.. وكان الجبن المألوف فى مثل سنى هذه يرتبط بوجل ناشىء عن شخصية جبلت على الحب ، فهى دائما فى هم من خشية الإساءة إلى أحد . هذا إلى جانب أننى وإن أوتيت عقلا حسن التكوين ، نشىء على التسامح ، إلا أننى لم أكن قد رأيت الدنيا ، وكانت تعوزنى آداب السلوك .. وبدلا من أن تسد معرفتى هذا النقص ، فانهـا لم تؤد إلا إلى مضاعفة خجلى وجبنى ، إذ أظهرتنى على مدى حاجتى الماسة إلى هذه الآداب!

ومن ثم ، فان خوفى من أن يخفق مظهرى ـ فى أول لقاء مع مدام دى فاران ـ فى أن يكسب عطفها ، دفعنى إلى تجشم متاعب أخرى . فنظمت رسالة بديعة ، فى أسلوب خطابى ، خلطت فيها عبارات منتقاة من الكتب ، بتعبيرات مكتسبة من الزملاء العمال ، وكشفت عن كل بلاغتى ، لكى أكسب رضاء السيدة . وارفقت برسالتى خطاب السـيد دى بونفير ، ثم سعيت إلى المقابلة التى كنت أرهبهـا !.. ولم تكن مـدام دى فاران فى البيت ، بل قيل لى انهـا بارحتـه لتوها إلى الكنيسة ، إذ كان اليوم يوم أحد السعف من عـام ١٧٢٨ ، فهرعت فى أثرها ، ورأيتها ، فلحقت بهـا وخاطبتها . وخليق بى أن أذكر البقعة التى التقينا فيها ، فـكم رويتهـا بدمعى وغطيتها بقبلاتى ، منذ ذلك الحين ! وكم أتمنى أن أحيط هذه البقعة المباركة بسياج من ذهب . كم أود أن أجتلب إليهـا تمجيد العالم وخشوعه .. وخليق بكل من يحب تكريم ذكريات

خلاص النفوس البشرية ، ألا يقترب منهـا إلا وهـو راكع على ركبتيه !

كانت تلك البقعة دربا يمتد خلف منزل السيدة ، ويصـل بين جدول ـ إلى اليمين ـ يفصل البيت عن الحديقة ، وسياج الفنـاء ـ إلى اليسـار ـ ويؤدى إلى باب خلفى لكنيسـة الفرنسيسكان(١) . وفى اللحظة التى همت فيها مدام دى فاران باجتياز هذا الباب ، سمعت صوتى ، فالتفتت خلفها . وكم أذهلنى منظرها !.. كنت قد تمثلتهـا عجوزا ، عابسـة ، متعصبة فى تدينها ـ فما كانت السيدة التقيـة التى تعـرف السيد دى بونفير لتعدو هذه الصورة ، فى رأيى ! ـ بيد أننى رأيت بدلا من هذه الصورة وجهـا يفيض بالسحر ، وعينين زرقـاوين جميلتين ـ مفعمتين رقة ـ وبشرة تبهر البصر ، ومعالم عنق فاتن .. لم يفلت شىء من النظرة السريعة التى ألقاها المريد الفتى ـ فقد غدوت منذ تلك اللحظة مريدا وتلميذا متعلقا بها ـ وقد داخلنى اقتناع بأن دينا يبشر به حواريون من قبيل هـذه السـيدة ، لابد وأن يقـود إلى الفردوس ! وتنـاولت منى المرأة ، مبتسـمة ، الرسـالة التى قدمتها

---

(١) أصحاب الحبال : وهم أفراد طائفة دينية أنشأها القديس فرانسيس الأسيسى فى سنة ١٢٢٣ . وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد على جماعة أنشأها « دانتون » و « مارا » و « ديمولان » ـ زعماء الثورة الفرنسية ـ فى سنة ١٧٩٠ . وكانت تعقد اجتماعاتها فى دير الفرنسيسكان العتيق بباريس .



وفى اللحظة التى همت فيها مدام دى فاران باجتيـــاز
هـذا البــــاب ، ســـمعت صوتى ، فالتفتت خلفها

إليهـــا بيد مرتجفة ، ففضتهـــا ، وألقت نظـــرة على ما كتب السيد دى بونفير ، ثم ارتدت إلى ما كتبتـــه أنـــا فقـــرأته كله ، وهمت بأن تعيد قراءته لولا أن نبههـــا خادمها إلى أن الوقت قد حان لتلج الكنيسة ، فقالت لى بلهجة هزت كيانى : « حسنا يا صغيرى .. إذن فأنت تهيم فى البلاد ، فى مثل هذه السن ؟.. إنه لأمر يستحق الرثاء حقا ! » .. ولم تنتظر حتى أجيب ، بل أردفت : « اذهب فانتظرنى ، وسلهم أن يقدموا لك فطورا .. ولسوف آتى بعد الصلاة لأتحدث إليك » .

كانت « لويز اليـــونور دى فاران » شابة تنتمى إلى آل « لاتوردى بيل » ، وهى أسرة عريقـــة ونبيلـــة من أسرات (فيفاى) إحدى مدن مقاطعة (فودن) . وكانت قد تزوجت وهى جد صغيرة من الســـيد دى فاران ــ من آل لويس ــ وكان الابن الأكبر للسيد دى فيلاردان ، من (لوزان) . ولم يكن هـــذا الزواج ــ الذى لم يعقب ولدا ــ زواجا هنيئا ، فلم تلبث السيدة دى فاران ــ تحت تأثير حزن عائلى ــ أن انتهزت فرصة وجود الملك فيكتـــور اماديو فى (ايفيان) ، فعبرت البحيرة ، وألقت بنفسها عند قدمى هذا الأمير .. ومن ثم هجرت زوجها وأسرتها وبلادها ، فى فورة حمقاء تشـــبه فورتى ! ــ وقد وجدت متسعا من الوقت بعد ذلك للندم ، كما فعلت أنا ــ وإذ كان الملك مشغوفا بأن يظهر بمظهر الكاثوليكى الغيور ، فانه أخذ السيدة تحت حمايته ، ووقف عليها معاشا

سنويا قدره ١٥٠٠ جنيه بييمونتى(١) .. وهو مبلغ كبير يعد إسرافا من أمير كان بطبعه غير ميال للسخاء .. على أنه علم بعد ذلك بما قيل ـ بسبب استقباله إياها ـ من أنه أحبها ؛ فما كان منه إلا أن أرسلها إلى (انيسى) فى حماية فصيلة من حرسه ، حيث نبذت العقيدة البروتستانتية فى دير (الزيارة) ، تحت إرشاد روحى من « ميشيل جابرييل دى برنيكس » ، الأسقف الأسمى لجنيف .

وكانت قد قضت ست سنوات فى (انيسى) عندما قدر لى أن أصل إليها ، وكانت وقتئذ فى الثامنة والعشرين من عمرها ، إذ ولدت فى بداية القرن . ولقد كان جمالها من النوع الذى يبقى مع الزمن ، إذ أنه يقترن بالمحيا أكثر منه بالملامح والقسمات .. كما أنه كان ـ لديها ـ فى باكورة تألقه . فكان لها طابع لطيف ، حنون ، وشكل رقيق ، وابتسامة ملائكية ، وفم يشبه فمى ، وشعر أشهب خفيف نادر الجمال ، ترسله فى إهمال كان يكسبها مظهرا أخاذا . وكانت صغيرة القد ، بل أنها كانت قصيرة ، وإن لم يكن هذا يعيبها . على أنها أوتيت رأسا وصدرا ويدين وذراعين لا تملك العين أن تقع على أجمل منها .. ولقد كانت تربيتها جد عجيبة : كانت قد فقدت أمها عند مولدها ـ مثلى ـ وتلقت العلم فى غير انتظام ، كلما عن

(١) نسبة الى ولاية (بييمونتى) ـ وتكتب بالحروف اللاتينية (بييد مونت) ولكن التاء تغفل فى النطق ـ وتقع على حدود فرنسا وسويسرا ، فى الشمال الغربى لايطاليا .

لها أو صادفتها الفرصة .. فأخذت قدرا ضئيلا من مربيتها ، وقليلا من أبيها ، وقليلا من مدرسيها ، وحظا وافرا من عاشقيها ، لا سيما من شخص منهم يدعى السيد «دى تافيل» ، كان رجل ذوق وعلم ، فكان يزين المرأة التى تتجه إليها عواطفه بروائع معرفته . ولكن تعدد أنواع المعرفة المتباينة ـ بهذه الكثرة ـ جعل كلا منها يعرقل الآخر ! ولما كانت السيدة قد واصلت دراساتها دون ما نظام مرسوم ، فان إدراكها السليم ـ بطبعه ـ لم يصب أى تحسن . ومن ثم فانها ـ برغم إلمامها بشىء من أصول الفلسفة وعلم الطبيعة ـ ظلت تحتفظ بما كان لأبيها من ميل إلى الطب التجريبى(١) والكيمياء ، وكانت تحضر أنواع « الاكسير » والأصباغ ، والبلاسم (المراهم) ، والمساحيق السامية(٢) . وكانت تزعم أنها تمتلك عقاقير سرية ! ولقد استغل مدعو الطب من الدجالين ضعفها . فتسلطوا عليها ، وأعنتوها ، وأفلسوها .. وبين البواتق والعقاقير بددوا ذكاءها ، ومواهبها ، ومفاتنها التى كانت خليقة بأن تبهر بها أرقى مجتمع ! .. ومع ذلك ، فبالرغم من أن الأوغاد الخبثاء أساءوا استغلال تربيتها التى لم تلق التوجيه الصالح ، لكى يطفئوا ضياء عقلها ، إلا أن قلبها السامى صمد للمحنة ، وظل دائما على سموه .. وما تغيرت شخصيتها الودودة اللطيفة ، ولا عطفها على التعساء ، ولا طيبتها التى لم يكن لها حد ،

---

(١) الطب التجريبى هنا يقصد به ذلك الطب الذى تكتسب معرفته بالممارسة والتجربة ، وهو ما يعرف لدى العامة بطب « البركة » .

(٢) المساحيق السامية مساحيق كانت تعزى اليها ميزات عالية .

ولا خلقها البشوش ، الصريح ، المستقيم .. بل إنها حين عدا عليها الكبر ، وأحاطت بها الحاجة والعناء والمصائب من كل الأنواع ، ظلت سجيتها الوادعة الجميلة ، محتفظة — حتى نهاية عمرها — بكل ما كان بها من بهجة فى أهنأ الأيام !

ولقد كانت أخطاؤها راجعة إلى معين لا ينضب من النشاط الذى كان فى حاجة مستمرة إلى شاغل . ولم تكن تبغى شيئا من الدس كما كانت تفعل غيرها من النساء ، وإنما كانت تبغى مشروعات تعنى بتوجيهها وتنفيذها . فلقد خلقت لتسهم فى الشئون الهامة . ولو أن « مدام دى لونجفيل » كانت فى مكانها لكانت مجرد دساسة تنصرف إلى المؤامرات .. أما هى ، فلو أنها كانت فى مكان مدام دى لونجفيل لحكمت الدولة وساست أمورها ! ولكن قدر لمواهبها أن تتوفر فى غير المجال الصالح لها ، فاذا هذه المواهب التى كانت خليقة بأن تجلب عليها الشهرة لو أنها كانت فى مركز أسمى ، تؤدى إلى دمارها وهى فى المركز الذى عاشت فيه !.. ذلك أنها كانت — فى كل ما يقع فى مجال طاقتها العقلية — ترسم خطتها مكبرة فى رأسها ، فترى غايتها مضخمة ، مما كان ينجم عنه استخدامها وسائل أكثر تناسبا مع آرائها منها مع قوتها .. ولقد أخفقت بفضل أخطاء غيرها . وعندما فشل مشروعها ، أفلست ولما يكد سواها يخسر شيئا !.. على أن هذا الشغف بالأعمال التجارية — الذى أضر بها أبلغ الضرر — كان عظيم النفع لها من ناحية أخرى فى عزلتها الرهبانية ، إذ حال بينها وبين البقاء فى هذه العزلة ما بقى من عمرها ، كما كانت تعتزم . فما كان

من المحتمل أن تليق حياة الراهبات المنتظمة المتقشفة ، ولا الثرثرة المنبعثة عن الخمول والكسل ، بعقل كان فى حركة مستمرة ، وكان يبتكر فى كل يوم نظما جديدة ، ويحتاج إلى الحرية ليكرس ذاته لهذه النظم !

وكان أسقف برنيكس الطيب يشبه «فرانسوا دى سال»(١) فى كثير من النواحى ، وإن لم يعد له مهارة .. كما أن مدام دى فاران ـ التى كان يدعوها بابنته ـ كانت تشبه « مدام دى شانتال »(٢) فى كثير من النواحى ، وكانت خليقة بأن تشبهها أيضا فى اعتزالها الناس ، لولا أن حياة الدير الخاملة كانت بغيضة إليها . ولم يكن عن نقص فى حمية هذه السيدة الطيبة أن عزفت عن تكريس نفسها للعبادات البسيطة التى تتطلبها الرهبنة ، والتى كانت تبدو ملائمة لمؤمنة حديثة عهد بالعقيدة ، تعيش تحت إرشاد أسقف .. فمهما يكن الباعث الذى اغراها على أن تبدل عقيدتها ، فانها كانت صادقة الإخلاص ـ عن يقين ـ للعقيدة الجديدة التى اعتنقتها . ومن المحتمل أن تكون قد ندمت على اقدامها على ذلك ، إلا أن من الأكيد أنها لم ترغب قط فى النكوص، فهى لم تمت على مذهب الكثلكة فحسب ، بل انها برهنت خلال حياتها على أنها كانت كاثوليكية صالحة . وإنى لأجرؤ ـ وأنا الذى يعتقد أنه قد

---

(١) أسقف جنيف (١٥٦٧ ـ ١٦٢٢) .

(٢) سيدة امتازت بتقواها ، وهى التى أسست نظام راهبات «الزيارة» ، وقد أقر رهبنها البابا كلمينت الثالث عشر .

اطلع على سريرتها ـ على أن أؤكد أن عزوفها عن أن تبدو في ثياب التقوى علانية إنما كان ناجما عن استبشاعها للتصنع . كانت تقواها على درجة من الصدق كانت تأبى معها أن تظهرها للملأ .. على أن هذا ليس بمجال الحديث عن مبادئها ، فلسوف تسنح لي فرص أخرى للخوض فيها .

وعلى الذين ينكرون تعاطف الأرواح أن يفسروا ـ إن استطاعوا ـ كيف أن مدام دى فاران أوحت إلى منذ اللقاء الأول ، بل منذ الكلمة الأولى ، والنظرة الأولى ، بثقة كاملة لم تكشف قط عما يكذبها ، فضلا عما أوحت إلى به من مشاعر الولاء والتعلق ، ولو سلمنا بأن أحاسيسى نحوها كانت حبا حقيقيا ـ وهو ما سيبدو موضع شك ، على الأقل ، لأولئك الذين يتتبعون تاريخ علاقتنا ـ فكيف تسنى أن يكون هذا الحب منذ بدايته مقترنا بمشاعر قل أن أوحى بها الهوى ـ وأعنى بذلك طمأنينة القلب ، والسكينة ، والسرور ، والثقة ، والاعتداد ؟ ـ كيف تسنى اننى عندما سعيت لأول مرة إلى امرأة لطيفة ، مهذبة ، ذات جمال باهر .. إلى سيدة أرفع منى مقاما ـ وما كنت قد خاطبت يوما مثيلة لها ـ وكان مصيرى، بطريقة ما ، يتوقف عليها ، وفقا لمدى ما قد تستشعره من ميل للأخذ بيدى .. أقول : كيف تسنى ـ رغم كل هذا ـ أن أشعر لفورى بانطلاق، وبارتياح تام ، وكأننى كنت واثقا كل الثقة من أننى سأروق لها ؟ .. كيف تسنى أننى لم أحس ـ ولو للحظة واحدة ـ بأية حيرة ، أو ارتباك ، أو تحرج ؟ .. لقد كنت بطبيعتى خجولا ،

سهل الاضطراب ، لا أعرف شيئا من الدنيا ، فكيف تسنى لى منذ اليوم الأول ، بل اللحظة الأولى ، أن أتخذ معها المسلك السهل ، واللغة الرقيقة ، واللهجة الأليفة التى سادت بيننا بعد ذلك بعشر سنوات ، عند ما جعل الود الوثيق هذه الأمور طبيعية ؟.. فهل من المحتمل أن يحب المرء بدون غيرة ـ ولست أقول بدون رغبات، فان هذه كانت متوفرة لدى ! ـ أفلا يرغب المرء فى أن يعرف على الأقل ، من هدف عواطفه ، ما إذا كان حبه يقابل بحب مثله أم لا ؟.. الواقع أنه ما خطر لى فى حياتى أن أوجه إليها هذا السؤال ، ولا أن أسأل نفسى ما إذا كنت قد احببتها !.. كما أنها لم تبد فضولا نحوى من هذا القبيل . كان ثمة شىء فذ فى مشاعرى نحو هذه المرأة الساحرة ، ولسوف يصادف القارىء ـ فى سياق حكايتى ـ عجائب غير مرتقبة !

كان الموضوع يتعلق بما سوف يصير إليه أمرى ، وقد استبقتنى السيدة للغداء كى نتحدث بشأن مستقبلى . وكانت تلك أول مرة فى حياتى تخلت عنى فيها شهيتى ، حتى لقد قالت وصيفة السيدة ـ التى قامت بخدمتنا على المائدة ـ إننى كنت أول قادم من سفر ، فى مثل سنى وطبقتى ، رأته فى مثل هذه الحال . ومع أن هذه الملاحظة لم تنل منى فى نظر سيدتها ، إلا أنها أصابت مرمى فى نفس طفيلى كبير كان يتناول الغداء معنا ، وكان قد التهم وحده ما يكفى ستة أفراد! أما أنا ، فقد كنت فى حال من النشوة العاطفية لم تكن تدع لى سبيلا إلى الأكل . كان قلبى يتغذى من شعور جديد على كل الجدة ، وقد ملأ كل كيانى ، ولم يدع بنفسى ميلا إلى أى شىء آخر !

ورغبت مدام دى فاران فى أن تعرف دقائق تاريخ حيـاتى القصيرة ، فاستعددت وأنا أرويها كل ما فقدت خلال تتلمذى فى الحرفة من حماسة ومرح . وكنت كلمـا استثرت اهتمام تلك الروح السامية ، ازدادت هى إشفاقا على مما اعتزمت أن أعرض حياتى له . ولم تجرؤ على أن تنصحنى بالعـودة إلى جنيف ، فقد كان ذلك ــ بالنسبة لموقفى ــ عملا ينطوى على خيانة للعقيدة الكاثوليكية ، كما أنها كانت تعرف تمام المعرفة كيف أنها كانت محوطة بالرقابة ، وكيف أن كلماتها كانت توزن بميزان دقيق . على أنها حدثتنى بلهجة مؤثرة عن أسى أبى ، حتى لقد كان من السهل أن يرى المرء أنها كانت تحبذ عودتى كى أواسيه . ولم تكن تدرى كيف أنهـا كانت تترافع بقـوة ضد نفسـها ، دون أن تدرى . إذ أظننى قـد قلت من قبل إن عقلى كان قد استقر على قرار ، فكنت كلما ازدادت كلمـات السيدة ذلاقة واقناعا ، وكلمـا ازدادت تغلغـلا فى فؤادى ، ازددت عجزا عن أن أفكر فى الانفصال عنها ! كنت اشعر بأن العودة إلى جنيف بمثابة إقامة عوائق لا سبيل إلى تذليلهـا بينى وبين هذه السيدة ، ما لم اتشبث بهـذه الخطـوة التى اتخذتها . ومن ثم ظللت صامدا فى موقفى . وإذ رأت مـدام دى فاران أن جهودها غير مجدية ، لم تمعن فى الالحاح ، حتى تتفادى إحراج نفسـها ، بيد أنهـا قالت لى وهى ترمقنى فى إشفاق : « أيها الصغير البائس ، يجب أن تذهب إلى حيث يدعوك الله ، ولكنك ستتذكر حديثى عندما تكبر ! » .. وأعتقد أنها لم تكن تتصور إذ ذاك مدى القسوة التى قدر لهذه النبوءة أن تتحقق بها !

وكانت المشكلة عسيرة . وكيف كان بوسعى ـــ وأنا فى مثل تلك السن الصغيرة ـــ أن أجد موردا للعيش بعيدا عن وطنى؟ .. كنت جد بعيد عن أن أتقن حرفتى وأنا لم أكد أتم نصـــف فترة التعلم والمران .. حتى لو أننى كنت أتقنها ، فقد كنت خليقا بأن أعجز عن كسب قوتى منها فى إقليم (سافوى) ، لأن الإقليم كان أفقر من أن يجد ما ينفقه على الفنون .. على أن الطفيلى الذى كان يلتهم الأكل ـ نيابة عن السيدة وعنى ـ وجد نفسه مضطرا إلى التوقف كى يريح فكيه ، فانتهز الفرصـــة وقدم اقتراحا قال إنه مستلهم من السماء ، وإن كان خليقـــا ـــ إذا حكمنا عليه بنتائجه ـــ بأن يكون مستلهما من مكان آخر مضاد للسماء . وكان الاقتراح يوحى بأن أذهب إلى (تورين) حيث أجد عونـــا روحيا وبدنيا فى دار للضيافة أقيمت للوعظ والتعليم الدينى ، إلى أن يتـــاح لى أن انضـــوى تحت لواء الكنيسة ، فاستطيع أن أحصـــل على عمل بفضل أريحيـــة المحسنين . واستطرد صاحبى قائلا : « أما نفقات رحلته ، فان سيادة الاسقف سيتكرم بلا شك بتوفيرها ، إذا اقترحت السيدة هذا العمل الخيرى عليه. ولا مراء كذلك فى أن السيدة « البارونة » وتابع قوله وهو ينحنى على طبقه : « وهى جد محسنة ، ستتوق هى الأخرى إلى المساهمة » . ووجدت فكرة الاحسان بهذا الشكل جد بغيضة ، فأثقل الألم قلبى ولم أنبس ببنت شفة . أما مدام دى فاران ، فقد اكتفت بأن قالت ـــ دون أن تتحمس فى قبول الاقتراح ـــ إن كل إنسان جدير بأن يصنع الخير بقدر ما فى وسعه ، وأنها على استعداد لأن تتحدث إلى الأسقف بهذا الصدد . ولكن صاحبنا اللعين ، الذى لم يكن له

فى الأمر شأن يذكر ، والذى كان يخشى ألا تتحدث السيدة إلى الأسقف بالطريقة التى كان يرجوها ، سارع إلى دعوة المحسنين ، وبذل جهده فى إقناع القساوسة ببراعة .. فلما رغبت مدام دى فاران ـ التى كانت تخشى على من الرحلة ـ فى الحديث إلى الأسقف عنها ، وجدت أن كل شىء قد دبر . واسلمها الرجل لفوره النقود التى خصصت لنفقات رحلتى المتواضعة ، فلم تجسر على الالحاح فى بقائى ، إذ كنت اقترب من السن التى لا يليق عندها بامرأة فى عمر السيدة أن تعبر عن رغبتها فى استبقاء شاب معها !

واضطررت ـ بعد إذ دبرت رحلتى بهذا الشكل ـ إلى الانصياع ، بل أننى أقدمت على الرحلة دون إحجام . ومع أن (تورين) كانت أبعد من (جنيف) ـ كما قدرت ـ إلا أنها ، كعاصمة للاقليم ، كانت أوثق اتصالا بانيسى من أية بلدة تابعة لعقيدة مختلفة ، وفى أرض أجنبية . وإلى جانب أننى كنت مقدما على الرحيل إطاعة لمدام دى فاران ، فاننى اعتبرت نفسى باقيا تحت رعايتها ، فكان هذا أهم عندى من أن أقيم على مقربة منها . ثم فكرة الانطلاق فى رحلة طويلة أثارت شغفى بالتجوال والترحال ، وهو شغف كان قد بدأ يعلن عن نفسه ، ويدا لى أن من التجارب البديعة ان أعبر الجبال ـ وأنا فى تلك السن ـ وأن أرفع نفسى عن كل رفاقى بقدر ارتفاع جبال (الألب) ... إن فى مشاهدة مختلف الأقطار لسحرا لا يكاد أى امرىء من أبناء (جنيف) يقوى على مقاومته . ومن ثم فقد قبلت الرحيل . وكان ذلك الطفيلى مزمعا أن يسافر مع زوجته

خلال يومين ، فعهدوا بى إلى رعايته ، كمـــا عهدوا بنقـــودى ـــ التى ضاعفتها مدام دى فاران ـــ إليه . على أنها منحتنى كذلك مبلغا بسيطا لمصروفى الخاص ، وزودتنى بنصحها .. وفى يوم الاربعاء من « أسبوع الآلام » ، بدأنا سفرنا .

* * *

وفى اليوم التالى لرحيلى ، وصل أبى إلى (أنيسى) ـــ متعقبا اثرى ـ مع صديقه السيد ريفال، وهو ساعاتى مثله ، موهوب بل مشحوذ الذكاء ، كان ينظم أشعارا تفوق أشعار «لاموت» ولم يكن يقل ابداعا للكلام عنه بالشعر ، فضـــلا عن أنه كان طيبا فى كل ناحية . بيد أن ميله للأدب ـــ فى غير مجاله ـــ لم يجد عليـــه من الثمار ســـوى دفع أحـــد أبنائه إلى اعتـــلاء المسرح !.. ولقد قابل السيدان ـــ أبى وصاحبه ـــ مدام دى فاران ، واكتفيـــا بأن رثيـــا لحظى ، بدلا من أن يتبعـــانى ويستردانى ، وهو أمر كان من اليسير عليهما أداؤه ، إذ انهما كانا يمتطيان جوادين ، فى حين أننى كنت أسير على قدمى ! ولقد حذا خالى « برنار » حذوهما ، فوصل إلى (كونفينيون) ، ثم ارتد إلى (جنيف) بعد أن سمع أننى كنت فى (انيسى) .. وكأنما كان أهلى متحالفين مع نجمى المنحوس على أن يسلمونى إلى المصير الذى كان يرتقبنى . ولقد ضاع أخى بفضل إهمال شبيه بهـــذا ، وكان ضياعه شـــبه نهائى ، حتى أن أحدا لم يعرف قط ما جرى له !

وما كان أبى رجلا شريفا فحسب ، وإنما كان ذا استقامة مشهود بها ، وقد أوتى نفسا من تلك النفوس القوية القادرة

على جليل الفضائل . وكان فضلا عن ذلك أبا صالحا ؛ لاسيما بالنسبة لى . فقد كان يحبنى ويخصنى بحنان فياض ، ولكنه كان يحب مسراته كذلك ، وقد اكتسب ـــ مذ أصبحت أعيش بعيدا عنه ـــ ميولا أخرى أحالت عاطفته الأبوية فاترة بعض الشيء . وكان قـــد تزوج مرة أخـــرى فى (نيون) ، ومع أن زوجته لم تكن فى سن تمكنها من أن تمنحنى أخوة ، إلا أنهـــا كانت ذات أقـــارب وأهل ، ممـــا خلق لأبى أسرة جـــديدة ، وأهدافا جديدة ، ووسطا جديدا ، فلم يعد يكثر من استعادة ذكراى .. وكان قد اكتهل ، وليس لديه ما يعيش عليـــه ، ولكنى وأخى كنا قد ورثنا عن أمنـــا ثروة بســـيطة ، كان من حق أبى أن يحصل على ريعها فى غيابنا . ولم تواته هـــذه الفكرة مباشرة ، ولا هى حالت بينه وبين أداء واجبه ، ولكنها كانت تتغلغل خفية فى نفسه ، دون أن يفطن إليهـــا ! وقـــد خففت ـــ فى بعض الأحيان ـــ من تحمسه الذى كان خليقا بأن يدفعه إلى الانطلاق فى تعقب أثرى ، كمـــا حدث عقب رحيلى عن (انيسى) . وهذا ـــ فيما اعتقد ـــ هو السر فى أنه ، وإن كان قد سعى إلى (انيسى) للبحث عنى فى الواقع ، فانه لم يتبعنى إلى (شامبيرى) ، حيث كان حريا بأن يعثر على ولابد . وكان هـــذا هو السر كذلك فى أنه كان يستقبلنى عندما أزوره ـــ كما صرت أفعل كثيرا بعد فرارى ـــ بعناقات الأب وقبلاته ، ولكن .. دون أن يبذل أى جهد صادق لاستبقائى معه !

على أن هذا التصرف من جانب أبى ـــ الذى كنت أعـــرف حنانه واستقامته تمام المعرفة ـــ قادنى إلى تأملات فى حالى ،

ساهمت بدرجة غير طفيفة فى استبقاء قلبى سليما . فمنهـا استنتجت الدرس الاخلاقى العظيم ، الذى قد يكون الدرس الأوحد ذا القيمة العملية : تفادى تلك المواقف التى تعترض الحياة ، والتى تدفع واجباتنا إلى التضـارب مع مصالحنا ، والتى تبصرنا بما قد يكون لنا من نفع فى مصـائب الغير . . فمن المؤكد ــ فى مثل هــذه المواقف ــ أنه مهما يكن حبنـا الفضيلة صادقا ، فلابد من أنه سيأخذ فى الضعف ، دون أن ننتبه إلى ذلك ــ إن عاجلا أو آجلا ــ حتى يصبح ظالمـا ، شديداً فى تصرفاته ، وإن لم يكف عن أن يظل منصفا طيبا فى أعماق قلوبنا !

هــذا المبدأ الذى انطبع فى قرارة فؤادى ، والذى هدانى ــ وإن جاءت هدايته متأخرة ــ فى كل مسلكى فى الواقع ، هو أحــد المبــادىء التى جعلتنى أبدو مخلوقا شديد الغــرابة والحماقة فى نظر العالم ، وفى نظر معارفى قبل سواهم ! ولقد عيب على أننى أحاول أن اظهر فذا ، مغايرا لكل من عداي ، والحقيقة هى أننى لم اجشم نفسى قط عنــاء التصرف على شاكلة غيرى من الناس ، أو على نقيضهم ، وإنما كنت أتوق مخلصا إلى أن أفعل ما كنت أراه صـــوابا . فكنت ابتعد ــ بقدر ما فى وسعى ــ عن المواقف التى تجعل مصالحى متعارضة مع مصالح الغير ، والتى قد توحى إلى ــ من جــراء ذلك ــ برغبة خفية فى إيذاء الغير ، ولو دون إرادة منى ! . . ولقــد أراد سيدى اللورد مارشـــال أن يثبت اســـمى فى وصيته ــ منذ عامين ــ فعارضت ذلك بشدة ، وقلت له إننى لا أبغض

شيئا فى الدنيا ، قدر أن أعلم أن اسمى مثبت فى وصية أحد ، وفى وصيته هو بالذات . ولقد نزل أخيرا عن رغبته ؛ ولكنه أصر على أن يمنحنى معاشا مدى الحياة ، فلم أعارض . ولسوف يقال إننى كسبت بهذا التعديل ، وهو قول قد يكون صحيحا ، ولكن .. أواه أيها الأب وأيها المحسن !.. إننى لأوقن بأنه إذا قدر لى — لتعاستى — أن أعيش بعدك ، فاننى سأفقد بفقدانك كل شىء ، ولن أكسب شيئا !

هذه — فى رأيى — هى الفلسفة الحقة ، بل الفلسفة الوحيدة التى تناسب القلب البشرى فى الواقع . وإنى لأزداد فى كل يوم تأثرا بمتانتها وثباتها ، حتى أننى عرضتها — تحت أضواء متعددة — فى كتاباتى الحديثة ، ولكن الجمهور سطحى الإدراك ، لا يعنى إلا بالقشور ، فلم يدر كيف يستوعبها . ولو قدر لى أن أعيش ، بعد أن أفرغ من مهمتى الحاضرة ، حتى اضطلع بمهمة جديدة ، فاننى أعتزم أن أقدم — على غرار ما فعلت فى «اميل»(١) — مثالا جذابا رائعا لهذه الفلسفة ، يضطر القارىء إلى أن يعنى به . ولكن .. لنكتف بهذا القدر من تأملات المسافر ، فقد آن لنا أن نواصل الرحلة !

* * *

وجدت الرحلة أبدع مما توقعت ، ولم يكن مرافقى الطفيلى من السماجة بالقدر الذى كان يلوح عليه : كان رجلا

---

(١) يقصد بهذه الاشارة ما أورده فى الخطاب العشرين ، بالجزء الثالث من قصته الطويلة « هيلويز الجديدة » .

فى أواسط العمر ، له شعر أسود بدأ الشيب يدب فى حوافه ، وقد بدأ كجندى من قاذفى القنابل ، وأوتى صوتا جهوريا .. وكان عارم البشاشة ، يغـذ فى سـيره ، ويسرف فى أكله ، ويمارس كافة أنواع الحرف ، دون أن يجيد شـيئا منهـا . وأعتقد أنه كان يزمع إنشاء مصنع ما فى (انيسى) ، ولم تتخل مدام دى فاران عن تحبيذ فكرته ، وكان لابد له ـ كي يقدم على المحاولة ـ من الحصول على موافقة الوزير ، ولهذا كان فى طريقه إلى (تورين) ، مزودا بالمـال . وكان صديقنا هـذا ذا براعة فى الدس والتآمر ، حريصا دائما على أن يتقرب إلى رجال الدين ، وبينما كان يبدى تلهفا عظيما على اداء الخدمات لهم ، استطاع أن يقتبس عن مدرستهم أسلوبا وذلاقة ورعتين كان لا يفتأ يستغلهما مباهيا بأنه واعظ كبير .. بل إنه استطاع أن يحفظ آية من التوراة باللاتينية ، كان لا يكف عن ترديدها ألف مرة فى اليوم ، فيبدو وكأنه يعرف ألفـا منها !.. ونادرا ما كان يعوزه المال إذا ما عرف أن لدى سواه نقودا .. كان بارعا أكثر منه أفاقا ، وكان عندما يردد « كابوشينياته »(١) بلهجة ضـابط تدريب المجنـدين ، يشبه الراهب بطرس(٢) عندما كان يدعو إلى الحرب الصليبية ، ملقيا خطبة الدينيـة وهو ممسك بسيف !.. أما زوجتـه ـ السيدة سابران ـ

---

(١) خطب وعظات دينية غثة ، كتلك التى كان يلقيها الرهبان «الكابوشان».

(٢) يعتبر بطرس الراهب أهم محرض على شن الحملة الصليبية الأولى، وكان يطوف بقرى أوربا على ظهر بغلة ، ويخطب فى النـاس ممسكا سيفا ، ويتخذ من الغيرة الدينية وسيلة لتحريك الأحقاد .

فكانت امرأة طيبة ، أهدأ بالنهار منها بالليل . ولما كنت أنــام في حجرتهما ، فإن نومها الصاخب كثيرا ما كان يوقظني ، وكان خليقا بأن يستبقيني ساهرا لو أنني علمت سببه . ولكني لم أشعر بأتفه ريب ، وقد أدى غبائي في هذه الناحية إلى وقوع عبء تعليمي على الطبيعة وحدها !

ومضيت في رحلتي مع مرافقي التقي وزميلتــه الصاخبة ، دون أن تعكر صفو سفري أية بادرة . كنت أســعد ، بدنيا وذهنيا ، ممــا كنت طيــلة عمري . كنت فتى قويا ، موفور الصحة ، خلوا من الهم ، مفعما بالثقة في نفسي وفي الغير . كنت استمتع بتلك الفترة الغالية ــ برغم قصرها ــ من الحياة .. اللحظة التي تنبسط فيها الحيــاة على سعتها ، فتضخم من شعورنا بكل حواسنا وأحاسيســنا ، وتجعل الطبيعــة في أبصارنا ، إذ تبديها تحت سحر وجودنا !.. وكان قلقي البهيج يخضع لهدف يقيــد من حدته ، ويسكن من خيــالي . كنت انظر إلى نفسي كصنيعة وتلميــذ وصــديق ، بل وحبيب ــ تقريبا ــ لمدام دي فاران . كانت الأمور المؤدبة التي حدثتني بها ، واللطف البسيط الذي خصتني به ، والاهتمام الحنون الذي لاح أنها أولتنيه ، ، ونظراتها الودية التي بدت لي وكأنها مليئة بالحب ــ إذ انها كانت تلهمني هذا الشعور ! ــ كل هذه الأمور شغلت أفكاري خلال الرحلة ، وأغرقتني في أحلام لذيذة لم يكن يعكرها أي خوف أو شك بشأن مستقبلي . فقد رأيت أنهم ــ إذ أوفدوني إلى تورين قد تكفلوا بأن يعولوني هناك ، وأن يحصلوا لي على مركز مناسب . لذلك شعرت بأنني في

غير حاجة إلى أن أحمل هم نفسى بعد ذلك ، فقد حمله عنى سواى . ومن ثم مضيت فى سغرى بخطى خفيفة بعد أن تخلصت من هذا العبء . كان كل شىء يلوح لى وكأنه يعزز سعادتى المبكرة . وكنت بين الجدران أصور لنفسى المآدب والحفاوات الريفية .. وفى المروج أصور لنفسى الألعاب الخشنة .. وعلى ضفاف الأنهار : السباحة والنزهات وصيد السمك .. وفوق الشجر : الفواكه الشهية .. وتحت ظلالها : الخلوات العاشقة .. وعلى الجبال : دلاء مترعة باللبن والقشدة ، وخمول حبيب وسكينة وبساطة ، ومتعة الانطلاق دون ما غاية !.. وقصارى القول أنه لم يكن ثمة ما يصادف بصرى دون أن يبعث فى فؤادى شيئا من الافتتان الممتع !.. كانت فخامة المناظر المحيطة بى ، وتنوعها ، وجمالها الحقيقى ، تجعل تلك الفتنة أهلا للتدبر والتأمل . بل إن الغرور كان يطالب لنفسه بنصيب فى ذلك ، فقد لاح لى شرفا يفوق ما يؤهلنى له عمرى أن أزور إيطاليا ـ وأنا لا أزال صغيرا ـ وأن أرى مثل هذا القدر من الدنيا ، وأن أقفو أثر « هانيبال » عبر الجبال !.. وكنا ـ إلى جانب ذلك ـ كثيرا ما نقف بالفنادق الريفية الجيدة . وكانت شهيتى متفتحة للأكل ، كما كان إرضاؤها متوفرا بكثرة .. والواقع أننى لم أجد داعيا لأن أحرم نفسى شيئا ، لاسيما وأن وجباتى لم تكن بالشىء الذى يذكر إذا قورنت بوجبات السيد سابران !

ولست أذكر خلال حياتى كلها وقتا حظيت فيه بتحرر تام من الهم والقلق كما تحررت فى الأيام السبعة أو الثمانية التى

استغرقتهـــا رحلتنـــا ! فان مقدرة الســـيدة سابران على السير ـــ وهى المعدل الذى كنا مضطرين إلى أن ننظم خطانا وفقا له ـــ جعلت الرحلة تجاوز نزهة طويلة على الأقدام ! ولقد خلفت لى ذكرى هذه المناسبة ميـــلا شديدا إلى كل شىء كان مرتبطا بها لا سيما الجبال والسير على الأقدام • فما سبق لى ، فى الأيام السالفة من عمرى ، أن سافرت على قدمى • • فضلا عن أن سفرى هذا كان مقترنا بأعظم المسرات ، ذلك لأن الواجبات والأعمال وكثرة الأمتعة ، اضطرتنى فيما بعد إلى أن أتخذ دور السيد الراقى ، وأن استقل عربة فى أسفارى • كما أن الهموم والارتباكات والشواغل المضنة لم تلبث أن تسربت إلى ، فغدا كل همى فى رحلاتى متجها إلى بلوغ غايتى ، بعد أن كنت لا أكترث بشىء سوى الاستمتاع بالسفر ! • • ولقد قضيت وقتا طويلا أحاول أن أعثر على رفيقين أوتيا مثل ميولى بحيث يقبلان أن ينفقـــا خمسين « لوى »(١) من مالهمـــا ، وعاما من وقتهما ، فى الترحال معى على الاقدام ، لنجوس خلال إيطاليا ، دون أن نصحب معنا سوى غلام واحد يحمل حقائبنا • ولقد بدا على الكثيرين الافتتان بالفكرة ، ولكنهم لم يكونوا يرونها ـــ فى الواقع ـــ أكثر من وهم يطيب الحديث عنه ، دون أى تفكير فى تنفيذه ! وإنى لأذكر أن « ديديرو » و « جريم » ـــ اللذين ناقشت معهما الفكرة بحماس ذات مرة ـــ قد تحمسا لهـــا فى النهاية ، فخيل إلى أن الأمر قد استقر ، ولكنه انتهى إلى أن قمنا برحلة على الورق ، لم يجـــد فيها « جريم » من السرور

---

(١) « اللوى » عملة فرنسية قديمة كانت تساوى عشرين فرنكا •

أكثر من أن يجعل « ديديرو » يرتكب عددا من الأخطاء الإلحادية ، ثم يسلمنى إلى التحقيق بدلا منه ! (١) .

* * *

لم يخفف من أسفى لسرعة الوصول إلى (تورين) سوى سرورى برؤية مدينة كبيرة ، والأمل فى أن يقدر لى أن أقوم بدور يليق بشخصى ، إذ كانت أبخرة الطموح قد بدأت تتصاعد فى مخى ، وأصبحت أرى اننى قد سموت ـ إلى ما لا نهاية ـ فوق حالى السابقة أيام كنت أتتلمذ للحرفة .. وكنت أبعد من أن أظن ـ مجرد ظن ـ أنه قد كتب لى أن أهوى ، فى أمد وجيز ، إلى ما دون تلك الحال !.. على أن من واجبى أن أسأل القارىء الصفح ، أو أن أبرر له ـ قبل أن أمضى فى قصتى ـ تلك التفصيلات التافهة التى خضتها ، أو التى سأخوضها فى سياق القصة ، والتى قد تبدو فى نظره عديمة القيمة .. فان المهمة التى آليتها على نفسى ـ إذ وعدت بأن اكشف نفسى للملأ على حقيقتها ، دون ما تحفظ ـ تتطلب عدم إبقاء شىء يتعلق بى فى طى الإبهام أو الخفاء ، وأن أدع نفسى تحت أبصار الملأ باستمرار ، حتى يصحبونى فى كل هفوات قلبى ، وفى كل الأركان الخفية فى حياتى ، فلا أغيب عن أعينهم لحظة واحدة ، خشية أن يتساءلوا لو أنهم عثروا فى روايتى على أضأل ثغرة ، أو أتفه فراغ : « ما الذى كان يفعله خلال

(١) يقصد روسو أن الرحلة لم تخرج عن نطاق الورق والقلم والانطلاق فى الخيال ، بحيث غدت قصة وهمية .

ذلك ؟ » . . فلا يلبثون أن يتهموني بأنني غير راغب في أن افضي بكل شيء . وأن ما أكتبه ليعرضني لغضب الجنس البشري بما فيه الكفاية ، دون ما حاجة لأن أعرض نفسي ــ بصمتي ــ لمزيد !

وكان مصروفي الخاص الضئيل قد نفد ، إذ كنت في ثرثرتي قد تحدثت عنـــه ، فلم يتوان مرشداي عن استغلال عـــدم حرصي ، واستطاعت مدام سابران أن تحصل مني على كل ما كان معي . . حتى على قطعـــة صغيرة من شريط مكســـو بالفضة كانت مدام دي فاران قد منحتنيها لأزين بهـــا سيفي الصغير . وكانت حسرتي عليها أشد منها على أي شيء آخر . بل إن السيف ذاته كان خليقـــا بأن يبقى في حوزتهما لو أنني تهاونت في مقاومتي . ولقد تكفلا بنفقاتي ــ في أثناء الرحلة ــ بأمانة ، ولكنهما لم يدعا لي في الوقت ذاته شيئا . . فبلغت (تورين) بلا ثياب ولا مال ولا متاع ، وغدوت مضطرا إلى أن أدع لمواهبي وحدها شرف الحظ الذي كنت أرجو أن أحظى به !

وكنت مزودا ببعض خطابات قدمتها ، فسرعان ما اقتدت إلى نزل الوعاظ ، حيث بدأت أتعلم الدين الذي كان علي أن أكسب به عيشي ! . . ورأيت عند وصولي بابا ضخما ذا قضبان حديدية ، أغلق خلفي ــ وأحكم رتاجه ــ بمجرد أن اجتزته . وبدت لي هذه المقدمة منفرة أكثر منهـــا مقبولة . وكانت قد بدأت تغذيني بالخواطر عندما اقتدت إلى غرفة رحبة الجوانب، كان كل أثاثها عبارة عن هيكل خشبي يعلوه صليب كبير ــ في نهاية الحجرة ــ وقد قامت أمامه أربعة أو خمسة مقاعد صنعت

هى الأخرى من الخشب ، ولاحت كأنها مصقولة خصيصا ، فى حين أنها إنما كانت تلمع من كثرة الاستعمال والمسح والاحتكاك . وفى هذه الحجرة المخصصة للاجتماعات ، كان ثمة أربعة أو خمسة من الأشرار الرهيبين .. أولئك كانوا رفاقا من الطلبة الذين لاحوا لى وكأنهم من الزبانية وليسوا من الطامعين فى شرف أن يصبحوا أبناء للرب . وكان اثنان من هؤلاء الأوغاد من « السلافيين » الذين يزعمون أنهم من اليهود أو المراكشيين ، وقد اعترفا لى بأنهما قضيا عمريهما فى التجوال فى ربوع أسبانيا وإيطاليا ، وأنهما كانا يعتنقان المسيحية من آن لآخر ويتقدمان كى يعمدا أينما كان يحلو لهما أن يقضيا بعض الوقت !

وما لبث أن فتح باب حديدى آخر ، فشطر شرفة رحبة تمتد بطول الفناء . وأقبلت خلال هذا الباب أخواتنا . كن من التلميذات اللائى قدر لهن ــ كما قدر لى ــ أن يولدن من جديد ، لا عن طريق التعميد ، وإنما عن طريق نبذ عقيدتهن السابقة . وكن حقا أعظم أفاقات وأبشع متشردات تلطخن زمرة رعايا الرب . على أن واحدة منهن فقط لاحت لى جميلة وجذابة ، وكانت فى حوالى عمرى ، أو ربما كانت تكبرنى بعامين أو ثلاثة . وقد أوتيت عينين جريئتين أخذتا تلتقيان بعينى أحيانا ، فألهمنى هذا برغبة فى التعرف بها ، ولكنى وجدت خلال الشهرين اللذين قضيتهما فى النزل بعد وصولى ــ وكانت قد مكثت ثلاثة أشهر قبلهما ــ أن من المستحيل إطلاقا أن أتحدث إليها . فقد كانت حارسة سجننا العجوز

مأمورة بأن تشتد فى رعايتها ، كما كانت تحت رقابة دقيقة من المبشر الدينى الذى كان يبذل مزيدا من الحماس والجهد لتحويلها عن عقيدتها . ولابد أنها كانت مفرطة الغباء ، وإن لم تكن تبدو كذلك ، إذ أن تلقين العقيدة لم يكن يستغرق قط مثل هذا الوقت الطويل ، فقد كان رجل الدين يجدها دواما غير متأهبة لإعلان خروجها عن عقيدتها السابقة . على أنها مالبثت أن ملت عزلتها عن العالم ، فأعلنت عن رغبتها فى ترك النزل ، سواء صارت مسيحية أو لم تصر . واضطروا إلى أن يكتفوا باعلان انضوائها للكثلكة ــ دون أن تعى تعاليمها ــ خشية أن يتولاها العناد فترفض !

وعقدت الجماعة الصغيرة اجتماعا لتكريم الداخلة الجديدة فى حظيرة الدين . وألقى علينا خطاب قصير ، وجه إلى فيه الحض على أن استجيب لفضل الله الذى أتيح لى ، بينما دعى الآخرون إلى أن يصلوا من أجلى ، وأن يشجعونى بأن يكونوا قدوة لى . وعادت عذارانا ــ بعد ذلك ــ إلى معزلهن ، وانفسح أمامى الوقت كى أفكر مذهولا فى موقفى على ضوء هوى قلبى . ثم اجتمعنا فى الصباح التالى مرة أخرى لنتلقى الدرس ، وإذ ذاك بدأت ــ للمرة الأولى ــ أفكر جديا فى الخطوة التى كنت مزمعا اتخاذها ، وفى الظروف التى قادتنى إلى ذلك !

ولقد قلت ــ ولا أزال أقول ، ولعلنى سأظل أردد وأنا أزداد كل يوم اقتناعا ــ بأنه إذا كان ثمة طفل قد تلقى تربية معقولة سليمة ، فهذا الطفل هو أنا ! فقد كنت أنتمى إلى أسرة امتازت

باخلاقها عن عامة الناس ، فما تعلمت من أقاربى سوى دروس الحكمة ، وكنت دائما أرى أمام عينى أمثلة مشرفة . فلقد كان أبى ـ برغم ولعه باللهو ـ رجلا شديد الاستقامة ، ليس هذا فحسب ، بل أنه كان أيضا على قدر كبير من الشعور الدينى . كان رجلا ذا شهامة فى شئون الدنيـــا ، ومسيحيا فى قرارة فؤاده ، وقد بث فى قلبى منذ الصـــغر ما كان يخالجـــه من أحاسيس . وكذلك أفدت من عماتى الثلاث ، اللائى كن جميعا عاقلات فاضلات ، فقـــد كانت الكبريـــان منهن تقيتين ، أما الصغرى ـ وكانت فتاة فياضة الحسن والذكاء والذوق ـ فلعلها كانت أكثر منهما تقوى ، وإن لم تكن تبـــدى تقواها إلا لماما . ومن حضانة هذه الأسرة ، انتقلت إلى السيد لامبرسييه الذى كان واعظا ومن رجال الدين ، ومع ذلك فانه كان مؤمنا فى قرارة قلبه ويكاد يمارس دائمـــا كل ما يعظ به ! ولقد عمل وأخته ـ بالرفق والتعليم الحكيم المتئد ـ على تنمية ما وجدا فى فؤادى من مبادىء التقوى . ولقد استخدم هذان الشخصان الكريمان فى سبيل غايتهما هـــذه وسائل صادقة ، حكيمة ، معقولة ، دون أن يملا الوعظ والتعليم . وكنت دائما أتأثر بهذا الجهد منهما ، وأتخذ قرارات طيبـــة ، نادرا ما كنت أغفـــل تنفيذها عندما أذكرها . أما فى حالة عمتى برنار ، فان تقواها كانت منفرة لى بعض الشىء ، لأنها كانت تتخذ منها حرفـــة وصنعة. على أننى نادرا ما فكرت فيها أثناء مدة تدريبى الحرفى دون أن أغير هذا الرأى .. كذلك لم أتصل قط بأى شخص فى باكورة العمر يمكن أن يفســـدنى ، ومع أننى غدوت شريدا ، إلا أننى لم أكن قط منحلا !

وكنت ، من جراء هذا ، أعرف من الدين كل ما يمكن لطفل فى سنى أن يعرفه . بل إننى كنت أعرف أكثر من ذلك ـ إذ لا جدوى من أن أكتم خواطرى ! ـ فان طفولتى لم تكن شبيهة بطفولتى أندادى ، بل إننى كنت دائما أشعر وأفكر كما يشعر الرجل ويفكر ! وما دخلت زمرة الأفراد العاديين الطبيعيين إلا عندما كبرت ، ولكنى لم أكن فى طفولتى عاديا ! ولسوف يضحك القارىء إذ يجدنى أصف نفسى ـ متواضعا ـ كشخص ممتاز . فليكن ! ولكن ليتصور ـ إذا ما فرغ من الضحك ـ طفلا فى السادسة من عمره بلغ به الافتتان بالقصص الخيالية والاستساغة لها والتأثر بها ، درجة تجعله يذرف الدمع سخينا عليها !.. إذا استطاع القارىء أن يتصور هذا ، فسأشعر بأن غرورى كان سخفا ، وسأعترف بأننى مخطىء ! وإذا كنت أقول إننا جديرون بألا نحدث الأطفال عن الدين ـ إذا شئنا لهم أن يعتنقوا أى دين ـ بل إذا كنت أذهب إلى القول بأنهم غير قادرين على معرفة الله ، ولو وفقا لآرائنا فيه ، فانما أنا قد خرجت بهذا الاعتقاد من مشاهدتى ، وليس من خبرتى الخاصة ، إذ أننى أدرك أن ليس بين النتائج التى تستمد من خبرتى ما يصلح لغيرى من الأطفال . وإلا فاصنعوا منهم جان جاك روسو كذلك الذى كنته فى السادسة من عمرى ، وتحدثوا إليهم عن الله إذا ما بلغوا السابعة ، وإذ ذاك اطمئنكم إلى أنكم لن تتعرضوا لأية مجازفة !

وأعتقد أن من المسلم به أن التدين لدى الطفل ـ بل ولدى الرجل ـ يعنى اتباع الدين الذى ولد عليه . ولكن هذا الإيمان

قد يتضاءل أحيانا ؛ ونادرا ما يقوى .. فالإيمان الأعمى من ثمار التربية . وإلى جانب هذا المبدأ العام الذى ربطنى بعقيدة آبائى الدينية ؛ فإننى أوتيت ذلك النفور الذى امتازت به قريتنا إزاء الكاثوليكية ، والذى كان يصورها على أنها وثنية رهيبة ؛ ويلطخ قساوستها بأشد الألوان قتامة ! ولقد بلغ من شدة هذا الشعور فى نفسى ، أننى ــ فى البداية ــ لم أشهد قط جوف أية كنيسة ، ولا قابلت قسا فى زى الكهنوت ، ولا أنصت اطلاقا إلى جرس جنائزى ، إلا وسرت فى جسدى قشعريرة خوف وفزع ، لم تلبث أن زايلتنى فى المدن ، ولكنها كانت كثيرا ما تعاودنى فى أبرشيات(١) الريف ، لأنها أكثر شبها بتلك التى واتانى فيها هذا الشعور فى البداية . ومن الصحيح أن هذا الأثر يتناقض ــ بشكل بارز ــ مع ذكريات العطف الذى كان قساوسة ضواحى جنيف مولعين باسباغه على أطفال المدينة. وبينما كان الجرس الذى يعلن الراحة الكبرى ــ الموت ــ يفزعنى ، كان جرس القداس وصلوات الغروب تذكرنى بالفطور ، واللقاء حول المائدة ، والزبد الطازجة ، والفاكهة ؛ والغذاء المخلوط باللبن !.. ولا يزال عشاء السيد بونفير الشهى يحدث فى نفسى أثرا عظيما !

***

على أننى أقصيت كل تلك الخواطر من ذهنى ، وأقبلت ــ وأنا أنظر إلى البابوية من ناحية علاقتها بالتسلية وطيب

(١) الدوائر التابعة للكنائس الريفية .

الحياة فقط ــ على ترويض نفسى على فكرة العيش فى غمرة الكثلكة ، بيد أن فكرة الانضواء نهائيا تحت لواء كنيسة روما كرجل من رجال الدين لم تخطر ببالى إلا لحظة ، وكاحتمال للمستقبل البعيد . أما فى الفترة التى أنا بصددها ، فلم يعد بوسعى أن أغرر بنفسى ، بل تبينت فى جزع نوع القبول الذى قطعته على نفسى ، وما يترتب عليه من نتائج لا محيد عنها .

ولم يكن لرهبان المستقبل المبتدئين ، الذين كانوا حولى ، حساب فى تعزيز شجاعتى ، ولا كان فى طوقى أن أخفى عن نفسى أن العمل المقدس الذى اعتزمت الاضطلاع به كان فى الحقيقة نوعا من السرقة ! ذلك لأننى شعرت ، برغم صغر سنى إذ ذاك ، بأنه أيا كان الدين الحق بين العقائد ، فاننى كنت مقدما على بيع عقيدتى .. وأننى وإن كنت قد اخترت عقيدة طيبة ، إلا أننى كنت ــ فى قرارة فؤادى ــ أكذب على الروح القدس وأستحق ازدراء البشر !.. ولقد كنت أزداد سخطا على نفسى كلما ازددت تفكيرا فى ذلك ، وكنت أزفر حسرة على المصير الذى ساقنى إلى هذه الطريق ، وكأنما لم يكن المصير من صنعى أنا ! وكانت تمر بى لحظات تشتد فيها هذه الخواطر ، إلى الدرجة التى كانت خليقة بأن تجعلنى أفر بكل تأكيد ، لو أننى كنت قد ألفيت الباب مفتوحا لحظة ! ولكن هذا كان مستحيلا ، كما أن عزمى لم يكن بالقوة الكافية . فكم من رغبات خفية صارعتها لئلا تتغلب على .. ثم أن تصميمى الثابت على عدم العودة إلى جنيف ، والاستحياء ، وصعوبة اجتياز الجبال ثانية ، والحيرة التى انتابتنى إذ وجدت نفسى

نائيا عن بلدي ، بلا أصدقاء ولا موارد .. كل هـذه المشاعر اجتمعت على أن تجعلني أرى فى وخزات ضميرى ندما جـد متأخر . لقد كنت أتعمد أن ألوم نفسى على ما فعلت ، لكى أجد العذر فى إتيـان ما أوشـك أن أفعله ! وبينمـا كنت أضخم أخطاء المـاضى ، رحت أعتبر أخطاء المستقبل نتائج محتومة لها .. فبدلا من أن أقول لنفسى « إنك لم تأت الفعـل بعد ، وفى وسعك أن تظل بريئا ، إذا شئت » ، رحت أقول : « اندم على الجرم الذى أدانتك نفسك به ، وفرضت على نفسـك ضرورة تنفيذه » ! .

أية قوة ذهنية خارقة كان لابد منها ، فى مثل سنى تلك ، لأذكر كل شيء وعدت به أو رجوته إذ ذاك ، من أجل تحطيم الأغلال التى فرضتها على نفسى، ولكى أعلن فى جراة أننى كنت راغبا ، مهما يبلغ ما أتكبده ، فى أن أظل معتنقا دين آبائى !.. مثل هذه القوة لم تكن طبيعية ميسورة لامرىء فى سنى ، وما كان من المحتمل تماما أن تنجح ، إذ أن الأمور كانت قد تطورت إلى مدى لم يعـد معـه إخفاق هـذه القوة أمرا يدعو إلى الخجل .. وكانت تزداد تطورا كلما ازددت مقاومة ، حتى عز على أن أقرها !

وكانت السفسطة التى قضت على هى تلك المنطق الفلسفى المألوف لكثيرين ممن يشكون الحاجة إلى القوة بعد أن يكون أوان الانتفاع بهذه القوة قد فات . فالفضائل لا تغدو عسيرة المنال إلا بفضل أخطائنا ، ولو أننا استطعنا أن نتمسك دائما بالحكمة والروية ، لندرت حاجتنا إلى الجرى وراء الفضائل .

ولكن الميول المنحرفة التى يسهل قهرها تتعجل انحدارنا لأننا لا نقاومها . ونحن ننساق لغوايات طفيفة ، ازدراء منا لخطرها ؛ كما أننا نقع ـ دون أن نفطن ـ فى مآزق خطيرة كان من اليسير علينا أن نتوقاها ، ولكنا ـ متى وقعنا فيها ـ لا نستطيع أن ننتزع أنفسنا منها دون جهد مستبسل يضنينا .. وفى النهاية نهوى إلى الدرك الأسفل ، ونحن نلوم الله ، ويسأله كل منا فى عتاب : « لماذا خلقتنى ضعيفا بهذا الشكل ؟ » .. ولكنا ـ على الرغم من أنفسنا ـ نسمع ضمائرنا تجيب بلسانه . « إنما خلقتك أضعف من أن تقوى على إنقاذ نفسك من الهوة ، لأننى خلقتك أقوى من أن تسقط فيها » !

والواقع أننى لم أكن قد عقدت العزم تماما على أن أصبح كاثوليكيا ، ولكنى استغللت الفرصة ، وأنا أرى الوقت أمامى متسعا ، لكى أروض نفسى على هذه الفكرة تدريجيا . وكنت أتمنى فى الوقت ذاته أن تحدث ظروف غير منتظرة تنزعنى من هذا المأزق . ولكى أكسب الوقت ، وقررت أن أتخذ خير ما كان فى طوقى من أساليب الدفاع ، ولكن غرورى سرعان ما أعفانى من التفكير فى قرارى هذا ، فما أن تبينت أننى كنت أحيانا أحير أولئك الذين كانوا راغبين فى أن يعلمونى ، حتى وجدت فى هذا ما يكفى لأن أسعى إلى أن أضاعف من حيرتهم حتى أعجزهم جميعا ! بل أننى أخذت أبدى شوقا أهوج إلى تحقيق هذه الغاية ، وبينما كانوا يحاولون التأثير على ، رحت بدورى أحاول التأثير عليهم ! وكنت أوقن حقا بأن الأمر لن

يكبدنى أكثر من أن أوفق إلى اقناعهم ، فاذا هم ينقلبون إلى بروتستانتيين !.. وكان من جراء ذلك ، أنهم لم يجدوا فى من الانسياق لهم قدر ما كانوا يتوقعون ، سواء من حيث معرفتى أو من حيث استعدادى ورغبتى . والبروتستانت ـ عادة ـ أفضل تعليما من الكاثوليك . وهو أمر طبيعى ، لأن عقيدة الأولين تدعو إلى النقاش ، فى حين أن عقيدة الآخرين تتطلب الانصياع . فالكاثوليكى مضطر إلى أن يعتنق الرأى الذى يقدم إليه ، أما البروتستانتى فلا بد من أن يتعلم كيف يقرر بنفسه الرأى الذى يعتنقه !.. وقد كان هذا أمرا معروفا ، ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن يثير فتى فى مثل سنى وموقفى مصاعب لأفراد ذوى خبرة وتجارب . فضلا عن أننى لم أكن قد تلقيت أول « مناولة » (١) ، ولا لقنت التعاليم الخاصة بها . وكان هذا أمرا معروفا كذلك ، ولكن الشىء الذى لم يعرفوه هو أننى تعلمت على يدى السيد لامبرسييه وأخته ، وأننى ـ فضلا عن ذلك ـ كنت أختزن ثروة لا تروق لأولئك السادة ، من المعرفة بتاريخ الكنيسة والإمبراطورية . فقد حفظت هذا التاريخ عن ظهر قلب أثناء مقامى مع أبى . ثم نسيته

---

(١) فريضة « المناولة » أو فريضة « الاشتراك فى العشاء الربانى » هى من أهم الفرائض والاسرار المقدسة التى تركها المسيح لتلاميذه وأتباعه ، لكى يذكروه بها كلما مارسوها . وهى تقوم على تناول خبز مكسور ، رمزا الى جسد المسيح المصلوب ، وعلى تناول جرعة من عصير عنب مختمر ، رمزا لدم المسيح المسفوك على الصليب . وكل الكنائس المسيحية تمارس « المناولة » الى وقتنا الحاضر .

تقريبا بعد ذلك ، ولكنه أخذ يعود إلى ذاكرتى كلمــا اشتد وطيس الجدال !

ورأس الاجتماع الأول ـــ الذى ضمنا جميعا ـــ قس كبير السن ، صغير الجسم ، على شيء من الوقار والمهابة . وكان هذا الاجتماع بالنسبة لزملائى درسا فى الدين ، وليس مجالا للمناقشة . ومن ثم فقــد شــغل القس بتعليمهم لا بمحــو اعتراضاتهم . على أن الوضع تغير فى حالة واحدة : فعندما حان دورى رحت أستوقف القس عند كل نقطة ، ولم أعفه من أية عقبة كان بوسعى أن ألقيهــا فى طريقه ، فأطال هذا من وقت الاجتماع وجعله مملا للحاضرين . وأسهب قسى الشيخ فى الكلام ، وبدا انفعاله يزداد ، وأخــذ يشرد عن موضوعه ، ويخرج من المأزق بادعاء أنه لم يكن يجيد الفرنسية ! فلما كان اليوم التالى ، رؤى أن اعتراضاتى الرعناء قد تؤذى رفاقى ، فوضعت فى حجرة أخرى ، مع قس آخر كان أصــغر سنا من قس الأمس ، وأكثر ذلاقة لسان ـــ أعنى أنه كان يجيد التلاعب بالعبارات ـ وأعظم رضى عن نفسه مما يجوز لأى مدرس !.. على أننى لم أدع نفسى تنصــاع لمســلكه المتسلط ، وما أن اطمــأننت إلى أن بوســعى ـــ برغم كل شيء ـــ أن احتفظ بموقفى ، حتى شرعت أجيبه فى ثقة وطيدة ، وأضغط عليه من كل جانب بغاية جهدى !.. وخيل إليه أن بوسعه أن يحيرنى بذكر القديس أوغسطين ، والقديس جريجورى ، وغيرهما من الآباء الروحيين ، ولكنه لدهشته التى فاقت كل تصور ، وجد أننى أجيد الجدال بشأن الآباء جميعــا بإســهاب لا يقل عن

إسهابه ، لا لأننى كنت قد قرأت عنهم من قبل ـ كما قرأ هو ـ وإنمـــا لأننى كنت أتذكر فقـــرات عديدة من كتـــاب دينى عن مجاهدة النفس ، فما أن كان القس يذكر فقرة منـــه دون أن يتوقف لمناقشتها ، حتى كنت أجيبه بفقرة أخرى من أقوال الأب نفسه الذى نقل عنه ، مما سبب له ارتباكا غير قليل ، فى كثير من الأحيـــان ! ومع ذلك فقد انتهى الأمر إلى فوزه ، وذلك لسببين : أولهما أنه كان الأقوى جانبا . ولما كنت أشعر بأننى تحت رحمته ، فقد حكمت عن صواب ـ برغم صغر سنى ـ بأنه ليس من الصواب أن أحرجه ، إذ أن هذا قد يدفعه إلى التطرف ، سيما بعد أن رأيت بجلاء أن القس الشيخ الضئيل الجسم لم يعد شديد العطف على أو على تعليمى !.. والسبب الثانى هو أن القس الشاب كان متعلما ، فى حين أننى لم أكن متعلما ، الأمر الذى جعله يستخدم فى نقاشه أسلوبا عز على أن اجاريه فيه ، فكان إذا أحس بنفسه محرجا تحت ضـــغط اعتراض غير ظـــاهر ، يرجىء الاجتماع إلى اليوم التالى ، متعللا بأننى كنت أشرد عن الموضوع . وكان فى بعض الأحيان يأبى أن يصدق ما كنت أذكره من أقوال مقتبسة ، زاعما انها مصطنعة زائفة ، ثم يتحدانى أن أرشـــده إلى مواقع هـــذه المقتبسات من الكتب ، وهو مطمئن إلى أنه لن يتعرض لكثير من الحرج ، لأننى برغم علمى المستعار لم أكن ذا خبرة كافيـــة للبحث فى الكتب، ولم أكن من الدراية باللاتينية إلى الدرجة التى تمكننى من البحث عن فقرة فى مجلـــد كبير ، مهما أكن متأكدا من وجودها فيه !.. وكنت من ناحيتى أذهب إلى الشـــك فى

أن القس الشاب كان يعمد إلى عين ما اتهم به قساوستنا من خداع وعدم أمانة . وإلى افتراء الفقرات ليوسع لنفسه مخرجا من مأزق أكون قد أوقعته فيه !

* * *

وبينما كانت هذه المجالات العارضة حول التوافه مستمرة ، والوقت يمضي فى نقاش ، وتمتمة وصلوات ، دون ما عمل ، تعرضت لمغامرة صغيرة مستهجنة، أوشكت تماما أن تسفر عن نتائج سيئة بالنسبة لى ! ذلك أنه ما من نفس خبيثة ، ولا قلب همجى ، إلا ولصاحبهما ميل ما . وقد ساورت أحد الشقيين اللذين كانا يزعمان أنهما مراكشيان عاطفة نحوى ، فكان مشغوفا بمتابعتى ، لا يفتأ يكلمنى بلكنته الغريبة ، ويؤدى لى بعض الخدمات البسيطة ، ويمنحنى فى بعض الأحيان شطرا من غذائه ، بل وكثيرا ما كان يقبلنى فى حرارة كانت تغيظنى ! وعلى الرغم من الجزع الطبيعى الذى كان يتملكنى من وجهه الأسمر المشوه بندبة طويلة ، ومن ملامحه التى كانت تبدو أقرب إلى الشراسة منها إلى اللطف ، فاننى كنت أحتمل قبلاته ، قائلا لنفسى : « لقد تملكت المسكين صداقة طاغية نحوى ، فمن الخطأ أن أصده ! » . .ولكنه أخذ ـ بالتدريج ـ يستبيح لنفسه حرية متزايدة معى ، وكان أحيانا يعرض على اقتراحات غريبة ، جعلتنى أظنه مجنونا .. وأراد فى إحدى الليالى أن يبيت معى ، فرفضت قائلا إن سريرى جد صغير ، وإذا به يلح على أن أصحبه إلى سريره ، ولكنى رفضت من جديد ، إذ كان الوغد جد قذر ، تفوح منه رائحة الطباق الذى كان يمضغه ، بحيث كانت نفسى تغثى منه !

وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى كنا وحيدين فى قاعة الاجتماع ، فشرع يعانقنى ويقبلنى فى حركات عنيفة لم تلبث أن أثارت خوفى . وأخيرا ، شاء أن يستبيح لنفسه أبشع تحرر معى ، وأمسك بيدى محاولا أن يحملنى على أن أستبيح نفس التحرر معه ! فأرسلت صرخة عالية ، وقفزت إلى الخلف مفلتا منه . وبدون أن أبدى غضبا أو حنقا ــ إذ لم تكن لدى أتفه فكرة عما كان يسعى إليه ــ أعربت له عن دهشتى وازدرائى بشكل جعله يتركنى حيث كنت . ولكنى رأيت ــ بينما كان ماضيا فى إتمام الحركات التى كان قد بدأها ــ شيئا أبيض لزجا ينبثق منه مندفعا فى اتجاه المدفأة ، ثم سقط على الأرض، فأثار مظهره معدتى ، واندفعت إلى الشرفة وأنا أشد تأثرا ، وأشد انزعاجا ، وأشد خوفا مما كنت فى أى يوم فى حياتى ، حتى لقد شعرت أننى أوشك أن أقع مريضا !

ولم يكن بوسعى أن أفقه ما أصاب التعس ، بل اعتقدت أنه أصيب بنوبة من الصرع ، أو بنوع من الجنون أقسى من الصرع ! والحق أننى لا أعرف ما هو أبشع لدى أى شخص هادىء الأعصاب ، من رؤية مثل هذا المسلك المشين القذر ، ولا مثل تلك الملامح التى ألهبتها الشهوة البهيمية !.. وما رأيت قط رجلا آخر فى مثل هذه الحال ، ولكن إذا كنا نتعرض لهذا المشهد ونحن مع النساء ، فلابد أن نظراتهن تخضع لسحر خاص ، يحميهن من أن يشمأززن منا !

وهرعت لأنبىء كل امرىء بما جرى لى ، ولكن المشرفة العجوز أمرتنى بأن أعقل لسانى ! على أننى رأيت أن قصتى

قد أثرت عليها بدرجة كبيرة ، وسمعتها تتمتم: « ياله من كلب لعين !.. وحش كاسر ! » .. ولما كنت لم أدرك الحكمة فى أن أمسك لسانى ، فقد مضيت فى إخبار كل شخص بما حدث ، برغم أمرها ، فاذا بأحد المشرفين يفد فى ساعة مبكرة من اليوم التالى فيوجه إلى تقريعا مقذعا ، ويتهمنى بالاساءة إلى شرف دار دينية ، وباثارة ضجة حول حادث تافه !.. ونسج محاضرته بحيث شرح لى اشياء كثيرة كنت أجهلها ، ولكنه لم يكن يصدق أنه كان يعرفنى بها لأول مرة ، إذ أنه كان مقتنعا بأننى ما دافعت عن نفسى إلا لأننى كنت غير راغب ، وليس لأننى لم أكن أفقه ما ابتغاه المراكشى منى !.. ثم أنبأنى ـ برصانة ـ بأن ذلك العمل محرم ، وبأنه جد بعيد عن الأخلاق ، ولكن اشتهاءه ليس إهانة للشخص الذى يكون هدفا له ، ومن ثم لم يكن ثمة داع لأن أغضب من شخص اعتبرنى جديرا بالمحبة ! وأنبأنى بوضوح أنه ـ هو نفسه ـ قد تقبل فى صغره هذا الشرف حين عرض له ، وأنه عندما فوجىء به وهو فى حال لا تمكنه من المقاومة ، لم يجد الأمر مؤلما فى حد ذاته !.. وكان من عدم الحياء بحيث أنه راح يستعمل ألفاظا صريحة ، وأخذ ـ وهو يتصور أن مقاومتى كانت ناشئة عن خوف من الألم ـ يطمئننى إلى أنه ليس ثمة داع للخوف ، وأنه ما كان لى أن أنزعج دون ما مبرر للانزعاج !

ورحت اصغى إلى ذلك التعس فى ذهول ضاعف منه أنه لم يكن يروى أمرا يخصه ، وإنما بدا أنه كان ينصحنى بما فيه الخير لى . كان الموضوع يتراءى له بسيطا إلى الدرجة أنه لم يحاول أن يتستر أو يتكتم ، بل أن حديثنا انساب إلى أذنى طرف

ثالث تمثل فى رجل من رجال الكنيسة ، لاح أنه لم ينزعج هو الآخر من الأمر ! وأثرت على هذه الروح المتساهلة التى أبدت الأمر عاديا ، إلى درجة أننى اقتنعت بأنه ـ ولابد ـ عادة معترف بها فى العالم ، وإن لم تتح لى فرصة الإلمام بها قبل ذلك الحين !.. وكان من جراء ذلك أننى رحت أصغى بدون غضب، ولكن اصغائى لم يخل من الاشمئزاز . ولقد ظلت صورة ما حدث لى ـ وما رأيته بوجه خاص ـ منطبعة فى ذاكرتى إلى درجة أننى لا أزال أشعر بالتقزز كلما تمثلتها !.. وبدون أن افطن ، امتد نفورى من الشىء إلى الشخص الذى كان يبرره ، إذ لم يكن بوسعى أن أتمالك نفسى إلى الدرجة التى تحول بينه وبين مشاهدة الأثر السىء لدرسه فى نفسى . ومن ثم رمانى بنظرة كانت بعيدة عن أى ود ! ومنذ ذلك الوقت لم يدخر وسعا فى أن يجعل إقامتى فى النزل مكروهة . ولقد وفق فى ذلك إلى درجة أننى لم أر سوى وسيلة واحدة للفرار ، فبادرت إلى اتخاذها ، بنفس التحمس الذى كنت أتذرع به حتى ذاك الحين لتفاديها !

ولقد أمدتنى هذه المغامرة بمناعة فى المستقبل ضد محاولات « فرسان السكم » ، فكانت رؤية أولئك المنتمين إلى مذهبهم تذكرنى بمنظر وحركات المراكشى الرهيب ، فتوحى إلى دائما بجزع يعز على إخفاؤه ! ومن ناحية أخرى، يبدو لى أن النساء ظفرن بكسب نسبى من جراء هذه المغامرة ، إذ تراءى لى أننى مدين لهن بالعواطف اللطيفة وبالمجاملة كتعويض لهن عما يلحقه بهن أبناء جنسى من إهانات .. وكانت أبشع مومس

تصبح فى نظرى أهلا للعبادة ، إذا ما تذكرت ذلك الافريقى الزائف !.. أما هو ، فلم أدر ما قيل له ؛ ، ولم يظهر لى أن أحدا ـ فيما عدا السيدة لورينزا ـ بدل من شعوره السابق نحوه ! على أنه لم يعد يلاحقنى أو يتحدث إلى . وبعد ثمانية أيام ، تم تعميده فى جلال عظيم ، وسربل بالبياض من رأسه إلى قدمه ، رمزا لطهر روحه التائبة ! وفى اليوم التالى غادر النزل ، فلم أره البتة منذ ذلك الحين . ثم حان دورى بعد شهر ، فقد كان لابد من هذه المدة لأتيح لمرشدى شرف الفوز بهداية « كافر » صعب المراس ، واضطررت إلى أن اجتاز امتحانا سئلت فيه عن جميع التعاليم ، حتى يتسنى لهم أن يزدهوا باستعراض علمى الجديد !

أما وقد تعلمت أخيرا ـ ما فيه الكفاية ـ وتم إعدادى بالدرجة التى ترضى أساتذتى ، فقد اقتدت فى موكب مهيب إلى كنيسة القديس يوحنا الكبرى ، لأعلن خروجى على عقيدتى أمام الملأ ، ولأتلقى شهادات التعميد ـ وإن كنت لم أعمد فعلا ، إذ كنت معمدا منذ مولدى ـ ولكن مثل هذه الاحتفالات تنفع فى ايهام الناس بأن البروتستانتيين ليسوا من المسيحيين فى شىء !.. وارتديت يومذاك معطفا رمادى اللون ، مزدانا بضفادع بيضاء ، كان يستخدم فى مثل هذه المناسبات. وحف بى رجلان ـ من أمام ومن خلف ـ يحملان وعاءين من من النحاس ، أخذا يضربان عليهما بمفتاحين ، فكان كل امرىء يلقى فى هذين الوعاءين بما يتصدق به ، تبعا لتقواه ولمدى اهتمامه بالمؤمن الجديد . وقصارى القول أن شيئا من مظاهر

عظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يدخر ، وذلك لإسباغ آيات الجلال على الحفلة فى نظر الناس ، وامعانا فى إذلال نفسى . ولم يكن ينقصنى سوى الرداء الأبيض ، الذى كان يليق بى ، والذى لم يسمح به لى كما سمح به للمراكشى ، لأننى لم أحظ بأن أكون يهوديا قبل انضمامى للكنيسة !

على أن هذا لم يكن كل ما فى الاحتفال ، إذ اضطررت بعد ذلك إلى أن اذهب إلى ديوان التحقيق ، لأتلقى قرار توبتى من جريمة الزندقة ، ودخولى إلى حظيرة الكنيسة فى احتفال كان الملك هنرى الرابع ممثلا فيه فى شخص سفيره ! ولم يكن فى مسلك قداسة الأب المحقق ، ولا فى مظهره ، ما يمحو الرعب الخفى الذى تملكنى وأنا ألج الدار . وبعد عدة أسئلة عن عقيدتى ، ومركزى ، وأسرتى ، سألنى فجأة عما إذا كانت أمى ملعونة ؟.. وحملنى الذعر على أن أكبت أول مظاهر الاستنكار ، واكتفيت بأن أجبت بأننى اجرؤ على أن أرجو الا تكون ملعونة ، وأن يكون الله قد أنار بصيرتها فى ساعتها الأخيرة . وصمت الراهب ، ولكنه كشر عن ابتسامة لم يبد لى أنها من أمارات الرضى فى شىء ! وعندما انتهى كل شىء ، وفى اللحظة التى توقعت فيها أن يمدونى بالمال الذى يلائم آمالى ، إذا بهم يشيعوننى إلى خارج الأبواب وفى يدى ما يزيد قليلا على عشرين فرنكا بالعملات الصغيرة .. وهى نتيجة الصدقات التى جمعت لى . وزودت بالنصح بأن أعيش مسيحيا صالحا ، وأن أظل صادق الولاء لشرف العقيدة .. ثم تمنوا لى حظا حسنا ، واغلقوا الباب دونى ، فلم أرهم بعد ذلك !

***

وهكذا تلاشت كل آمالى العظام فى لحظة ، وكانت النتيجة الوحيدة التى خرجت بها من الخطوة التى اتخذتها ، وهى الشعور بأننى كنت مرتدا عن دينى ، وغرا مغفلا ، فى آن واحد ! ومن اليسير تصور أية ثورة مفاجئة أصابت آرائى عندما رأيت نفسى مقذوفا من حالق أحلام الثراء البراقة إلى البؤس المدقع! وبعد أن كنت — فى الصباح — أطيل التفكير فى انتقاء القصر الذى أقيم فيه ، ألفيتنى فى المساء مضطرا إلى أن أنام على قارعة الطريق !.. وقد يخطر بالبال أننى بدأت استسلم لشعور من القنوط ، زاده قسوة ما انتابنى من حسرة رحت معها ألوم نفسى لأن نحسى إنما كان من صنع يدى . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، إذ كنت قد مكثت سجينا — لأول مرة فى حياتى — أكثر من شهرين ، فكان أول ما انتابنى هو شعور بالفرح لاسترداد حريتى . ووجدتنى سيد نفسى وتصرفاتى من جديد — بعد فترة طويلة من الاستعباد — فى مدينة كبيرة ، وافرة الموارد ، غنية بذوى المكانة الذين لا يمكن أن أخفق فى أن أحظى بضيافتهم — حين أصبح معروفا — لما كان لى من خلال طيبة ومواهب . وإلى جانب ذلك ، كان الوقت متسعا أمامى ، وكانت الفرنكات العشرون القابعة فى جيبى تلوح لى كما لو كانت كنزا لا ينضب معينه ! كنت أملك أن أنفقها كما أشاء ، دون أن أقدم عنها حسابا لأحد . وكانت هذه هى المرة الأولى التى أملك فيها مثل هذا المبلغ . ومن ثم فبدلا من أن تثبط عزيمتى ، أو ينساب دمعى ، اكتفيت بأن عدلت آمالى ، دون أن يفقد قلبى الطاهر شيئا من جراء هذا



ومن اليسير تصور أية ثورة مفاجئة أصابت آرائى عندما رأيت نفسى مقذوفا من حالق أحلام الثراء البراقة الى البؤس المدقع !..

التعديل .. فما شعرت قط بمثل ما داخلني إذ ذاك من طمأنينة وثقة ، إذ اعتقدت أن حظى بات أمرا مقررا ، ورأيت أن من البديع حقا ألا يكون لأحد — سواى — فضل فى ذلك !

وكان أول ما فعلته هو أن سعيت لارضاء فضولى إلى الطواف بالمدينة ، ولو لأستمتع بملاذ الحرية !.. فذهبت لمشاهدة فرسان الحرس ، وهناك راقت لى الموسيقى العسكرية إلى درجة بعيدة . وتبعت المواكب ، فانتشيت بالموسيقى الكنيسية التى كان يعزفها القساوسة . وسعيت لمشاهدة قصر الملك ، فاقتربت منه فى رهبة وخشوع ، حتى إذا رأيت غيرى يلجونه ، حذوت حذوهم ، فلم يستوقفنى أحد ! ولعلى كنت مدينا بهذه الخطوة للفافة التى كنت أحملها تحت ابطى — وكيفما يكن الأمر ، فاننى بدأت أقيم وزنا كبيرا لنفسى عندما الفيتنى فى القصر . بل أننى بدأت أتمثل نفسى مقيما فيه بالفعل . وما لبثت فى النهاية أن سئمت الرواح والغدو ، وكنت جائعا ، والجو حارا ، فولجت حانوت لبان ، وابتعت قسطا من جبن « الجيونكا » (١) واللبن الرائب ، وشريحتين من الخبز البييمونتى البديع الذى أفضله على ما عداه . وبخمس أو ست قطع من فئة « السو » حظيت بوجبة من أشهى الوجبات التى تناولتها فى حياتى !

وكنت مضطرا إلى البحث عن مأوى . وكان من السهل أن

---

(١) جبن « الجيونكا » نوع من الجبن الطازج الذى ينقل الى السوق فى حصير .. كالجبن المعروف فى مصر باسم « القريش » .

أعثر على واحد ، إذ كنت قد ألممت من اللغة البيمونتية بقدر يمكنني من أن أجعل حديثي مفهوما . وكنت من الحكمة بحيث راعيت في اختياري ما يناسب مواردي وليس ما يلائم ذوقي. فقد أنبئت بأن زوجة جندي في شارع « دوبو » تأوي الخدم المتعطلين مقابل « سو » واحد في الليلة . وكان لديها سرير خال ، فاستأجرته . وكانت المرأة شابة حديثة العهد بالزواج ، وإن كانت قد أنجبت خمسة أطفال أو ستة من قبل !.. ونمنا جميعا في غرفة واحدة : الأم ، والأطفال ، والنزلاء .. (وقد ظللنا على هذه الحال طيلة اقامتي عندها !) .. وفيما عدا ذلك كانت امرأة طيبة ، سريعة السباب كالحوذية ، تكشف دائما عن ثدييها ، وتدع شعرها مشعثا . على أنها كانت شفوقة القلب ، بشوشا ، مالت إلي ، بل كانت ذات نفع لي !

وقضيت عدة أيام مسلما نفسي لمباهج الاستقلال والفضول وحدها ، فجست خلال المدينة وخارجها ، متفحصا كل مكان ، متأملا كل ما كان يبدو لي جديدا أو غريبا . وهكذا كان الشأن بالنسبة لكل شيء ، لدى شاب غادر لفوره معتقله ، ولم يسبق له أن رأى عاصمة . وكنت ــ قبل كل شيء ــ أتردد بانتظام على القصر ، كما كنت حريصا على أن أحضر القداس الملكي في كل صباح ، فقد رأيت أن من البديع أن أكون في كنيسة واحدة مع الأمير وحاشيته . ولكن شغفي بالموسيقى كان قد بدأ يغدو محسوسا ، وكان أكثر دفعا لي على الحضور المنتظم من الرواء الملكي الذي ما أن يرى بانتظام ، وبنفس الشكل ، حتى يفقد فتنته وطرافته .. وكانت لدى ملك سردينيا في

ذلك الوقت خير فرقة من المترنمين فى أوروبا . وكان «سومى» و «ديجارادنه» و « بيسوتزى » هم بالتتابع نجومها اللامعين. وكان هـذا أكثر مما يلزم لاجتذاب شاب يستهويه صـوت أسوأ آلة موسيقية ، إذا كان العزف عليها سليما . وبجـانب ذلك ، كان الاعجاب الذى أحسست به نحو العظمة والفخفخة ـ اللتين بهرتا بصرى ـ إعجابا خاليا من التعقل ، ولا يستحق أن يغبطنى أحد عليه . وكان الشىء الوحيد الذى أثار اهتمامى فى كل رواء البلاط الملكى هو أن أرى ما إذا كانت ثمـة أميرة شابة ، جديرة بتكريمى، وبأن أتصل بها فى مغامرة غرامية؟!.. وكنت قد أوشكت أن أبدأ مغامرة من هذا النوع ، فى وسـط أقل رواء ، ولكنها مغامرة كنت خليقا بأن أجد فيها ـ لو أننى مضيت قدما ـ متعا تفوق متع الغرام بالأميرات ألف مرة !

***

ومع أننى كنت أعيش بأقصى درجات التقتير ، إلا أن كيسى بدأ ينضب رويدا . ولم يكن اقتصادى فى النفقات نتيجة حكمة بقدر ما كان نتيجة بسـاطة فى الذوق لم يبدلها ـ إلى يومنا هذا ـ تعودى على أن أجلس إلى موائد علية القوم . فمـا عرفت ـ بل ولا أزال بعيدا عن أن أعرف ـ ما هو أبهج من الطعام الريفى . وفى وسـع أى امرىء أن يطمئن إلى إكرامه لى إذا هو قدم لى بعض منتجات اللبن ، والبيض ، والخضر ، والجبن ، والخبز الأسمر ، وبعض النبيذ المقبـول .. إذ أن شهيتى تتكفل بما يبقى بعد ذلك . هذا فى الوقت الذى لا أرتاح فيه إلى وجود كبير للسقاة وعدد من الخدم حولى ، يحيطوننى

بتكلفهم المزعج ! وقد كنت فى ذلك العهـد أحظى بوجبـات تتكلف ستة أو سبعة « سو » ، وتفضل ما اعتدت بعد ذلك أن أحظى به لقاء ستة أو سبعة فرنكات !.. كنت معتدلا ، لأننى لم أتعرض لاغراء يبعدنى عن الاعتدال ، ومع ذلك فاننى اخطىء حين أقول إننى كنت معتدلا ، إذ أننى كنت أحظى فى الوقت ذاته بكل الملاذ الحسية الممكـنة . كانت الكمثرى ، والجيونكا ، وشرائح الخبز ، وبضعة أقداح من نبيذ «مونفيرا» الكثيف الذى يستطيع المرء أن يقطمه إلى شرائح ، تجعلنى أسعد أكول ! ومع ذلك ، فقد دنت نهاية فرنكاتى العشرين ، وكنت أزداد شعورا بهذا يوما بعد يوم ، ومع ما كانت تتسم به سنى من خلو البال، فان قلقى من المستقبل سرعان ما أصبح جزعا حقيقيا ! ولم يبق لى من كل القصور التى كنت أشيدها فى الهواء سوى ضرورة البحث عن وسيلة للعيش، وهذا ما لم يكن سهلا ميسورا . وفكرت فى حرفتى القديمة ، ولكننى لم أكن أعـرف منهـا ما يكفينى لأن يغـرى أى معـلم على أن يستخدمنى ، فضـلا عن أنه لم يكن ثمة كثير من المعلمين فى (تورين) . وأخذت أتنقل من حانوت إلى آخـر ، عارضـا خدماتى لحفر الشعارات والرموز على الفضة ، راجيا أن أغرى بعض العملاء برخص أجرى ـ ريثما يتاح لى عمل أفضل ـ بل أننى تركت لهم تقدير الأجر . ومع ذلك فإن هـذا المشروع لم يسفر عن نجاح يذكر ، بل كنت أطرد عادة ، فكان العمل الذى أظفر به من القـلة بحيث أننى نادرا ما كسبت ما يكفى لثمن وجبتين أو ثلاث ! على أننى لمحت ذات يوم ، وأنـا أسير فى (كونترادا نوفا) فى ساعة مبكرة ، امرأة شـابة بدت لى ـ

خلال نافذة أحد الحوانيت ـ موفورة اللطف ، جذابة المنظر إلى درجة أنني ـ برغم حيائى من النساء ـ دخلت الحانوت دون تردد ، ووضعت مواهبى المتواضعة رهن إشارتها ! ولم تصدنى فى جفاء ، بل أجلستنى وسألتنى أن أروى لها سيرتى القصيرة ، فلما فعلت أشفقت على ، وسألتنى أن لا ابتئس ، لأن المسيحيين الصالحين ما كانو ليتخلوا عنى بالتأكيد . وبعد أن أرسلت إلى صائغ يجاورها فى طلب الأدوات التى انبأتها بأنها تعوزنى ، ذهبت إلى المطبخ فأعدت لى بيديها فطورا .

ولاح لى أن البداية تبشر بالخير ، فلم تكذب النتيجة حدسى ، إذ بدا على المرأة أنها رضيت عن العمل الذى انجزته ، وكانت أكثر رضاء عن ثرثرتى المتواضعة ، عندما اطمأننت قليلا إليها ، فقد كانت ذكية ، أنيقة الملبس . وعلى الرغم من مسلكها الرحيم المتلطف ، فان مظهرها أوحى لى بالهيبة والوقار . على أن كرم حفاوتها ، وصوتها الشغوق ، وأخلاقها اللطيفة الدمثة ، لم تلبث أن سرت عنى كل تحفظ ، فتبينت مدى توفيقى ، مما ضاعف من هذا التوفيق !.. وكانت المرأة إيطالية ، ذات إغراء ودلال إلى حد ما ، لكنها كانت فى الوقت نفسه ذات حياء . وكنت من ناحيتى خجولا ، حتى أنه كان من العسير أن يؤدى الموقف إلى أى شىء أبعد مما جرى بيننا ! كما أن الوقت لم يتح لنا كى نمضى فى المغامرة . وإنى لأذكر فى أقصى نشوة تلك اللحظات الوجيزة التى قضيتها إلى جوارها ، وبوسعى أن أقول إننى ـ فى بدايتها ـ تذوقت أحلى وأنقى مباهج الحب !

وكانت تلك الإيطالية الحسناء سمراء البشرة ، بالغة الفتنة، يزيد من تأثير حسنها ما كان يحمله وجهها الجميل من مخايل طيبة النفس . وكان اسمها مدام « بازيل » ، تركها زوجها ـــ الذى كان أكبر منها سنا ، وكان غيورا بعض الشىء ـــ فى رعاية كاتب(١) بدا أبغض من أن يكون ذا غواية أو إغراء ، ومع ذلك فانه لم يكن خلوا من خلال مميزة كان يبديها مقترنة بطبعه السيىء الذى آثرنى به ، برغم أننى كنت مولعا بأن أسمع عزفه على القيثارة التى كان يجيد استعمالها . . وكان « اله الدمامة » الجديد يزمجر كلما رآنى ألج المكان ، ويعاملنى فى ازدراء أخذت مخدومته ترده إليه كاملا ! بل لقد بدا لى أنها كانت تستعذب التلطف فى وجوده ، لكى تثير غيظه ، وكان هذا النوع من الانتقام ـ برغم مجافاته لذوقى ـ خليقا بأن يكون أكثر استساغة ، لو أنه كان فى خلوة . ولكنها لم تدفع الأمور قط إلى هذا الحد ، أو ـــ بالاحرى ـــ دفعتها ، ولكن بشكل آخر ! وسواء كانت قد ألفتنى جد صغير ، أو أنها لم تكن تعرف كيف تقدم على المراودة ، أو كانت تعتزم حقا أن تظل عاقلة ، فانها أخذت تبدى فى ذلك الحين نوعا من التحفظ لم يكن يصدنى عنها ، ولكنه كان يجعلنى أهابها دون أن أدرى السر فى ذلك ! ومع أننى لم أحس نحوها بذلك الاحترام الحقيقى ، العاطفى ، الذى أحسست به نحو السيدة دى فاران ، إلا أننى كنت أشد خجلا وأقل ألفة مع مدام بازيل منى مع السيدة المذكورة . كنت أجدنى محرجا ، مرتبكا ،

(١) « كاتب » هنا بمعنى موظف كتابى ، أى CLERK

لا أجرؤ على أن أتطلع إليها ، أو أتنفس بالقرب منها ، ومع ذلك فقد كنت أشد كرها للبعد عنها منى للموت . كنت ألتهم بعين نهمة كل ما أستطيع أن أتطلع إليه فيها دون أن يلمحنى أحد : الزهور التى تزين ثوبها ، وأطراف قدميها الرشيقتين ، ولمحة من ذراع بيضاء ، ملتفة ، كنت أراها بين قفازها وكمها .. وجزءا من صدرها كان يتجلى أحيانا بين طرف ثوبها والمنديل المحيط بعنقها . وكان كل شيء من هذه يعزز تأثير بقية الأشياء الأخرى !.. وكانت عيناى تضطربان من النظر إلى ما كنت أراه ـ بل وما وراء ما كنت أراه ـ ويضيق صدرى ، فتزداد أنفاسى تهدجا فى كل لحظة ، حتى لا أكاد أقوى على التنفس ، بل يغدو كل ما أستطيعه هو أن أصعد زفرات متلاحقة غير محسوسة ، كانت شديدة الاحراج لى فى غمرة السكون الشامل الذى كثيرا ما كنا نلفى نفسينا فيه !.. على أن مدام بازيل لم تكن ـ لحسن الحظ ـ تلاحظ ذلك ، على ما كان يبدو لى ، لانهماكها فى عملها . ومع ذلك فاننى كنت أرى صدر ثوبها يخفق أحيانا ، وكأنها تشفق على. وكان هذا المنظر الخطر يفقدنى رشدى تماما ، حتى إذا أوشكت أن أطلق العنان لانفعالاتى ، قالت لى ـ بصوت هادىء ـ عبارة ما ، ترد إلى إدراكى فى الحال !

* * *

ولقد رأيتها عدة مرات فى هذه الحال ـ ونحن وحيدان ـ دون ما كلمة أو إشارة أو نظرة تحمل من المعانى أكثر مما ينبغى ، أو ما يوحى بأتفه تفاهم بيننا . وكان هذا الجو ـ

على ما فيه من تعذيب لي ـــ جد مستعذب ، حتى أنني كنت لا أكاد لسذاجة قلبي أجد سببا لما كنت أحسن به من لوعة !

وكان يبدو أن هذه الخلوات القصيرة كانت مستطابة لديها هي الأخرى ، فانها ـــ على أية حال ـــ كانت تتيح الفرص لهـــا بكثرة !.. وإذا تساءلنـــا عن النفع الذي كان هذا المسلك يحققه لها ، أو لي ، فمن المؤكد أنه كان على الأقـــل مسلكا خاليا من أي ضرر !

.. إلى أن كان ذات يـــوم ، سئمت فيـــه المرأة الحديث السخيف الذي انطلق فيـــه الـــكاتب الدميم ، فصعدت إلى غرفتها . وأسرعت أنا أتم المهمة البسيطة التي كنت أؤديها في الحجرة الخلفية بالحانوت ، ثم تبعتهـــا . وكان باب حجرتها مواربا ، فدخلت دون أن يراني أحـــد . وكانت عاكفة على التطريز بجوار إحدى النوافذ ، وظهرها نحو الباب ، فلم يكن بوسعها أن تراني ، ولا أن تسمعني ـــ نظرا لجلبة العربات في الطريق ـــ وكانت تحرص دائما على أناقة ملبسها ، لكنها في ذلك اليوم بالذات كانت قد افتنت في زينة وجهها إلى درجة مغرية ! وكان وضعها بديعا ، إذ كان رأسها ـــ في انحناءته البسيطة ـــ يكشف بياض عنقها .. وكان شعرها معقوصا إلى أعلى في رشاقة ، وقد ازدان بالزهـــور . وبالاختصار ، كان يرين على قوامها بأسره سحر أخذت أطيل تأمله حتى أخرجني عن تجلدي ، فاذا بي أجثو على ركبتي لدى الباب ، وأبسط ذراعي نحوها في حركات ملتاعة ، وأنا واثق من أنها لم تكن تسمعني ، ودون أن يخطر ببالي أن من المحتمل أن تراني ..

بيد أنه كانت ثمة مرآة على رف المدفأة وشت بى إليها ! ولست أدرى أى أثر أحدثته نوبة جنونى فى نفسها ، فانها لم تنظر نحوى ، ولم تنبس بكلمة وإنما لفتت رأسها لفتة صغيرة ، وبحركة بسيطة أشارت بأصابعها إلى الحصيرة التى كانت عند قدميها . وكانت اللحظة تتطلب أن أرتجف ، أو أصرخ أو أرمى بنفسى حيث أشارت ، ولكن من العسير أن يصدق أحد أننى فى ذلك الموقف لم أجسر على أن أحاول أكثر من الاستلقاء عند قدميها ، فلم أنبس بكلمة واحدة ، ولا رفعت عينى إليها ، بل ولا مسستها فى محاولتى المضنية كى أستند إلى ركبتيها لحظة .. ومع أننى عجزت عن الكلام أو الحركة ، إلا أننى كنت بعيدا عن الهدوء والسكينة ، بل كان كل شىء يشى بانفعالى ، وفرحى ، وعرفانى ، ورغباتى الجامحة التى لم يكن لها هدف معين ، والتى كان يكبحها الخوف من استياء السيدة ، وهو أمر ما كان قلبى الشاب ليرتاح إليه !

وبدأ أنها لم تكن أقل تأثرا ولا أقل خجلا منى .. وازعجها أن ترانى هناك، وحيرها أن تكون قد اجتذبتنى إلى ذلك المكان، وبدأت تشعر بعواقب الإشارة التى صدرت عنها دون أن تفكر فيها التفكير الواجب !.. ولكنها لم تقربنى إليها ، ولا هى صدتنى عنها ، فانها لم ترفع رأسها عن الرقعة التى تطرزها، بل حاولت أن تتصرف كما لو لم تكن ترانى عند قدميها ! على أن كل ما أوتيت من غباء ما كان ليمنعنى من أن استنتج أنها كانت تشاطرنى ارتباكى ، وربما رغباتى ، وأنها كانت تكبح عواطفها بنفس الحياء الذى كان يدفعنى إلى أن أكبح عواطفى، وإن لم يساعدنى ذلك على أن أتغلب على هذا الحياء !.. وإذ

كانت تكبرنى بخمس سنوات أو ست ، فقد رأيت أنها كانت خليقة بأن تكون أكثر جرأة ، وقلت لنفسى إنها إذا كانت لم تفعل ما يوقظ جرأتى ، فلابد أنها غير راغبة فى أن أبدى أية جرأة من ناحيتى ! ولا أزال حتى اليوم أرى أننى كنت مصيبا ، وأنها كانت ــ بالتأكيد ــ من الذكاء بحيث فطنت إلى أن ناشئا مثلى كان بحاجة لا إلى تشجيع فحسب ، وإنما إلى « تدريب » أيضا !

ولست أدرى كيف كان لينتهى هذا المشهد الحافل الصامت، ولا إلى أى وقت كنت سأظل دون حراك فى وضعى المستهجن المستعذب ، لولا أننا فوجئنا بما قطع علينا الموقف ! ففى اللحظة التى بلغ فيها انفعالى عنفوانه ، سمعت باب المطبخ ــ الذى كان ملاصقا للحجرة التى كنا فيها ــ يفتح ، فاستولى على مدام بازيل ذعر جائح تجلى فى كلماتها وإشاراتها وهى تقول : « انهض !.. ها هى ذى روزينا قادمة ! » . وأسرعت بالنهوض ، ممسكا باليد التى بسطتها لى ، طابعا عليها قبلتين ملتهبتين ، شعرت عند ثانيتهما أن هذه اليد الفاتنة تضغط شفتى ضغطا خفيفا !.. ولست أغالى إذا قلت إننى لم استمتع فى حياتى بلحظة فى مثل حلاوة تلك اللحظة . وغير أن الفرصة التى فقدتها لم تسنح قط مرة أخرى ، وكف غرامنا الوليد عن النمو عند ذلك الحد ! ولعل هذا هو عين السبب فى أن صورة تلك المرأة اللطيفة ظلت مطبوعة فى أعماق قلبى بهذا الشكل الفاتن ، بل إنها ازدادت جمالا بازدياد معرفتى بالدنيا والنساء . ولو أنها كانت قد أوتيت مجرد قدر بسيط من

الخبرة ، لأقدمت على تصرف مخالف ، كى تتشجع فتى مثل الذى كنته !.. ولكن ، لئن كان قلبها قد أوشك أن يضعف فى تلك اللحظة ، فانه كان فى الواقع مستقيما ، وما انساقت للميل الذى جرتها إلا على غير إرادة منها ، فكانت هذه ـ على ضوء كل المظاهر ـ أول خيانة تفكر فيها ، ولعلنى كنت خليقا بأن أجد فى مغالبة خجلها عناء يفوق ما كنت ألقاه فى مغالبة حيائى ! على أننى ، دون أن أذهب إلى ذلك المدى ، كنت أجد فى وجودها سعادة لا توصف ، وما عادل شىء من المشاعر التى يخلقها نيل النساء ، تلكما الدقيقتين اللتين قضيتهما عند قدمى هذه المرأة دون أن أجسر على مجرد لمس ثوبها !.. لا ، ليست هناك متعة تعدل تلك التى تستطيع أن تتيحها امرأة فاضلة يحبها المرء !.. إن كل شىء يغدو جميلا فى صحبتها .. ولقد كانت إشارة من أصبع ، ويد التصقت خفيفا بفمى ، وهما كل النعم التى حظيت بهما من مدام بازيل ، ولا تزال ذكرى هذين الرمزين البسيطين تفتننى كلما فكرت فيهما !

وعبثا حاولت ـ فى اليومين التاليين ـ أن انتهز فرصة لخلوة أخرى ، فقد استحال على أن أجد هذه الفرصة ، ولم الاحظ أى حرص من جانب مدام بازيل على أن تتيحها . ومع أن مسلكها لم يصبح أقل فتورا عن ذى قبل ، إلا أنها صارت أكثر تحفظا من المعتاد ، وأعتقد أنها كانت تتفادى نظراتى خشية أن تعجز عن أن تسيطر على نفسها سيطرة كافية ! وغدا كاتبها اللعين أثقل ظلا من أى وقت مضى ، سيما وقد مضى يمزح ويداعبنى قائلا إننى خليق بأن أجد حظا لدى

السيدات ! وكنت أرتجف كلما فكرت فى أننى ربمـــا كنت قد ارتكبت حماقة . ولما كنت قبل ذلك أعتبر أن ثمة تفاهما بينى وبين مدام بازيل ، فقد رغبت الآن فى أن أتكتم الميل الذى لم يكن بحاجة إلى التكتم من قبل ، فجلعنى ذلك أزداد حذرا فى تحينى الفرص لإرضاء هـــذا الميل . ومن فرط حرصى على أن تكون هذه الفرص مأمونة ، تعذر على أن أعثر عليها إطلاقا !

وكانت هذه نزوة غرامية أخرى ، لم يقدر لى قط أن أبرأ منها ، وقد استطاعت باقترانهـــا بحيائى الطبيعى أن تكذب نبوءة الكاتب الدميم بدرجة تبعث على العجب !.. فقد كنت من الصدق فى حبى بدرجة أجرؤ معها على القول بأنها لم تكن لتمكننى من أن أسعد بسهولة . فما كانت العواطف يوما أشد توثبا وأطهر طبيعة مما كانت لدى ، ولا كان الحب يوما أرق ، وأصدق ، وأبعد عن المصلحة مما كان عندى !.. كنت على استعداد لأن أضحى بسعادتى ألف مرة من أجل سعادة المرأة التى أحبها . كانت سمعتها أعز لدى من حيـــاتى ، وما كنت لأرجو البتة أن أعرض طمأنينتها لحظة واحـــدة لأى خطر ، فى مقابل كل المباهج والمتع ! وقد حملنى هذا الشعور على أن أسرف فى الحذر والتكتم والحيطة فى مغامراتى ، إلى الحد الذى لم يقدر عنده لأى منها أن تنجح !.. وما كانت حاجتى إلى أن أوفق مع النساء إلا ناجمة دائما عن حبى العارم لهن !

***

ولنعد الآن إلى ذلك الدميم ، عازف القيثارة : كان الغريب فى أمر هذا الغادر أنه كلمـــا ازداد ثقل ظل ، بدا أكثر لطفا

وإيناسا ! . . وكانت مخدومته ـ منذ اليوم الأول الذى مالت فيه إلى ـ قد فكرت فى أن تجعلنى نافعا فى الحانوت . وكنت أجيد الحساب ، فاقترحت عليه أن يعلمنى كيف أمسك الدفاتر التجارية ، ولكن الجلف تلقى الاقتراح فى امتعاض ، لعل مبعثه أنه خشى أن يزحزح عن عمله ! ومن ثم فقد كان كل عملى ـ إلى جانب حفر المعادن ـ يقتصر على نسخ بضعة حسابات ومذكرات ، وتصحيح بعض الدفاتر ، وترجمة بضع رسائل تجارية من الإيطالية إلى الفرنسية . وفجأة ، عن لصاحبى أن يعود إلى الاقتراح الذى سبق له أن رفضه ، فتطوع لتعليمى القيد المزدوج[1] ، وقال إنه بات راغبا فى أن يجعلنى كفئا لأن أتقدم بخدماتى إلى السيد بازيل عند عودته . وكان فى صوته ومسلكه شىء من الزيف والحقد والسخرية ، لم يوح إلى بالطمأنينة ! ولم تنتظر مدام بازيل حتى أجيبه ، بل قالت له فى برود إننى شاكر له تطوعه ، وإنها تأمل أن يجازينى القدر فى النهاية عن طيب صفائى ، وإنه لأمر جدير بأعظم الرثاء لو أننى لم أغد ـ برغم كل مواهبى ـ أكثر من « كاتب » مثله !

وكانت السيدة قد أخبرتنى ، فى عدة مناسبات ، بأنها راغبة فى أن تقدمنى إلى شخص قد يستطيع أن يساعدنى . وكانت من الحكمة بحيث أدركت أن الوقت قد حان كى نفترق ، إذ أن اعترافاتنا الصامتة بالحب وقعت فى يوم الخميس ، فلما

(١) طريقة قيد الحسابات التجارية ، بتسجيل كل عملية فى الجانب الدائن والجانب المدين : « منه » و « له » .

كان يوم الأحد التالى ، أقامت مأدبة عشاء كنت من حضورها. وكان بين الضيوف راهب من المذهب « اليعقوبى » ، حسن الطلعة ، قدمتنى إليه السيدة ، فعاملنى بحفاوة بالغة ، وهنأنى بانضوائى تحت لواء الكثلكة ، وحدثنى عن حياتى بطريقة نمت لى عن أن السيدة قد أفضت إليه بتفصيلاتها .. ثم نصحنى ــ وهو يربت على خدى بظهر يده فى ود ــ بأن أتصرف بما يليق بكرامتى ، وبأن أكون قوى الجلد وشجاعا ، وبأن أذهب لزيارته ليتاح لنا أن نتبسط فى الحديث معـا . وأدركت من الاحترام الذى كان كل امرىء يبديه له ، أنه رجل ذو مكانة . كما أدركت من اللهجة الأبوية التى كان يوجه بها حديثه إلى مدام بازيل ، أنه الراهب الذى تفضى إليه باعترافاتها ! كذلك أذكر أن الألفة البالغة التى كان يبديهـا نحو تائبته(١) كانت مشوبة بمظاهر التقدير ، بل والاحترام ، الأمر الذى لم يدهشنى إذ ذاك قدر ما يدهشنى الآن . ولو أننى كنت أذكى مما كنت إذ ذاك ، لكنت خليقا بأن آتيه فخرا لمجرد التفكير فى أننى استطعت أن أمس أحاسيس شابة كانت تلقى كل هذا الاحترام من الراهب الذى كان يتلقى اعترافاتها !

ولم تتسع المائدة لنا جميعا ، فرؤى إضافة مائدة أخرى صغيرة ، كان من حظى أن جلست إليها ، مواجها للكاتب ..

---

(١) تقضى التقاليد الدينية لدى الكاثوليك بأن يعترف الشخص الى قس الكنيسة التى يتبعها ، فيعظه القس ويصلى من أجله ، ويكون اعترافه دليل التوبة ، فهو بهذا الوضع تائب .

ولم اخسر بهذا التنظيم شيئا من الرعاية أو التلطف ، فقد نقلت عدة صحاف من الطعام إلى المائدة الصغيرة ، لم يكن صاحبى هو المقصود بها بالتأكيد ! وكان كل شىء يسير كما ينبغى حتى ذلك الوقت ، فكانت السيدات جد طروبات ، والرجال مرهفى الانتباه . وكانت مدام بازيل تدعو إلى الأنخاب فى مهابة فاتنة . وفى منتصف العشاء ، وقفت عربة بالباب ، واقبل شخص يصعد السلم .. وكان القادم هو السيد بازيل . وانى لأتمثله الآن بنفس صورته حين دخل علينا ، مرتديا معطفا قرمزيا ذا أزرار مذهبة ، وهو لون اعتدت منذ ذلك اليوم أن أنفر منه ! وكان طويلا ، مليحا ، حسن المظهر . وأقبل فى جلبة ، شأن الرجل الذى يفاجىء ضيوفه ، برغم أن الحضور جميعا كانوا أصدقاء له . وألقت زوجته ذراعيها حول عنقه ، وراحت تضغط يديه ، وتضفى عليه ألوان الغزل والملاطفة ، فتقبلها جميعا دون أن يلتفت ، وحيا الجماعة ، وجلس ليتناول الطعام .

ولم يكد الضيوف يشرعون فى الحديث عن رحلته ، حتى وجه عينيه نحو المائدة الصغيرة ، وتساءل فى صوت جاف عمن يكون الفتى اليافع الذى رآه جالسا إليها ، فروت له مدام بازيل كل شىء فى بساطة ساذجة . فتساءل عما إذا كنت أقيم فى الدار ، فأجيبت بالنفى ، وإذ ذاك قال بصوت أجش ! « ولم لا ؟ .. مادام يقضى سحابة النهار هنا ، فمن المستحسن أن يمكث خلال الليل » . وأمسك الراهب بزمام الحديث ، وبعد أن تحدث عن مدام بازيل بعبارات الإطراء المخلص الصادق ،

ذكر بضع كلمات فى امتداحى ، وأضـــاف قائلا للزوج إن من الجدير به أن يتوق إلى المساهمة فى العمل الخيرى الذى أدته زوجته الصالحة ، بدلا من أن يلومها عليه ، فليس فى هـــذا العمل ما يجاوز حدود الحكمة والكرامة . وأجاب السيد بازيل فى لهجة غاضبة حاول إخفاءها بعض الشىء ، احتراما لوجود الراهب ، ولكنها كانت كافية لأن تجعلنى أشـــعر بأنه تلقى أنباء عنى ، وأن الكاتب قد دس لى لديه !

وما أن انتهت المـــأدبة ، حتى أقبل الكاتب مزهوا ، وقـــد أوفده مخدومه ليدعونى ــ بأمره ــ إلى أن أبارح البيت فورا ، فلا أضع فيه قدمى بعد ذلك ! وحشا رسالته بكل ما كان كفيلا بأن يجعلها قاسية مهينة . فانصرفت بدون أن أنبس بكلمة ، ولكن بقلب طعين ، لم تكن تعذبه فـــكرة مفـــارقة تلك المرأة اللطفية ، بقدر ما كانت تضنيه فكرة تركها وحيدة لزوجهـــا المتوحش !.. ولا مـــراء فى أنه كان على حق فى رغبتـــه أن لا تخونه زوجته ، ولكنها كانت ــ برغم ذكائها وحسن تربيتها ــ إيطالية الأصل ، أعنى أنها كانت مفطورة على الحس المرهف وحب الثأر . ويلوح لى أنه كان مخطئا إذ عاملها بأكثر الطرق قابلية لأن تجلب عليه ما كان يخشاه من نحس !

هكذا كانت نتيجة مغامرتى الغرامية الأولى . ولم أغفل أن أمر بالشارع مرتين أو ثلاثا ، على أمل أن أرى ــ على الأقل ــ المـــرأة التى لم يكن قلبى يكف عن التحسر عليهـــا . ولكنى رأيت ــ بدلا منها ــ الزوج والكاتب المتربص الذى لم يكـــد يلمحنى حتى أشار نحـــوى بالشريط الخشبى الذى يستخدم لقياس الياردة ، إشارة كانت تنطوى على أكثـــر من مجـــرد

التهديد ! وإذ تبينت أن الرقابة شديدة ، فترت عزيمتى ، ولم أمر بالحانوت مرة أخرى . ولقد رغبت فى أن أسعى إلى الراهب الذى كانت مدام بازيل قد هدتنى إليه ، ولكنى لم أكن أعرف اسمه ، لسوء الحظ ، فطوفت عدة مرات بالدير آملا فى أن أصادفه ، ولكن دون ما توفيق . وأخيرا ، عدت أحداث أخرى على ذكريات مدام بازيل البهيجة ، فلم ألبث أن نسيتها تماما بعد وقت قصير .. .لى إننى ـ لسذاجتى وحداثتى ـ لم أعد أحس بميل إلى الجميلات !

على أن كرم مدام بازيل زود صوان ثيابى إلى حد ما ، وإن كانت قد راعت التواضع وبعد النظر الذى تتصف به المرأة العاقلة التى تفكر فى نظافة الملبس أكثر مما تفكر فى زينته ، مما نم عن أنها كانت تبغى أن تصوننى من الهوان ، لا أن تزيننى . وكانت الثياب التى حملتها معى من جنيف لا تزال صالحة للارتداء ، ومن ثم فانها لم تضف إليها سوى قبعة وبعض الثياب الداخلية . ولم تكن عندى قفازات ، ولكنها أبت أن تمنحنى شيئا منها ، برغم أننى كنت جد تواق لذلك ، فقد كانت قانعة بأن تجعلنى فى وضع يمكننى من أن أحتفظ بنفسى نظيف الملبس والمظهر ، وهو أمر لم تكن بحاجة إلى أن توصينى بالاهتمام به ، عندما كنت معها !

وبعد أيام قلائل من طردى من الحانوت ، أنبأتنى صاحبة البيت الذى كنت أقيم فيه ـ وقد ذكرت انها مالت إلى ـ بأن من المحتمل أن تكون قد وجدت لى عملا ، فان سيدة ذات مكانة قد رغبت فى أن ترانى . وعند هذه الكلمات ، ظننت أننى أصبحت فعلا وسط مغامرات راقية ، إذ كان ذهنى يدور دائما

حول ذلك . على أن المغامرة في هذه المرة لم تكن من البهاء كما صورتها لنفسي ، فقد ذهبت لمقابلة السيدة مع الخادم الذى حدثها عنى ، فسألتنى وامتحنتنى ، ولم أخيب رجاءها ؛ فالتحقت بخدمتها لفورى ، لا فى مركز مقرب لديها ، وإنما كخادم يرتدى الزى الخاص بخدمها ! وكان الفارق الوحيد بينى وبين هؤلاء أنهم كانوا يلبسون أنشوطات على أكتافهم[1]، أما أنا فلم أكن أفعل .. ولما كانت ثياب خدمها لا تزدان بشيء من الوشى ، فانها كانت تبدو كالأزياء العادية .. وهكذا كانت النهاية غير المرتقبة للآمالى العظام !

وكانت « الكونتة دى فيرسيللى » ـ التى التحقت إذ ذاك بخدمتها ـ أرملة بلا ولد ، وقد كان زوجها من أبناء (بييمونت) . وكنت دائما أخالها من إقليم (سافوا) ، فما كنت لأصدق أن بين أهل (بييمونت) من يجيد الفرنسية إلى درجة الكلام بلهجة خالية من أية لكنة . وكانت فى أواسط العمر ، ذات منظر ممتاز ، وقد أوتيت ذهنا مثقفا . وكانت مولعة بالأدب الفرنسى الذى كانت على دراية واسعة به . كما كانت تكثر من الكتابة ، وبالفرنسية دائما . وكانت لرسائلها روح ، بل وروعة ، رسائل « مدام دى سيفينييه » ، حتى أن بعضها يخاله المرء من قلم هذه الأخيرة . وكان عملى الرئيسى من نوع لم أكن أكرهه ، إذ كنت اكتب لها ما تمليه على من هذه الرسائل ، فقد كانت مصابة بسرطان فى المعدة ، يكبدها آلاما عظيمة تجعل من المستحيل عليها أن تكتب بنفسها !

---

(١) جبال مجدولة (اسبلايت) أو شارات مما يوجد على أكتاف بعض السعاة.

ولم تكن مدام دى فيرسيللى ذات ذكاء عظيم ، ولكنها أوتيت روحا قوية عالية . وكنت معها أثناء مرضها الأخير ، فشهدتها تتعذب وتموت دون أن تبدى بادرة من بوادر الضعف ، ولو لحظة واحدة ، دون أن تبذل أقل جهد فى السيطرة على نفسها ، أو تفعل شيئا لا يليق بامرأة ، بل ودون أن يخطر ببالها أن مسلكها كان مثالا للفلسفة ، وهى كلمة لم تكن قد أصبحت شائعة ، ولم تكن السيدة تعرفها بمعناها المألوف اليوم .

وكانت قوة شخصيتها هذه ، تطغى فى بعض الأحيان حتى تصبح برودا !.. كانت تبدو لى دائما وكأنها لا تكن من المشاعر لسواها قدر ما تكن لنفسها . وعندما كانت تبدى كرما لأى تعس ، فانما كانت تصدر فى ذلك عن رغبة فى اتيان الخير والعمل الصالح ، أكثر منها عن شعور حقيقى بالصدقة . لقد خبرت هذا القصور فى شعورها ـ إلى حد ما ـ خلال الأشهر الثلاثة التى قضيتها معها . ولقد كان الأمر يبدو طبيعيا لو أنها قدرت شابا ذا مواهب ، كانت تراه أمامها باستمرار ، فاذا ما شعرت بنهايتها تدنو فكرت فى أنه قد يصبح بعدها فى حاجة إلى المعونة والمساعدة .. ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك ، إما لأنها لم تعتبرنى أهلا لرعاية خاصة ، أو لأن الذين كانوا يحيطون بها لم يتيحوا لها أن تفكر فى سواهم !

على أننى أتذكر جيدا أنها أبدت بعض فضول إلى تعرف قصتى ، فكانت أحيانا توجه إلى أسئلة ، وتحب أن اريها الخطابات التى كنت أكتبها إلى مدام دى فاران ، وأصف لها مشاعرى . على أنها لم تسلك ـ بالتأكيد ـ الطريق الصحيحة

للتعرف على هذه المشاعر ، إذ أنهـا لم تبح لى قط بشىء من مشاعرها الخاصة ! وكان قلبى يحب أن يكشف عن دخيلته على شريطة أن يطمئن إلى أنه إنما يفضى بسريرته إلى قلب آخر . أما الأسئلة الباردة الجافة ، التى لا تنطوى على بادرة من رضاء أو لوم إزاء إجاباتى ، فلم تكن توحى إلى بشىء من الثقة . وعندما كنت لا أرى ما ينم عما إذا كان حديثى يرضيها أو يضايقها ، كنت أشعر دائما بجزع !.. على أننى لاحظت ، منذ ذلك الحين ، أن هذه الطريقة الجافة فى توجيه الأسئلة إلى الناس للتعرف على شخصيتهم ، حيلة كثيرا ما تعمد إليهـا النساء اللواتى يرغبن فى أن يبدون ذكيات بارعـات . فهن يخلن أنهن بإخفاء مشاعرهن يكن أكثر توفيقا فى الكشف عن مشاعرك أنت ! ولكنهن يخفقن فى أن يرين أنهن بهـذا العمل يجردنك من الجرأة على هذا الكشف !.. والرجل إذا ما سئل، بادر إلى التحفظ من أجل ذلك السبب وحده ، وإذا اعتقد أن سائله إنما يريد أن يحمله على الكلام فحسب ، دون أى اهتمام حقيقى بأمره ، فانه إما أن يعمـد إلى الكذب ، أو إلى حبس لسانه ، أو يضاعف من حيطته ، مفضلا أن يظن أنه أحمق عن ان يكون تسلية للفضول ! وقصارى القول ، إن المرء إذا رغب فى قراءة قلوب الآخرين ، فان من سوء السياسة أن يظهر أنه يخفى ما فى قلبه !

ولم يحدث لمدام دى فيرسيللى أن باحت لى قط بكلمة تعبر عن ود ، أو شفقة ، أو عطف . وإنما كانت توجه إلى أسئلة بلهجة باردة ، فأجيب عليها بتحفظ . ولا بد أن إجاباتى كانت

تبدو لها تافهة مضـجرة . وما لبثت فى النهـاية أن كفت عن الأسئلة ، ولم تعد تكلمنى إلا لتصدر لى أوامرها ! كانت تحكم على فى ضوء ما دفعتنى إليه بمسلكها ، وليس فى ضوء ما كنته .. وما رأت فى قط سوى مجرد خادم ، فكانت تمنعنى من أن أبدو فى غير شخصية الخادم !.. وأعتقد أننى منذ ذلك الوقت أعانى من خبث هوايـة التآمر فى الخفـاء التى تدفعنى إلى الانحراف ، والتى أوحت إلى بنفور طبيعى جدا من الأوضاع التى خلقت هذه الهواية . وكان وريث مدام دى فيرسيللى ـ التى كانت بلا ولد ـ هو ابن أخيهـا الكونت « ديلا روك » الذى كان مثابرا على التقرب إليها . وفضـلا عن ذلك ، فان رؤساء خدمهـا ـ الذين رأوا نهايتهـا تدنو ـ لم يغفلـوا مصالحهم ، ومن ثم فقد كان يحيط بهـا كثيرون ممن يظهرون الوفاء لخدمتها ، فكان من العسير عليها أن تفكر فى شخصى . وكان على رأس قصرها رجل ماهر يدعى السـيد لورنزى ؛ استطاعت زوجته ـ التى كانت تفوقه ذكاء ـ أن تتملق مولاتها وأن تكسب رضاها إلى درجة أنها صارت منها بمثابة الصديقة أكثر منها الخادم الأجيرة . وقد استطاعت بذلك أن تظفر لابنة أخيها بمنصب وصـيفة السيدة ! وكانت ابنـة الأخ مخلوقة ماكرة ، تدعى الآنسة بونتال ، تجيد الظهـور بمظهر وصيفة الشرف ، وبذلك وفقت إلى مساعدة عمتهـا فى التقـرب إلى السيدة ، فلم تعد هـذه ترى إلا بعيون الاثنتين ، أو تعمل إلا بأيديهما ! ولم يكن لى حظ إرضاء هؤلاء الأشخاص الثلاثة ـ السيد لورنزى وزوجته وابنة أخيها ـ فقد كنت أطيعهم ولكنى

لم أخدمهم ، إذ لم أفطن إلى أننى ــ بجانب خدمة مخدومتنــا المشتركة ــ كنت مضطرا إلى أن أكون خادما لخدمهــا !.. فضلا عن أننى كنت من ذلك النوع من الخدم الذى يثير قلقهم ، إذ رأوا بوضوح أننى كنت فى غير المكان الذى أستحقه ، فكانوا يخشون أن ترى السيدة ذلك بدورها ، وأن تعمد ـ كى تضعنى فى المركــز اللائق بى ــ إلى إجــراء قــد يقلل من حظهم من مالها !.. ذلك أن أبناء هذه الطبقة هم فى العادة أشد جشعا من أن يكونوا منصفين ، وتراهم ينظرون إلى أية منحة لسواهم وكأنهــا حق استلب من مالهم الخاص ! ومن ثم فانهم تآمروا على إقصائى عن بصر السيدة . ولمــا كان غرامهــا بكتابة الرسائل قد صار بمثابة تسلية لها فى ضعفها الصحى ، فانهم أوحوا إليها بما جعلها تكره هذه الهواية ، وصرفوها عن المضى فيها مستعينين بنصح طبيبها ، وبالتثبيط من عزيمتها بزعم أنها عملية جد مرهقة لها !.. ثم صوروا لهــا أننى لم أكن أفهم واجبى ، وبذلك أقنعوها بأن تعين فى مكانى خادمين لئيمين ، كى يحملا مقعدها ! وبإيجاز ، فانهم تعمدوا ــ ببراعة ــ أن لا ألج غرفتها طوال ثمانية أيام ، هى الفترة التى كانت أثناءها تعد وصيتها ! ومن الصحيح أننى بعد هذه المدة عدت أدخل غرفتها كعهدى من قبل ، وأخذت أبدى لها من الاهتمام فوق ما كان يبديــه أى شخص ســواى ، إذ أن الآلام التى كانت تعانيها المسكينة أخذت تمزق قلبى ، والجلد الذى كانت تتحملها به أوحى إلى بأن أوقرها وأعطف عليها إلى أقصى درجة .. حتى أنى كثيرا ما كنت أذرف دموع الأسى صادقا فى غرفتى ، دون أن يرانى أحد !

وأخيرا فقدناها .. ورأيتها تجود بآخر أنفاسها . وكما عاشت حياة امرأة موهوبة ذكية ، فانها ماتت ميتة الفلاسفة . وبوسعى أن أقول إنها الهمتنى تقديرا عاليا للعقيدة الكاثوليكية ، بفضل ما كانت تبديه من إقبال على اتباع تعاليمها ، دون إهمال أو تصنع . كانت فى الواقع ذات طبع حاد ، وقد أخذت تبدى ـ فى نهاية مرضها ـ نوعا من الانشراح الذى كان انتظامه يوحى بأنه غير حقيقى ، فما كان سوى رد فعل لحالتها الأليمة ، وسوى ثمرة من ثمار العقل . ومع أنها لم تلزم فراشها إلا فى اليومين الأخرين ، إلا أنها ظلت تتحدث فى هدوء مع كل أمرىء حتى النهاية . وأخيرا ، لم تعد تتكلم ، ولكنها فى نزعات الموت صاحت بصوت مرتفع : « حسنا ! .. إن المرأة التى تستطيع أن تطلق الغازات من أمعائها ، لا تموت » .. وتقلبت فى فراشها ، وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها !

.. ولقد تركت لصغار خدمها أجور عام كامل ، أما أنا فلم أتلق شيئا ، لأننى لم أكن فى قائمتهم! على أن الكونت ديلا روك أمر باعطائى ثلاثين ليرة(١) ، كما ترك لى السترة الجديدة التى كنت أرتديها ، والتى أراد السيد لورنزى أن يأخذها منى ! بل إن الكونت تكرم فوعد بأن يحاول إيجاد عمل لى ، وأذن لى بأن أذهب لأراه ، وقد ذهبت مرتين أو ثلاثا ، دون أن أتمكن من

---

(١) الليرة : عملة قديمة كانت قيمتها تتباين بتباين الأزمان والأماكن ، وقد أطلق الاسم على « الفرنك » فى بعض الأوقات .

التحدث إليه . ولما كنت سريع القنوط ، فانني لم أذهب بعد ذلك . ولسوف يتبدى ـ بعد قليل ـ انني كنت مخطئا .

وليتنى كنت أستطيع أن أنهى ، عند هذا القدر ، كل ما لدى من قول عن فترة إقامتى لدى مدام دى فيرسيللى !.. لكن الواقع أننى لم ابرح الدار كما دخلتها ، وإن ظلت حالى كما كانت . لقد حملت معى من الدار ذكريات باقية للجريمة ، وعبئا لا يطاق من الندم ، لا يزال يثقل ضميرى برغم مرور أربعين عاما ! وبدلا من أن تزداد مرارته ضعفا ووهنا ، إذا بها تقوى وتشتد كلما تقدمت بى السنون : فمنذا يصدق أن غلطة صبيانية تؤدى إلى مثل هذه التبعات القاسية ؟ التبعات التى كانت أفدح مما يخطر بالبال ، والتى لا يجد قلبى عزاء من أجلها ؟.. ذلك أننى تسببت فى دمار فتاة لطيفة ، شريفة ، جديرة بالتقدير ـ بل كان من المؤكد أنها تفوقنى جدارة ـ إذ دفعت بها إلى الخزى والتعاسة !

وإليك القصة : إن من الأمور التى لا مناص منها ، أن تغير نظام بيت من البيوت خليق بأن يحدث شيئا من الفوضى فى البيت ، فتضيع أشياء عديدة . ومع ذلك فان الخدم فى دار تلك السيدة كانوا من الأمانة ـ كما كان لورنزى من اليقظة ـ بحيث أن شيئا لم يفتقد من دار مدام دى فيرسيللى عندما أحصى ما كان فيها . ولكن حدث أن الآنسة « بونتال » فقدت قطعة من شريط قديم باللونين الأحمر والفضى . ولقد كانت تحت يدى أشياء كثيرة تفوق تلك القطعة فى القيمة ، غير أن هذه وحدها هى التى أغرتنى ، فسرقتها ! ولما كنت لم أجشم نفسى عناء

إخفائها ، فانها سرعان ما وجدت .. وشاءوا أن يعرفوا كيف آلت إلى حوزتى ، فــاذا بى أرتبك ، وأتلعثم ، وإذا بوجهى يتضرج .. ثم قلت ــ فى النهاية ــ إن « ماريون » أعطتنيها !
وكانت « ماريون » شابة من (موريين) اتخذتهــا مدام دى فيرسيللى طاهية لهــا عندما كفت عن إقامة الولائم فسرحت طاهيتها وأصبحت تكتفى بالحساء الجيد عن الأطعمة الشهية.
ولم تكن « ماريون » هذه رشيقة فحسب ، بل كانت ذات لون حاضر ، لا يوجد إلا لدى أهل الجبال ، كما كانت تتصف ــ فوق كل شىء ــ بنوع من اللطف والتواضع ، يستحيل معه على من يراها أن لا يحبها !.. ثم أنها كانت فتــاة طيبــة ، ورعة ، لا جدال فى أمانتها . لذلك دهش الجميع عندما ذكرت اسمها !
وكان كل منا موضع ثقة ، لذلك كان من المهم أن يتبينوا من منا اللص الحقيقى ؟ ومن ثم استدعيت ، واجتمع نفر من القوم ، بينهم الكونت ديلا روك . وعندما قدمت ، عرض عليها الشريط .. واتهمتها فى جرأة ، فبهتت ، ولم تقو على أن تنبس ببنت شفة ، وإنما اكتفت بأن رمقتنى بنظرة كانت كفيلة بأن تجرد إبليس ذاتــه من أسلحته ، ولكن قلبى البهيمى كان منيعــا دونها ! وأخيرا ، أنكرت الفتاة السرقة بلهجة جازمة ، ولكن دون غضــب ، وخاطبتنى فناشدتنى أن أفكر ، وألا أشــوه سمعة فتاة بريئة لم تلحق بى أى أذى . ولكنى أصررت على قصتى ، فى قحة شيطانية ، وأعلنت فى وجهها أنها هى التى أعطتنى الشريط !.. فشرعت المســكينة تبكى ، ولم تقــل سوى : « آه ! كنت أظنك رجلا طيبا يا روسو . إنك تشقينى

كل الشقاء ، ولكنى لا أتمنى أن أكون فى موقفك ! » .. وكان هذا كل ما عندها لى ، فقد راحت تدافع عن نفسها فى بساطة وحزم ، دون أن تسمح لنفسها بأن توجه إلى أقل تأنيب أو لوم ! وأدى هذا الاعتدال ـ بالقياس إلى لهجتى الجازمة ـ إلى ضررها ، فما كان من الطبيعى أن تقابل مثل هذه القحة الشيطانية من جانبى ، بوداعة ملائكية من جانبها ! ومع أن المسألة لم تسو نهائيا ، إلا أنه بدا انهم جميعا مالوا إلى جانبى ، ولكنهم لم يضيعوا وقتهم فى التعمق فى المسألة ، فى غمرة الفوضى التى كانت تسود الدار ، واكتفى الكونت ديلا روك ـ وهو يفصلنا معا من الخدمة ـ بأن قال إن ضمير المذنب خليق بأن يثأر للبرىء !.. ولقد تحققت نبوءته ، بل إنها لتتحقق فى كل يوم !

ولست أدرى ما جرى لضحية اتهامى الزائف ، ولكن من غير المحتمل أنها استطاعت العثور على مركز طيب بعد ذلك ، فقد حملت معها وصمة لطخت شرفها بقسوة من كل النواحى . لقد كانت السرقة طفيفة تافهة ، ولكنها كانت ـ برغم ذلك ـ سرقة ! ومما زاد الطين بلة أنها ارتكبت لاغواء شاب .. ثم إن الكذب والعناد لم يخلفا شيئا يرتجى من شخص اجتمعت فى نفسه كل هذه الرذائل ! بل إننى لا أظن أن التعاسة والنبذ هما أعظم الأخطار التى تسببت بفعلتى فى تعريض الفتاة لها ، فان المرء لا يستطيع أن يدرى مدى ما قد يدفع إليه القنوط والشعور بالبراءة الجريحة ، فتاة فى مثل سنها !.. أواه ! إذا كان شعورى بالندم لا يطاق ، لمجرد احتمال أننى جعلتها

تعسة ، ففى وسع المرء أن يقدر ما يخالجنى من شعور إذ أتصور أننى قد أكون دفعت الفتاة إلى أسوأ من هذا المصير !

إن هذه الذكرى تقض راحتى وتمضنى فى بعض الأوقات ، إلى درجة تجعلنى أخال ـ فى ساعات السهاد ـ أن الفتاة المسكينة مقبلة لتلومنى على جرمى ، وكأننى ارتكبت هذا الجرم بالأمس القريب ! ويخف عذاب هذه الذكرى طالما كنت أعيش فى هدوء ودعة ، ولكنها فى غمرة الحياة الصاخبة تسلبنى لذة العزاء ، وتجعلنى أحس بما أذكر أننى قلته فى أحد كتبى من أن « الندم يهجع عندما تكون حظوظنا فى ازدهار ، ويجعل عذابه محسوسا فى أوقات النوائب » !.. ومع ذلك فاننى لم أقو البتة على أن أحمل نفسى على أن أفضفض عن صدرى ، بأن أعترف بالقصة لأحد من أصدقائى .. فان أوثق الود لم يصل بى يوما إلى هذا الحد مع أى امرىء ، حتى مع مدام دى فاران . كل ما استطعته هو أن اعترفت بأن على أن ألوم نفسى على عمل فظيع ، ولكنى لم أفصح إطلاقا عن كنهه !. ولقد ظل هذا العبء يثقل ضميرى إلى اليوم ، دون أن تخف وطأته ، وإنى لأذهب إلى حد التأكيد بأن الرغبة فى الخلاص منه ـ إلى حد ما ـ ساهمت بدور كبير فى إقدامى على كتابة هذه « الاعترافات » !

لقد كنت صريحا أمينا فى الاعتراف الذى ذكرته ، ولسوف يتضح بالتأكيد أننى لم أحاول أن أخفف قتامة جرمى . ولكنى لا أحقق الهدف المرجو من هذا الكتاب إذا أنا لم أعرض ـ فى الوقت ذاته ـ أعمق مشاعرى الدفينة ، وإذا أنا ترددت فى

أن أبرز نفسى ، بحقائق محضة صادقة : فمـا كانت النيـة الخبيئة بمنأى عنى فى أية لحظة ، بقدر ما كانت فى تلك اللحظة القاسية . ولقد كان من الغريب ـ ولكن من الصحيح أيضا فى الوقت نفسه ـ أن صداقتى للفتاة التعسة كانت هى السبب فى أننى اتهمتها ! . . ذلك أنها كانت ماثلة فى خاطرى ، فلم أر بدا من أن ألقى اللوم على أول شخص قفـز إلى فـكرى ؛ فاتهمتها بفعل ما كنت أعتزم فعله . . اتهمتها بأنهـا أعطتنى الشريط ، لأنى كنت أعتزم أن أعطيها إياه ! فلما رأيتها أمامى ـ بعد ذلك ـ تمزق قلبى ، لكن وجـود كل ذلك العـدد من الناس كان أقـوى تأثيرا على نفسى من التوبة !. . وما كنت خائفا من العقاب ، وإنما كنت خائفا من العـار ، فقـد كنت أرهبه أكثر من الموت ، وأكثر من الجريمة ، وأكثر من أى شيء آخر فى الدنيا ! . . وكم كنت أغتبط لو أن الأرض انشقت فجأة فابتعلتنى وخنقتنى ! وهكذا تغلب الخوف الطاغى من العار على كل شيء ، فلم يزدنى إلا قحة . . إذ أن ازدياد إجرامى ، وازدياد نفورى من الاعتـراف ، أديا إلى انعـدام خوفى من الافتراء ، فما عدت أرى أمامى ـ إذ ذاك ـ سوى بشـاعة الفضيحة ، وهتك سترى للملأ ، فى حضورى ، باعتبار أننى لص . . وكاذب . . ومفتر !. . ذلك ما كان الارتباك الشامل يجردنى من كل شعور سواه . ولو أنهم أتاحوا لى فرصـة أسترد فيها رباطة جأشى ، لما كان ثمة ريب فى أننى كنت أعترف إذ ذاك بكل شيء !. . لو أن السيد ديلا روك انتحى بى جانبا ، وقال لى : « لا تفسد على هذه الفتاة المسكينة حياتها . . إذا كنت مذنبا فاعترف لى » ، لألقيت بنفسى فى الحال على قدميه.

إنى لموقن تماما من ذلك ! ولكنى حين افتقـدت التشجيع ، لم ألق منهم سوى الارهاب !

ثم إن الانصاف يدعو إلى النظر بعين الاعتبار إلى سنى ، فقد كنت يومئذ أقرب إلى الطفولة منى إلى الرجولة . والجرائم الحقيقية تكون فى الصغر أكثر اتصافا بالإجرام منها فى الكبر ، أما الجرائم التى لا تعدو أن تكون نزوات مبعثها الضعف ، فلا تكون فى الواقع ناجمة ـ لدى الصغار ـ عن روح إجرامية . ومن ثم فان العمل الذى ارتكبته لم يكن ـ فى جوهره ـ أكثر من « مخالفة » !.. وهكذا فان ذكراها لا تكربنى لما فيها من شر ، ، بقدر ما تكربنى بسبب تبعاتها ونتائجها الشريرة . على أنها أحسنت فى الواقع ، إذ صانتنى بقية عمرى من كل عمل يميل إلى الإجرام .. وأحسنت إلى بالأثر الرهيب الذى انطبع فى نفسى من جراء الذنب الوحيد الذى ارتكبته . وإنى لأومن بأن استبشاعى الكذب إنما يرجع بدرجة كبيرة إلى ندمى على أننى استطعت أن أقدم على مثل تلك الأكذوبة المخزية!.. إنه جرم يمكن التكفير عنه ، بل إننى لأجرؤ على القول بأننى قد كفرت عنه بكل الشقاء الذى طغى على السنوات الأخيرة من حياتى.. بأربعين عاما من الاستقامة فى أوعر الظروف !.. وإن « ماريون » المسكينة لتجد فى الدنيا كثيرا من المنتقمين لها ، بل إنهم لمن الكثرة بحيث أننى ـ مهما يكن عظم ذنبى ضدها ـ لم أعد أخاف أن أموت غير مستمتع بالغفران !

وهذا كل ما أود أن أقوله بهذا الصدد ، فاسمحوا لى بألا أعود إلى الحديث قط فى هذا الموضوع !

الكراسة الثالثة

٥ ــ من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

وإذ تركت دار مدام دى فيرسيللى فى حال قريبــة من تلك التى كنت فيها حين دخلتها ، عدت إلى صاحبة النزل التى كنت أقيم عندها من قبل ، فقضيت معها خمسة أسابيع أو ستة ، عادت خلالها الصحة والشباب والكسل إلى إشاعة الاضطراب فى طباعى ، فأصبحت قلقا ، شارد الفكر ، حالمـــا .. صرت أبكى ، وأتنهد ، وأتوق إلى سعادة لم تكن لدى عنها أية فكرة ، ولكنى ــ مع ذلك ــ كنت أشعر بأننى راغب فيها ! ولا سبيل إلى وصف هـــذه الحـــال ، بل إن الذين يستطيعون تصورها قليلون بين الناس ، يصبو معظمهم إلى حياة تجمع بين العذاب والعذوبة ، وتخلق الشعور باللذة فى عنفوان الشوق . وكان دمى الفائر يملأ مخى دائما بالنساء والفتيات . ولما كنت جاهلا بالعلاقات الجنسية ، فقد رحت أستـــتغل تلك الرؤى وفقـــا لأفكارى المتخبطة ، دون أن أدرى طريقة أخرى للإفادة منها ! .. وقد استبقت هذه الأفكار مشاعرى فى حالة نشاط ممض ، دون أن ترشدنى ــ لحسن الحظ ــ إلى طريق الخلاص من هذه الحال .. ولقد كنت إذ ذاك على استعداد لأن أجود بكل حياتى مقابل العثور على « آنسة دى جوتون » أخرى ، ولو لربع ساعة ! ولكن الوقت الذى كان لهو الطفولة يتخذ فيــه هذا الاتجاه ــ باعتباره الاتجاه الطبيعى ــ كان قد ولى !.. كان الشعور بالعار ــ وهو رفيق الضمير السيىء ــ قد شرع

يزداد ظهورا كلما تقدمت بى السنون ، مما ضاعف من خجلى الفطرى إلى الدرجة التى لم أعد عندها أقوى على مغالبة هذا الخجل .. فما عدت أقوى إذ ذاك ـ ولا فيما بعد ـ على أن أحمل نفسى على محاولة غير بريئة ، اللهم إلا إذا كانت تلك التى أحاولها معها ، هى التى تضطرنى ـ بطريقة ما ـ إلى الإقدام ، مهما أعرف أنها متهتكة ، ومهما أشعر عن شبه يقين بأنها ستتلقى محاولتى بالقبول !

ولقد اشتد اضطرابى حتى أننى ، لعجزى عن إشباع رغباتى ، أخذت استثير هذه الرغبات بأكثر التصرفات شذوذا .. فكنت أهيم فى الأزقة المظلمة والدروب المستخفية ، حيث يحتمل أن يتاح لى أن أعرض نفسى على النسوة بالشكل الذى كنت أرجو أن أكون عليه معهن !.. على أن ما كن يرينه منى لم يكن منكرا مستقبحا ، فما خطر ببالى قط مثل هذا ، وإنما كان ما يرينه سخفا ونزقا . ولا سبيل إلى وصف السرور الأرعن الذى كنت استشعره من جراء عرضه عليهن !.. ولم يكن باقيا أمامى سوى خطوة ضرورية أخرى ، ثم أكتسب خبرة واقعية بالمعاملة التى كنت أشتهيها . ولو أننى أوتيت جلدا على الانتظار ، لما كان ثمة شك فى أن يمر بى شخص لديه من الجراة ما يكفى لأن ينيلنى المتعة المنشودة !.. ولقد أفضت بى حماقتى إلى ورطة كانت خليقة بأن تكون مضحكة لولا أنها لم تكن مما يلائمنى !

ففى ذات يوم ، اتخذت مكانى فى مؤخرة ساحة قصر ، كانت بها بئر اعتادت بنات الدار أن ينقلن منها الماء . وكان فى تلك

البقعة منحدر بسيط يقـود إلى مخزن (كرار) خـلال مداخل عدة ، ففحصت ـ فى الظـلام ـ هـذه الدروب الممتدة تحت مستوى الأرض ، حتى إذا وجدتها طويلة ومعتمة ، استنتجت عدم وجود منفذ منها إلى الخارج ، وأن بوسعى أن أجـد فيها مخبأ أمينا إذا أنا شوهدت وطوردت . وإذ اطمأننت ، أخذت أعرض على الفتيات ـ اللاتى كن يفدن إلى البئر ـ منظرا أدعى إلى الضحك منه إلى الاغواء فكان أكثرهن احتشاما يتظاهرن بأنهن لم يرين شيئا ، بينما شرعت بعض الفتيات فى الضحك ، واستاءت أخريات فأحدثن جلبة .. وهرعت إلى مخبئى ، وإذا بى أشعر بمن يتبعنى ، وسمعت صوت رجل ـ وهو أمر لم أكن أتوقعه ، وقد أفزعنى ـ فاندفعت فى المسارب الممتدة تحت الأرض ، معرضا نفسى لأن أضل السبيل ، ولكن الضجيج ، والأصوات ، وصوت الرجل بالذات ، ظلت تتبعنى .. وكنت أعول باستمرار على الظلمة ، وإذا بى أرى ضوءا ، فارتجفت ، وأمعنت فى الإيغال فى الظلام ، وإذا بجدار يستوقفنى ، حتى إذا عجزت عن التقدم ، اضطررت إلى أن أقبع فى انتظـار مصيرى . وإن هى إلا لحظة حتى أمسك بى رجل طويل ذو شاربين كثين وقبعة كبيرة وسيف طـويل ، تحف به أربع أو خمس نسوة عجوزات ، تسلحت كل منهن بيد مكنسة ، وبينهم جميعا لمحت الشقية الصغيرة التى كشفت أمرى ، والتى كانت تبغى ـ دون ريب ـ أن تتشفى فى وجها لوجه !

وسألنى الرجل ذو السيف بخشونة ، وهو ممسك بذراعى ، عما كنت أفعل فى ذلك المكان . ومن اليسير تصور أننى لم أجد



وسألنى الرجل ذو السيف بخشونة ، وهو ممسك
بذراعى عما كنت أفعل فى ذلك المكان

جوابا حاضرا ، على أننى ما لبثت أن تمالكت جأشى ، وفى غمرة اليأس الذى ألم بى فى تلك اللحظة الحرجة ، انتحلت عـــذرا خياليا لقى نجاحا ، فقد توسلت إلى الرجل فى لهجة ضارعة أن يرحم سنى وحالى ، وقلت إننى كنت شابا غريبا ، من أصـــل طيب ، وقد أصبت بلوثة ، واضطررت إلى الفــرار من أهلى لأنهم أرادوا أن يحبسونى ، وأننى ضائع لا محالة إذا هو وشى بى . . أما إذا تركنى أنصرف ، فقــد أستطيع يوما أن أجزيه لقاء كرمه . وعلى النقيض من كل ما توقعت ، أحدثت كلماتى ولهجتى أثرها ، فاذا بقلب الرجل الرهيب يلين ، وبعد أن وجه إلى توبيخا قصيرا ، تركنى أنصرف فى سلام ، دون أن يمضى فى سؤالى ! وأدركت من مسلك الفتاة والعجوزات ـــ حين رأيننى انصرف ـــ أن الرجل الذى خفت منـــه كل ذلك الخوف ، كان عظيم النفع لى ، وأننى ما كنت لأفلت بهذه السهولة لو تركت للنسوة وحدهن ! فقد سمعتهن يتمتمن بحديث لم أكـــد ألقى إليه بالا ، فقد كنت أشعر ـــ ما دام الرجل وسيفه لم يتدخلا فى الأمر ـــ باعتداد ، ونشاط ، وقوة تمكننى من الإفلات منهن ومن هراواتهن !

وبعد أيام قلائل ، بينما كنت أسير فى إحدى الطرقات ، مع رئيس أحد الاديرة المجـــاورة ، كدت أصـــطدم بالرجل ذى السيف !.. وعرفنى الرجل ، فقال يقلدنى بلهجة ساخرة : « إننى أمير ، إننى أمير ، وإنى لجبان . . ولكن ، حذار من أن يعود صاحب السمو مرة أخـــرى ! » . ولم يزد على ذلك ،

بينما نكست أنا رأسى ومضيت فى طريقى دون أن أجسر على التطلع إليه ، وأنا أحمــد له ــ فى قــرارة قلبى ــ حــكمته وتسامحه. وحدست أن العجوزات اللعينات قد عيرنه بسذاجته إذ صدق روايتى ! وكيفما كان الأمر ، فانه كان رجلا طيبا ، برغم أنه من (بييمونت) ، وما تذكرته قط إلا وشكرت له صنيعه، لأن قصتى كانت ساذجة ، وكان أى امرىء فى مكانه خليقا بأن يعيرنى بها ، ولو رغبة فى إثارة الضحك . ومع أن هذه المغامرة لم تنته إلى العواقب التى كنت أخشاها ، إلا أنها جعلتنى ألزم الحذر وقتا طويلا !

وكانت إقامتى لدى مدام دى فيرسيللى قد اكسبتنى بعض المعارف الذين وثقت صلاتى بهم أملا فى أن يستطيعوا لى نفعا. وكان بين الذين أخذت أزورهم منهم ، راهب من أبناء (سافوا) يدعى السيد «جايم» كان معلما لأبناء « الكونت دى ميللاريد ». وكان لا يزال شابا ، وقد اعتاد أن يختلط قليلا بالمجتمع ، ولكنه كان مفعما بالإدراك السليم ، والأمانة ، والذكاء ، كما كان من أشرف الرجال الذين عرفتهم . ولم يكن ذا نفع لى فى الغرض الذى حملنى على زيارته ، إذ لم يكن لديه أى اهتمام يدفعه إلى أن يبحث لى عن منصب . بيد أننى اكتسبت منه منافع أكثر قيمة من ذلك . إذ ظل نفعها يلازمنى طيلة حياتى .. اكتسبت منه دروسا فى الأخلاق القويمة ومبادىء الإدراك السليم . فلقد كنت ، فى ميولى وأفكارى المتقلبة ، أسرف فى الارتفاع أو أسف

فى الانحدار .. فأنا إما « أخيل » أو « ثيرسايتز »(١) .. كنت بطلا فى بعض الأحيان ، وتافها ـ أمعة ـ فى أحيان أخرى ، وقد آلى السيد «جايم» على نفسه أن يردنى إلى مكانى اللائق بى ، وأن يطلعنى على نفسى فى ألوانها الحقيقية ، دون ما إسراف أو تثبيط . كان يحدثنى عن مواهبى فيوليهـا ما كانت جديرة به من تقدير ، ولكنه كان يضيف إلى ذلك أنه كان يرى عقبات تنبعث منها وتحول بينى وبين الإفادة منها على خير وجـوه الإفادة ، ومن ثم فانها خليقة بأن تكون أقل نفعـا لى ، كسلم أرقى عليها إلى الثروة والحظ ، منها كأداة تغنينى عن هـذا الحظ وهذه الثروة !.. وبسط الراهب أمامى صورة صادقة للحياة الإنسانية ، التى لم تكن لدى عنها سوى أفكار زائفة ، فأرانى كيف يستطيع الرجل العاقل أن يكافح من أجل السعادة ـ وسط تيارات القدر المعاكسة ـ وأن يدفع زورق حيـاته برغم الرياح المضـادة ، لكى يصل إليها . وبين لى كيف أنه لا وجود للسعادة الحقة بدون الفطنة والدراية ، وأن هـذه

---

(١) « اخيل » بطل اغريقى ، هو الشخصـية الرئيسية فى « اليـاذة » هوميروس . وكان من أشجع وأجمل ابطال الاغريق ، وقد اشترك فى حرب طروادة . أما « ثيرسايتز » فكان أقبح أبطال هذه الحرب وأكثرهم شراسة وجدالا ، وقد قتله أخيل . والذى يقصده « روسو » من عبارته هنا أنه كان لا يعرف اعتدالا فى تلك الفترة من حياته ، فهو اما مسرف فى الشجاعة ونبل النفس ، واما مسرف فى بشاعة الروح وشراسة الخلق والرغبة فى الجدال عن حق أو عن باطل !

الفطنة أو الدراية تتعلق بكل ظروف الحيـــاة . وبدد محدثى إعجابى بالعظمة والأبهة الظـــاهرتين ، إذ أثبت لى أن أولئك الذين يتبوأون الحكم بين الناس ليسوا أسعد ولا أوفر حكمة وعقلا من المحكومين .. كذلك أنبأنى بشىء ، كثيرا ما تذكرته منذ ذلك الحين : لو أتيح لكل امرىء أن يطلع على قلوب غيره من البشر جميعا ، لاتضح أن عدد الراغبين فى الهبـــوط يفوق عدد الراغبين فى الصعود فى هذه الحياة ! وهذا الخاطر ــ الذى يذهل صدقه العقل ، والذى لا ينطوى على مغالاة ــ ظل ذا نفع كبير لى خلال مجرد حياتى ، إذ ساعدنى على أن أعيش راضيا بمكانى فى الحياة ! .. لقد أطلعنى هـــذا الراهب على أول الأفكار الصحيحة عما هو مشرف ، ممـــا لم يتح لذكائى المتضخم أن يلم به إلا فى أكثر صوره مغالاة ومبالغة . فجعلنى أشعر بأن حب الفضائل السامية نادرا ما يرى فى المجتمع .. وأن المرء إذ يحاول أن يسرف فى العلو ، يغدو معرضا لخطر السقوط .. وأن تعود أداء الواجبات الضـــئيلة باستمرار ، وعلى خير وجه ، لا يتطلب مجهودا أقل من ذاك الذى تتطلبه أعمال البطولة ، ولكن المرء يكسب من الأولى تبجيلا وهنـــاء يفوقان ما يكسبه من الأخيرة .. وأن استمتاع المرء بتقدير أبناء جلدته فى جميع الأوقات ، يفوق على طول الخط استمتاعه بإعجابهم فى مناسبات عابرة !

وفى سبيل تحديد واجبات الإنســـان ، كان لابد من العودة إلى أصول تلك الواجبات .. كما أن الخطوة التى اتخذتها قبل ذلك مباشرة ، والتى كانت حالى الراهنة من نتائجها ، أفضت

بنا إلى الحديث فى الدين . ومن الممكن أن يتصور القارىء عند هذا الحد أن السيد جايم الفاضل ، هو ـ إلى حد كبير على الأقل ـ الأصل الذى قبست عنه شخصية « أسقف سافوا » (١) ولم يكن يقتصد فى صراحته وانطلاقه فى الحديث ، إلا فى نقاط معينة كانت الحكمة تلزمه فيها بأن يكون أكثر تحفظا فى كلامه . وفيما عدا ذلك ، كانت عظاته وأحاسيسه وآراؤه هى هى لا تتبدل ، وكان كل شىء ـ حتى نصحه لى بالعودة إلى أهلى ـ يتسم بما صورته به للرأى العام منذ ذلك الحين . لذلك ، فلا حاجة إلى التوسع فى سرد محادثاتنا ، إذ أن مادتها فى متناول كل امرىء ، وإنما أكتفى بأن أقول إن دروسه ـ التى لم يؤت ما فيها من حكمة ثماره فى البداية ـ أصبحت من بذور الفضيلة والدين التى لم تذو قط فى فؤادى ، والتى لم تحتج إلى أكثر من رعاية يد أخرى عزيزة حبيبة ، كى تثمر وتزدهر !

ومع أن تحولى إلى العقيدة الكاثوليكية لم يكن ـ فى ذلك الحين ـ تحولا كاملا ، إلا أن هذا لم يحرجنى فى شىء . وبدلا من أن أشعر بالملل من أحاديث السيد جايم ، وجدتنى أشغف بها لوضوحها وبساطتها ، ولذلك القدر من حرارة القلب التى كنت أحس أنها تزخر بها .. ولقد أوتيت طبعا ودودا ، وكان تعلقى بالناس دائما ، بسبب الخير الذى أدوه لى ، أقل من تعلقى بهم من جراء الخير الذى كانوا يرجونه لى . ونادرا ما أخطأ شعورى تقدير هذا الأخير . وكذلك كنت صادق الميل

---

(١) أسقف سافوا هو أحد شخصيات كتاب روسو المعروف : « اميل » .

للسيد جايم ، فكنت في الواقع تلميذه الثاني ، وكان لهذا الأمر ـ في تلك الفترة ـ فائدة لا تقدر ، إذ حال بيني وبين الميل إلى الرذيلة التي كان تعطلي عن العمل يجتذبني إليها !

وفي ذات يوم ، تلقيت استدعاء من الكونت ديلا روك ، وكان هذا آخر ما أتوقعه . فان الزيارات العديدة التي قمت بها دون أن أتمكن من الحديث إليه ايأستني منه ، فكففت عن الذهاب إلى داره ، وظننت أنه نسيني ، أو أنه احتفظ بفكرة سيئة عني . ولكني كنت مخطئا ، فانه كان قد شهد ـ أكثر من مرة ـ السرور الذي كنت أؤدي به واجباتي لعمته .. بل إنه ذهب إلى حد أن حدثها عن هذا السرور ، كما أنه تكلم معي بشأنه في وقت كنت قد نسيته فيه !.. ولقد تلقاني في رفق ، وانبأني بأنه رأى أن يدبر لي بالفعل منصبا ـ بدلا من أن يمنيني بوعود لا تقترن بتنفيذ ـ وأنه قد وفق في مسعاه ، وسيعينني في منصب يمكنني من أن أغدو إنسانا ذا قيمة ، وأن ما بقي بعد ذلك رهن باجتهادي . فان الأسرة التي سعى لي عندها كانت ذات نفوذ ومكانة ، ولن أحتاج إلى وساطة أخرى لديها . ثم أضاف أنني ـ وإن كنت سأعامل في البداية كخادم ، كما كان شأني من قبل ـ إلا أنني خليق بأن أطمئن إلى أنهم على أتم استعداد لأن لا يستبقوني في هذا المركز إذا ما استطاع خلقي وسلوكي أن يحملاهم على أن يروا أنني أصلح لعمل أفضل . وخيبت خاتمة الحديث بقسوة ما أوحت إلي به بدايته من آمال مشرقة ، فقلت لنفسي : « ماذا ؟.. أظل خادما دائما ؟! » ، وخامرني إحساس بسخط مرير ، لم تلبث الثقة

أن محنته ، فقد شعرت باننى أقل صلاحية لمثل هذا المركز من أن أخشى أن أظل فيه ! (١)

واصطحبنى محدثى إلى الكونت دى جوفون رئيس ركائب الملكة ، وكبير بيت «سولار» الباذخ ، فاذا الروح الشماء التى اتصف بها هذا الرجل الوقور تضاعف من أثر حفاوته. وسألنى فى اهتمام ، فأجبته فى إخلاص صادق . وقال للكونت ديلا روك أن لى ملامح تروق للعين ، وتبشر بالذكاء ، وأنه ـ فى الواقع ـ لا يرى أننى تنقصنى هذه الموهبة ، ولكنها ليست كل شىء ، ومن ثم فقد كان من اللازم أن يرى ما كنت عليه فى كافة النواحى الأخرى . ثم التفت نحوى وقال : « إن البداية شاقة فى كل الأمور تقريبا يا صغيرى ، على أن مشقتها لن تذهب ـ فى حالتك ـ إلى مدى بعيد . كن أريبا ، واسع إلى إرضاء كل واحد هنا ، وهذا كل ما عليك أن تفعله فى الوقت الحاضر . وفيما عدا هذا ، كن مقداما ، تجد رعاية ! » .. وذهب بعد ذلك مباشرة إلى المركيزة « دى بريى » ـ زوجة ابنه ـ فقدمنى إليها ، ثم قدمنى إلى الأب دى جوفون ، ابنه .. ولاحت لى هذه البداية مؤذنة بالخير ، فقد كنت من التجربة بحيث أدرك أن الخدم لا يلقون كل هذه الحفاوة . والواقع أننى لم أعامل كواحد من الخدم ، بل كنت أتناول وجباتى على مائدة وكيل

---

(١) يقصد أن قلة صلاحيته لمنصب الخادم كانت كفيلة بأن لا يتقن مهامه اتقانا يرضى مخدوميه ، وهذا يؤدى الى احدى نتيجتين : أما أن يسرحوه ، واما أن يقدروا أن مواهبه تؤهله لمنصب أرقى .

أعمال الكونت ، ولم أكن أرتدى الزى المخصص للخدم .
وعندما أرادنى الكونت دى فافريا ــ وهو شاب أحمق خاوى الرأس ــ على أن أركب فى مؤخرة عربته ، حرم جده ركوبى خلف عربة أى فرد ، أو قيامى بخدمة أحد خارج الدار ! على أننى كنت ــ فى الدار ــ أتكفل بالخدمة على المائدة ، وأمارس كافة واجبات الخدم تقريبا ، بيد أننى كنت أقوم بذلك متطوعا إلى حد كبير ، دون أن أكون ملحقا بخدمة فرد معين . وفيما عدا كتابة بعض الخطابات التى كانت تملى على ، وتسجيل بعض الحسابات للكونت دى فافريا ، فاننى كنت حر التصرف فى وقتى طيلة اليوم تقريبا . وكان هذا (الامتحان) الذى لم أفطن إليه ، عظيم الخطورة فى الحقيقة ، بل إنه كان بعيدا عن الرحمة ، لأن هذا الفراغ الطويل كان خليقا بأن يقودنى إلى رذائل ما كان لى أن أقارفها . على أن هذا لم يحدث ، لحسن حظى ، إذ أن دروس السيد جايم كانت قد خلفت أثرا مطبوعا على قلبى ، وقد تولانى ميل إليها كان يدفعنى ــ فى بعض الأوقات ــ إلى أن أتسلل فأذهب للاصغاء إليها ثانية . وأعتقد أن أولئك الذين كانوا يروننى أبارح الدار سرا ، لم تكن لتخطر ببالهم أقل فكرة عن المكان الذى كنت أذهب إليه . وما كان ثمة ما هو أحكم من النصيحة التى أزجاها الراهب إلى بصدد مسلكى : فلقد بدأت عملى بداية تدعو إلى الاعجاب ، وأبديت من الاجتهاد ، واليقظة والتحمس ، ما سحر كل امرىء .
فنصحنى الراهب ــ عن فطنة ــ بأن أخفف من اندفاع الشباب ، خشية أن يخف من تلقاه نفسه تدريجا ، مما قد

يسترعي الانتباه . وقال : « إن القاعدة بأن يقاس تصرفك بالقــدر الذى بدأت به ، فحــاول أن تدبر أمرك بحيث يزداد جهدك بمضي الزمن ، ولكن حذار من أن يقل مجهودك يوما عنه فى اليوم الذى سبقه ! » .

وإذ لم يتجشم أحد عنــاء اكتشاف مواهبى المسكينة ، ولما لم أكن قد اعتبرت ذا مواهب ســوى تلك التى أضفتها على الطبيعة ، لذلك لم يبد لى أن أحدا قد فكر فى أن يفيد منى ، برغم ما كان السيد جوفون قد انبأنى به . وما لبثت أن جدت أمور جعلتنى منسيا تقريبــا .. وفى ذلك الحين كان « المركيز دى بريى » ، ابن « الكونت دى جوفون » ، سفيرا فى فيينا . وقد وقعت أحداث فى البلاط تركت آثارا محسوسة فى الأسرة ، فاذا بكل فرد يظل فى حالة انفعال لبضعة أسابيع ، مما لم يدع لأحد وقتا لأن يفكر فى شأنى . على أننى لم أكن قد خففت من حميتى فى العمل ـــ حتى ذلك الحين ـــ إلا قليلا . وكان ثمــة أمر أفادنى وأضر بى فى آن واحــد : أفادنى فى أنه حفظنى من المغريات الخارجية .. وأضر بى فى أنه جعلنى أقل انتباها إلى واجباتى بعض الشيء !

كانت الآنسة « دى بريى » شابة فى مثل سنى ، بديعــة التكوين ، مليحة المنظر إلى حد كبير ، نضرة المحيا ، ذات شعر حالك السواد .. ومع أنها كانت سمراء ، إلا أنها أوتيت مظهرا رقيقا تمتاز به الشقراوات عادة ، ولم يكن قلبى يقــوى على مقاومته إطلاقا ! وكان الزى الذى ترتديه كعضو فى البــلاط الملكى يلائم الشباب تمامــا ، ويبدى قوامها الجميل فى أبهى

مظاهره ، ويترك صدرها وكتفيها عارية ، ويجعل بشرتها أكثر فتنة ، نظرا للحداد الذى كانت تتسم به ثياب الحاشية فى ذلك الوقت . وقد يقال إنه ليس من شأن الخادم أن يلاحظ هذه الأشياء ، وقد كنت مخطئا بلا ريب ، ولكنى لاحظتها جميعا مع ذلك ،و لم أكن الوحيد الذى لاحظها . فقد كان كبير الخدم، والوصفاء ، يتحدثون عنها على المائدة أحيانا ، فى لهجة خشنة كانت تؤذى شعورى بدرجة قاسية . ومع ذلك فان عقلى لم يفقد اتزانه فيوقعنى فى الحب بكل سهولة ، بل أننى لم أنس نفسى ، ولم أنس مكانى ومركزى ، كما أن رغباتى لم تكن تلقى من الحرية أكثر مما ينبغى !.. وإنما كنت أحب أن أرى الآنسة دى بريى ، وأن أسمعها تنطق ببضع كلمات تكشف عن ذكائها وحسن إدراكها وتواضعها . ولقد اقتصر طموحى على متعة القيام بخدمتها ، فلم أتجاوز حدودى . وكنت أنتهز الفرص دائما — عندما تجتمع الأسرة حول المائدة — لتعزيز هذه الحدود ، فاذا بارح خادمها الخاص مكانه خلف مقعدها لحظة ، بادرت لفورى إلى شغل مكانه . وفيما عدا ذلك كنت أتخذ موقفى فى مواجهتها ، وأحدق فى عينيها لأرى ما توشك أن تطلبه ، وأرقب اللحظة المناسبة لابدال طبقها .. وأى شىء كنت أحجم عن اتيانه لو أنها تنازلت فألقت على أمرا ، أو نظرت إلى ، أو وجهت إلى كلمة واحدة ؟!.. ولكن ، لا ! كان مقضيا على بألا أكون شيئا يذكر لديها ! بل إنها لم تكن تلاحظ وجودى ! ومع ذلك فقد حدث فى إحدى المناسبات أن وجه أخوها — الذى اعتاد أن يكلمنى أحيانا وهو جالس إلى المائدة

ـ عبارة غير مهذبة إلى ، فرددت عليه بكلمات منتقاة ، دقيقة التعبير ، إلى درجة جعلت الآنسة تنتبه فتحول بصرها نحوى . ومع أن هذه النظرة كانت خاطفة ، إلا أنها سحرتنى !.. وفى اليوم التالى ، سنحت فرصة للفوز بنظرة ثانية ، فسارعت إلى استغلالها : فلقد أقيمت وليمة عشاء كبرى لمناسبة معينة ، فرأيت أثناءها ـ لأول مرة ـ أن رئيس الخدم كان يرتدى قبعته على رأسه ، وسيفه إلى جانبه ، مما أدهشنى ! وتحول الحديث مصادفة إلى العبارة التى كان بيت « سولار » يتخذها شعارا ، والتى كانت منقوشة على الرسم الذى تألف منه رمز الأسرة وهى عبارة :

. Tel fiert qui ne tue pas

ولما كان أهل (بييمونت) غير متفقهين فى اللغة الفرنسية ، فقد أشار واحد من الحضور إلى وجود غلطة هجائية فى الشعار ، وأعلن أنه يجب ألا يكون ثمة (T) فى كلمة fiert . وهم كونت دى جوفون الشيخ بأن يجيب ، لولا أن لاحت منه نظرة نحوى ، فرآنى أبتسم دون أن أجسر على أن أقول شيئا ، فأمرنى بأن أتكلم . ومن ثم قلت إننى لا أعتقد أن حرف (T) لم يكن ضروريا ، إذ أن الكلمة من الفرنسية القديمة ، وليست مشتقة من ferus ، (ومعناها متكبر أو متوعد) ، وإنما كانت مشتقة من ferit ، ومعناها يضرب أو يجرح . ومن ثم فإن معنى الشعار ـ كما بدا لى ـ لم يكن : كم من رجال توعدوا ، وإنما .. كم من رجال ضربوا ولم يقتلوا !

والتفت أفراد الجمـــاعة بأسرهم نحوى ، ثم التفتوا إلى أنفسهم ،دون أن ينبسوا ببنت شفة . أبدا ما رأيت فى حياتى مثل هذه الدهشة ! ولكن أكثـــر ما استخف زهوى ، هو أنى رأيت من أسارير الآنسة« دى بريى » أنها كانت جد مسرورة. وتنازلت هذه السيدة الشـــابة المترفعة فرمقتنى بنظـــرة ثانية كانت مساوية ــ على الأقل ــ للأولى ، ثم أدارت عينيها نحو جدها . وبدا أنها كانت تنتظر ، فى شىء من عـــدم الصبر ، المجاملة التى كنت أستحقها ، والتى قدمهـــا الجد إلى ــ فى الحق ــ كاملة وافية ، وفى مظهر من الرضى جعل الحضـــور يسارعون جميعا إلى الانضمام إليه . وكانت اللحظة وجيزة ، ولكنها كانت من أعذب اللحظات من جميع الاعتبارات . كانت من تلك اللحظات التى لاتسنح إلا نادرا جدا ، والتى تضـــع الأمور فى نصابهـــا الطبيعى وتعوض إهانات القـــدر ، وتثأر للكفاءة التى لم تكن تلقى تقديرا . وبعـــد دقائق معـــدودة ، سألتنى الآنسة دى بريى فى صوت واهن مستحى ــ وهى ترفع عينيها نحوى مرة أخرى ــ أن أناولها بعض الشراب . ولست بحاجة إلى أن أقول إننى لم أدعهـــا تنتظر ، ولكنى ارتجفت بعنف وأنا أقترب منها ، حتى أننى أرقت بعض المـــاء على طبقها ، بل وعليها . وسألنى شقيقها ــ فى غباء ــ عن السر فى ارتجافى . ولم يفلح هذا السؤال فى أن يرد إلى جلدى ، بينما تضرج وجه الآنســـة دى بريى حتى طغى الاحمرار على بياض عينيها !

وعند هذا انتهت هذه المغامرة الغرامية التى يلاحظ منهـــا

ـــ كما كان الأمر فى حالة مدام بازيل وخلال بقية حياتى ـــ أنى لم أكن سعيدا فى ختام غرامياتى ! .. وعبثا صرت أبدى اهتماما بالحجرة الملحقة بمخدع مدام دى بريى ـــ الأم ـــ فاننى لم أحظ بأية بادرة أخرى تنم عن انتباه ابنتهـــا إلى ! فقـــد كانت تلج الحجرة وتغادرها دون أن تنظـــر إلى .. كمـــا أننى ـــ من ناحيتى ـــ كنت لا أكاد أجسر على أن أتجـــه بعينى نحوها . بل لقد بلغ من غبائى وارتباكى أننى عنـــدما وقع منها قفازها وهى تمر بى ذات يوم ، لم أجسر على مبارحة مكانى ، بدلا من أن اندفع لالتقاط هـــذا القفاز الذى كنت أتمنى أن أكســـوه بقبلاتى ، وتركت وصيفا فضوليا ـــ كنت على استعداد لأن أخنقه بكل سرور ـــ يلتقطه !.. وممـــا ضاعف انفعالى ، أن تبينت أننى لم أحظ بارضاء مدام دى بريى ، فلم تقتصر على عدم إصدار أوامر إلى ، بل انها لم تعد تتقبل خدماتى البتة ، وسألتنى بلهجة فاترة إذ وجدتنى فى الحجرة الملحقة بمخدعها ـــ فى مناسبتين ـــ عما إذا كنت لا أجد عملا آخر يشغلنى ؟ ومن ثم اضطررت إلى تجنب هذه الحجرة . وقد تحسرت على ذلك فى البداية ، ولكن الشواغل تدخلت فسرعان ما كففت عن التفكير فيها !

وسرى عنى برود «مدام دى بريى» كرم حميها ، الذى انتبه أخيرا إلى وجودى : ففى ليلة المأدبة التى ذكرتها ، تبادل معى حديثا عقب العشاء لنصف ساعة . وبدا أن الحديث أرضاه ، فطربت لذلك . كان هذا الشيخ الطيب أرق قلبا من مدام دى فيرسيللى ـــ وإن لم يكن موهوبا مثلها ـــ وقد كنت معه أحسن حالا مما كنت معها ، وقد طلب إلى أن أكون خادما خاصا للأب

دى جوفون ـــ الذى كان يولينى بعض الاعتبار ـــ عسى أن يفيدنى ذلك إذا أنا أحسنت استغلاله، فيساعدنى علىاكتساب ما كان ينقصنى حتى يهيئنى لمـــا كانوا يعتزمونه لى . ومن ثم أسرعت ـــ فى الصباح التالى ـــ إلى الراهب ، فلم يستقبلنى كخادم ، وإنما حملنى على الجلوس إلى جانب المدفأة ، وأخذ يسألنى بأعظم لطف ، فسرعان ما تبين أن تعلمى ـــ الذى كنت قد بدأته فى كثير من الأمور ـــ لم يكن مكتملا فى أى شىء . وحين وجد أننى كنت ـ بوجه خاص ـ على إلمام قليل باللغةاللاتينية ، تكفل بتلقينى مزيدا منها . واتفقنـــا على أن أذهب إليه فى كل صباح ، فبدأت من الصبـــاح التـــالى مباشرة وهكذا كنت ـــ باحدى تلك المصادفات الغريبة التى ستظهر كثيرا فى مجـــرى حياتى ـ فوق مكانتى وتحتها فى آن واحد ! كنت تلميذا ووصيفا فى بيت واحد ! وبينما ظللت خادما ، حظيت بمدرس كان نبل محتدة خليقا بأن يجعله أستاذا لأبناء الملوك ، ولا أقل منهم !

كان الأب دى جوفون ابنا أصغر فى أسرته ، أعده أهله ليكون أسقفا ، ولهذا السبب فان دراساته لم تذهب إلى أبعد من القدر المعتاد لدى أبناء علية القوم . فقد أوفد إلى جامعـــة (سيينا) ، حيث مكث عدة سنوات ، عاد بعدها بجرعة قوية من العناية الدقيقة بانتقاء الألفاظ ، ومن ثم فانه كان يؤدى فى (تورين) نفس الدور الذى كان يؤديه الأب دى دانجو(١) فى

---

(١) الأب دى دانجو كان من أعضاء المجمع اللغوى الفرنسى ـــ الاكاديمى فرانسيز ـــ فى منتصف القرن السابق على تلك الفترة ، وقد ألف رسائل فى قواعد اللغة الفرنسية .

باريس . وقد دفعه كرهه لعلوم اللاهوت إلى دراسة الآداب، وهو أمر جد مألوف فى إيطاليا لدى أولئك الذين يتعلمون ليشغلوا مناصب دينية . وقد قرأ إنتاج الشعراء فى اهتمام ووعى ، وكتب أشعارا لاتينية وإيطالية مقبولة . وبايجاز ، كان لديه ذوق كاف لأن يشكل ذوقى ، ويدخل شيئا من التنظيم على الركام المهوشى الذى كان رأسى محشوا به . على أنه ـ اما لأن ثرثرتى أعطته فكرة زائفة عن درايتى ، أو لأنه لم يكن يطيق مبادىء اللاتينية المضجرة ـ قد جعلنى أبدأ بداية تفوق المستوى الذى كنت فيه بكثير ، وما أن جعلنى أترجم بضع أساطير عن « فيدروس » ، حتى زج بى فى أشعار «فيرجيل» التى لم أكد أفقه منها شيئا ! ولقد كان مقدورا على دائما ـ كما سيتجلى فيما بعد ـ أن أشرع فى تعلم اللاتينية من جديد ، أكثر من مرة ، دون أن أسير فى الشوط إلى غايته . على أننى ، فى هذه المرة ، اجتهدت فى حمية ، فأخذ الراهب يسبغ اهتمامه على فى عطف لا أستطيع ـ حتى اليوم ـ أن اذكره دون أن يخفق قلبى تأثرا !.. صرت أقضى شطرا كبيرا من فترة الصباح معه لأتلقى العلم ولأؤدى للسيد الخدمات . ولم تكن هذه الخدمات شخصية ، فما سمح لى البتة بأن أؤدى هذا النوع ، وإنما كنت اكتب ما يمليه على وأنسخ ما يعهد به إلى ، فكانت واجباتى كسكرتير أكثر نفعا لى من دراساتى كتلميذ !.. فاننى ـ بهذه الطريقة ـ لم أتعلم الإيطالية فى أرقى أساليب بلاغتها فحسب ، وإنما اقتبست ذوقا أدبيا ، واكتسبت بعض المعرفة بالكتب الجيدة التى كان من المستحيل

الحصول عليها من مكتبة « لاتريبو » ، والتى كانت عظيمة النفع لى فيما بعد ، عندما شرعت فى الاعتماد على نفسى فى التأليف !

تلك كانت الفترة الوحيدة فى حياتى التى كان من المعقول أن أطمع فيها فى النجاح ، دون ما مشروعات خيالية ! .. وأخذ الراهب ـــ الذى كان جد راض عنى ـــ يحدث كل شخص عن ذكائى . وأولانى أبوه تقديرا خاصا ، حتى لقد ذكر لى الكونت دى فافريا أنه تحدث عنى إلى الملك !.. حتى « مدام دى بريى » تخلت عن مسلكها المهين نحوى . وبإيجاز ، أصبحت ذا حظوة فى الدار ، مما أثار غيرة الخدم الآخرين ، الذين أدركوا ـــ إذ رأونى أتشرف بتلقى الدروس على يدى ابن مولاهم ـــ أنه لم يعد مقدرا لى أن أبقى واحدا منهم !

وبقدر ما أمكننى أن أحدس عن وجهات النظر التى كانت تعالج أمرى ـــ من بضع كلمات كانت تلقى إلى فى عجلة ، ولم أفكر فيها مليا إلا فيما بعد ـــ يبدو لى أن آل « سولار » كانوا تواقين إلى مناصب السفارات ، وربما إلى المناصب الوزارية فى المستقبل ، ومن ثم فقد كانوا على استعداد لأن يتولوا ـــ بكل سرور ـــ تعليم شخص موهوب ، جدير بالثقة ، يصبح فيما بعد ـ لاعتماده المطلق على أسرتهم فى معاشه ـ مستودع ثقتها ، ويستطيع أن يخدمها بإخلاص . وكان هذا المشروع من الكونت دى جوفون مشروعا نبيلا حكيما كريما ، جديرا حقا بأن يصدر عن رجل نبيل عظيم كريم بعيد النظر . وغنى عن الذكر أننى ـ إذ ذاك ـــ لم أستطع أن أحيط بكل نطاقه ، فقد

كان فوق مستوى إدراكى ، كما أنه كان يتطلب فترة طويلة من التبعيـــة والانصـــياع . وكان طموحى الأرعن لا يرى الحظ الحسن إلا فى وسط المغامرات ! ولما لم يكن لأية امرأة شـــأن بهذا المشروع ، فقد بدت لى هذه الوسيلة من وسائل النجاح بطيئة ومضنية ، وكئيبـــة .. فى حين أنه كان خليقـــا بى أن اعتبرها آمن وأشرف من أية وسيلة أخـــرى ، لنفس السبب الذى ذكرته ، عن عدم تدخل النساء فيها ، فان ذلك النوع من الجدارة الذى تقبل النساء على بسط حمايتهن عليه ، لا يتسم بالطابع الشريف الرفيع الذى يتســـم به النـــوع الذى كان مفترضا أننى أمتلكه !

ومضى كل شىء على أبدع حال ، فاكتسبت احترام الجميع أو بالأخرى انتزعته تقريبا ! وانقضت فترة الاختبار ، وأصبحت مرموقا فى الدار ـــ بوجه عام ـــ كشاب يبشر مستقبله بخير عظيم . ولئن كان قد قدر له الا يشـــغل المركز الجدير به ، فان كل امرىء كان يتوقع أن يرقى إلى هذا المركز . بيد أن مكانى لم يكن ذاك الذى قدره لى الجميع ، وقد كتب على أن لا أبلغه إلا عن طريق جد وعرة .. وهذا يفضى بى إلى خلة من تلك الخلال الشخصية التى امتزت بها ، والتى لا أحتاج إلى أكثر من أن أبسطها للقارىء دون مزيد من الإسهاب .

ذلك أنه بالرغم من أن (تورين) كانت تضم كثيرين سواى ممن اعتنقوا الكثلكة حديثا ، إلا أننى لم أكن أميل إليهم ، ولم أسع قط إلى لقاء أحد منهم . على أننى كنت قد عرفت ـــ فيمن تعرفت إليهم ـــ شخصـــا من أهل (جنيف) يدعى الســـيد

« موسار » ، ويلقب بـ « ذى الفم الأعوج » ، وكان من رسامى التحف الدقيقة ، وذا صلة بى . وقد تبين أننى كنت أقيم لدى الكونت دى جوفون ، فجاء ليرانى مع شخص آخر من (جنيف) يدعى «باكل» ، كنت زميلا له حين كنت أتدرب على الحرفة .

وكان « باكل » هـــذا مسليا ، شديد المرح ، راوية للفكاهات والنوادر التى كانت تبدو مستملحة لمن فى مثل سنه . ومن ثم ، فان لكم أن تتصـــوروا كيف افتتنت فجأة بالســـيد باكل إلى درجة لم أعد معها أقوى على أن أفارقه !.. وكان قد اعتزم الرحيل عائدا إلى (جنيف) بعد وقت قصير ، فيا للخســـارة التى خيل إلى أننى سأمنى بها !.. وإذ تبينت مداها ، رأيت أن أفيد إلى أقصى حد ـ على الأقل ـ من الوقت الباقى قبل رحيله ، فلم أكن أفارق جواره اطلاقا ، أو بالأحرى أنه هو الذى لم يكن يفارقنى ، لأننى ـ فى البداية ـ لم أبلغ من الطيش الحد الذى كان يجعلنى أقضى اليوم كله معه خارج القصر دون إذن . على أنهم سرعان ما تبينوا أنه كان يشغل كل وقتى : فحرموا عليـــه ولوج الدار ، مما أثار حنقى فنسيت كل شىء عدا صديقى باكل ، ولم أعد أقترب من الراهب أو الكونت ، ولم أعد أشاهد فى الدار ! بل إننى لم أكترث للوم والتأنيب ، فأنذرت بالطرد .. وكان فى ذلك دمارى ، إذ أغرانى بأن من الممكن ألا يرحل « باكل » دون رفيق ! ومنـــذ تلك اللحظة لم أعد أرى مسرة ، ولا مصيرا ، ولا سعادة تفوق القيام بمثل تلك الرحلة ! ومما ضاعف هناءتى المرتقبة ، أن مدام دى فاران لاحت لى فى نهايتها ، ولكن .. على بعد سحيق ، إذ لم يكن

ليخطر ببالى قط أن أعود إلى جنيف بالذات !.. وأخذت رؤى الجبال والمروج والغابات والجداول والقرى تمر أمام ناظرى فى تتابع لا نهاية له ، وقد تجددت مفاتنها !.. وبدا أن هذه الرحلة قد ابتلعت كل حياتى ، فرحت أتذكر فى ابتهاج كيف سحرتنى هذه الرحلة وأنا قادم إلى (تورين) ، فما بالك إذا ما استمتعت ـ إلى جانب كل سحر الاستقلال ـ ببهجة جديدة ، تتمثل فى صحبة صديق فى مثل سنى وميولى ، أوتى روحا طروبا .. لا سيما وأنه لن تكون ثمة قيود ، ولا واجبات، ولا رقابة ، ولا اضطرار إلى الذهاب أو البقاء فى أى مكان ، ما لم يرق لنا ذلك !.. وخيل إلى أن المرء يكون أحمق ولا ريب إذا ما ضحى بمثل هذا الحظ الطيب من أجل خطط طموحه ، بطيئة ، شاقة ، غير مؤكدة التحقق !.. خطط لم تكن ـ حتى إذا سلمنا بأنها قد تتحقق يوما ما ، وبرغم كل اشراقها ووميضها ـ لتعادل ربع ساعة من السرور الحقيقى ومن حرية الشباب !

وإذ تملكتنى هذه الفكرة الحكيمة ! أقبلت على التصرف بطريقة أفلحت فى حمل القوم على فصلى من خدمتهم ، وإن كان هذا لم يتم فى الواقع دون كثير من العناء . وهكذا ، ذات مساء ، أسلمنى رئيس الخدم عند عودتى إلى الدار أمرا من الكونت بفصلى ، وكان هذا هو عين ما رجوت !.. غير أننى كنت ـ بالرغم من نفسى ـ أدرك جموح مسلكى ، وقد أضفت إليه جورا وعقوقا حين خيل إلى أننى بحمل القوم على طردى أستطيع ان القى اللوم على سواى ، وأن أنصف نفسى وأبرز

مصيرى ، وكأننى كنت مضطرا ـــ بالرغم منى ـــ إلى انتهاج المسلك الذى كنت فى الواقع المسئول الوحيد عنه !

وقبل أن أرحل فى الصباح التالى ، أرسل « الكونت دى فافريا » يدعونى لمقابلته . ولمــا كانـــوا يرون أننى فقدت كل تعقل ، وأننى قد لا ألبى الدعوة ، فقد ذكر لى رئيس الخدم أنه سيعطينى بعد تلك المقابلة مبلغا من المـــال خصص لى ، برغم أننى كنت لا أستحقه بالتأكيد ، وذلك لأنهم لم يكونوا قد قرروا لى أجرا ، نظرا لأنهم لم يكونوا يعتزمون استبقائى فى منصب الخادم !

ومع ما كان عليه الكونت دي فافريا منصغر السن وضآلة التفكير ، فانه تحدث إلى فى هـــذه المناسبة بما ينم عن وعى وعطف ، بل إننى لأكاد أقول إنه تحدث بحنان بالغ ، وإخلاص صادق ، وفى تلطف يهفو بالقلب ، فأطلعنى على عطف عمـــه الراهب على ، وعلى نوايا جده بشأنى . وأخيرا .. وبعد أن عرض على بأوضح ما كان فى وسعه ، كل الميزات التى كنت أضحى بها لأندفع نحو هلاكى ، عرض أن يتوسط لى فى البقاء على شريطة أن أتخلى عن ذلك الشاب الشقى الذى أفسدنى . وكان من الجلى أنه لم يقل كل هذا من تلقاء نفسه ، فقد كنت ـــ برغم حماقتى العمياء ـــ شديد الشعور بكل ما كان مخدومى الشيخ يكنه لى من إشفاق ، وقـــد تأثرت به ، ولكن رحلتى الحبيبة كانت منقوشة بخطوط غائرة على صفحة خيالى ، فلم يكن فى وسع أية مغريات أن تمحوها ! كنت قد فقدت رشدى تماما ، فاشتد عنادى وصـــلابة رأيى ، وتذرعت بكرامتى ،

وأجبت ـ فى صلف ـ بأننى قد تلقيت أمر فصلى من الخدمة ، وأننى تقبلته ، وأن أوان سحبه قد فات ، وأننى قد عقدت العزم على ألا أسمح لنفسى بأن أطرد مرتين من بيت واحد ، مهما تكن العواقب !. وإذ ذاك رمانى الشاب بما استحق من ألقاب ، وقد ثار عن حق ، وأمسك بكتفى فألقى بى خارج غرفته وأوصد الباب خلفى !.. فانطلقت مزهوا وكأننى أحرزت نصرا باهرا ! وخوفا من أن أضطر إلى احتمال صراع ثان ، تركت للخسة أن تحملنى على الرحيل بدون أن أشكر للراهب كرمه !

ولتكوين فكرة عن مدى ما كان جنونى يسوقنى إليه فى تلك اللحظة ، يجدر بالمرء أن يعرف إلى أية درجة يثور فؤادى بسبب التفاهات البسيطة ، وبأى عنف يندفع وراء الشىء الذى يستهويه ، مهما يكن هذا الشىء خلوا من أية قيمة !.. ذلك أن أغرب الخطط ، وأكثرها طيشا صبيانيا ، وأشدها حماقة ، تتمشى مع الفكرة التى تحلو وتعززها ، حتى اقتنع بحكمة الإقبال على تنفيذها !.. أفهناك من يصدق أن إنسانا ما ـ لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره ـ يستطيع أن يشيد آماله فى العيش ، ما بقى من عمره ، على زجاجة فارغة ؟.. إذن فاسمعوا : كان الأب دى جوفون قد أهدانى ـ قبل ذلك بأسابيع قلائل ـ نافورة صغيرة من نافورات هيرو[1] ، اغتبطت بها . وإذ كنا لا نكف عن اللعب بهذه

(١) نافورات صغيرة الحجم ، كاللعب ، اخترعها مهندس من أبناء الاسكندرية يدعى « هيرو » .

النافورة ، أثنـــاء حديثنا عن رحلتنـــا خطر لباكل العاقل ، ولى ، أن فى وسع النافورة أن تنفعنا فى إطالة الرحلة ، فأى شىء فى الدنيا أغرب وأدعى لإثارة الفضـــول من نافـــورة هيرو ؟.. وكانت هذه الفكرة هى الأساس الذى بنينا عليـــه صرح خطتنا المقبلة ، فلم يبق علينا سوى أن نجمع فلاحى كل قرية حول نافورتنا ، فينهال علينا الطعام وكل المشتهيات فى وفرة عارمة ـــ فقد كنا نوقن بأن المؤن لا تكلف منتجيها شيئا ، وأن عدم تزويدهم المرتحلين بها ليس سوى شر من ناحيتهم ! ـــ ومن ثم رحنا نتوقع أن نجد أعراسا ومهرجانات فى كل مكان مما يمكننا ـــ دون أن ننفق شـــيئا اللهم إلا أنفاسنا وميـــاه نافورتنا ـــ من أن نكسب نفقات رحلتنا خـــلال (بييمونت) و (سافوا) وفرنسا .. بل العالم كله فى الواقع !.. وعلى أثر ذلك أخذنا نرسم خططا لا حصر لها لرحلتنا ، ثم رأينا أن نتجه أولا نحو الشمال ، للاستمتاع بعبور الألب !

٦ ـــ من سنة ١٧٣١ إلى سنة ١٧٣٢

وهكذا كانت الخطـــة التى شرعت فيها ، هاجرا ـــ دون ما ندم ـــ راعى ، وأستاذى ، ودراساتى ، وآمالى ومستقبلا كان شـــبه مؤكد ، لأبدأ حيـــاة التشرد المنتظم !.. وودعت العاصمة [١] ، والقصر الملكى ، والطموح ، والزهو ، والحب ، والنساء الحسان ، وكل المغامرات المثيرة ، التى حملنى الأمل فى

---

(١) كانت (تورين) يومئذ عاصمة امارة (بييمونت) .

العثور عليها إلى (تورين) قبل ذلك بعـــام .. وانطلقت مع نافـــورتى وصـــديقى « باكل » ، بكيس خفيف ، ولكن بقلب ملىء بالغبطة ، وبال لا يفكر فى شىء سوى استمرار سعادة التجوال التى قصرت عليها بغتة مشروعاتى البراقة . ولقد جعلت هـــذه الرحلة الشـــاذة ملائمـــة بالقـــدر الذى كنت أتوقعـــه ، وإن لم يكن ذلك بنفس الطريقـــة التى اردتهـــا تماما ، ذلك لأنه بالرغم من أن نافورتنا كانت ملهاة لصاحبات الفنادق الريفية وخدمهن لبضع لحظات ، إلا أنا كنا نضطر ـــ مع ذلك ـــ إلى أن ندفع نفقـــات إقامتنـــا إذا ما هممنـــا باستئناف الرحيل . بيد أن هذا لم يزعجنا إلا قليلا ، ولم نفكر فى استغلال النافورة كمورد جدى للدخل ، إلا عنـــدما بدأت نقودنا تنفد . على أن ثمة حادثا أعفانا من العناء ، فقد انكسرت النافورة ونحن على مقربة من (برامان) ، والواقع أن الوقت كان قد حان ، إذ كنا قد شعرنا ـــ دون أن نجرؤ على المصارحة ـــ بأن التعب قد بدأ يدب فينا . وقد جعلنا هذا النحس أكثر ابتهاجا من ذى قبل ، فضحكنا كثيرا من غبائنـــا ، إذ نسينا أن ثيابنا وأحذيتنا لن تلبث أن تبلى ، وإذ اعتقدنا أن بوسعنا أن نبتاع جديدا غيرها بعرض نافورتنا على الانظار !.. وهكذا تابعنا رحلتنا ونحن فى مثل ما بدأناها فيه من حبور ، وإن يممنا ـــ فى اتجاه مباشر أكثر من ذى قبل ـــ شطر الغاية التى كانت مواردنا المطردة النضوب تحتم علينا بلوغها .

وفى (شامبيرى) بدأت أطيل التفكير ، لا بسبب الطيش الذى أقدمت عليه ـــ فليس من إنسان أقدر منى على تعزية نفســـه

سريعا ، وبشكل كامل ، فيما يتعلق بالماضى ــ وإنما بسبب الاستقبال الذى كان يرتقبنى لدى مدام دى فاران ، فقد كنت أتطلع إلى منزلها كما لو كان منزلى الخاص . وكنت قد كتبت إليها أنبئها بالتحاقى بالخدمة فى دار الكونت دى جوفون ، وقد عرفت مركزى هناك ، وعندما ، هنأتنى أزجت إلى بعض النصائح الجليلة فيما يتعلق بالسلوك الذى يجب أن أنتهجه جزاء الكرم الذى أبدى نحوى . ولقد اعتبرت السيدة أن مستقبلى بات مضمونا ، اللهم إلا إذا أفسدته أنا بخطأ منى .. ترى ما الذى ستقوله حين ترانى عند وصولى !.. أبدا لم يخطر ببالى احتمال أنها قد توصد الباب دونى ، ولكنى كنت أرهب الحزن الذى كنت موشكا على أن أسببه لها ، وكنت فى خوف من تأنيباتها ، التى كانت أقسى على نفسى من أعظم شقاء ! فاعتزمت أن أتحمل كل هذا فى صمت ، وأن أبذل كل ما فى وسعى لأهدىء من أساها ، فما كنت أرى لى فى الحياة ملاذا سواها ، وكان احتمال العيش فى خزى منها أمرا مستحيلا !

على أن الشطر الأكبر من قلقى كان بسبب زميلى فى السفر ، فما كنت راغبا فى أن أثقل كاهلها به إلى جانبى ، كما كنت أخشى الا يسهل على التخلص منه ! وقد هيأته للفراق بأن أخذت أعامله ــ فى اليوم الأخير ــ بشىء من الفتور ، ففهم الوغد أمرى ــ فقد كان طائشا أكثر منه غبيا ! ــ وقد ظننت أن تقلبى سيخز قلبه ، فاذا بى مخطىء ، إذ كان اللعين لا يسمح لشىء بأن يتغلغل إلى قلبه .. فما أن أرسينا أقدامنا

على أرض (أنيسى) ، حتى قال لى : « ها أنتذا فى بلدك » ، وعانقنى مودعـــا ، ثم نكص على قدميـــه ، واختفى .. فلم أسمع عنه بعد ذلك البتة ! وقد دام تعارفنا وصداقتنا ستة أشهر فى مجموعهما ، ولكن تبعاتهما ستبقى ما حييت !

* * *

ولشد ما يخفق قلبى وأنا أقترب من دارها ! .. لقد أخذت ساقاى ترتجفان تحتى ، ورانت غشـــاوة على عينى ، فلم أر شيئا ، ولا سمعت شيئا ، وما كان بوسعى أن أعرف شخصا ! .. واضطررت إلى أن أتوقف عـــدة مرات لأتمالك أنفاسى وأسيطر على نفسى . أفكان الخـــوف من ألا أحظى بالمعونة التى كنت بحاجة إليها هو الذى أزعجنى بهذا القدر ؟.. وهل يبعث الخوف من الجوع مثل هذا الجزع فى شخص فى مثـــل سنى ؟.. لا ! هذا ما أعلنه فى صدق وكبرياء ، فما استطاع الاهتمام بالنفس ولا استطاعت الحاجة قط ـــ فى أية لحظـــة من حياتى ـــ أن يفتحا قلبى أو يغلقاه !.. ففى مجرى حياتى ـــ غير المستقيم ، والذى تقترن ذكراه بكثرة تعرجاته وانحناءاته ، وبكثرة ما كنت خلاله بلا مأوى ولا خبز ـــ ظللت دائمـــا أنظر إلى الثراء والفقر نظرة سواء ! ولقد كان بوسعى فى أوقات الحاجة أن اتسول أو أسرق ـــ كما يفعل أى امرىء آخر ـــ ولكنى لم أكرب نفسى قط من جراء انحدارى إلى هذا الدرك . وأعتقـــد أن قليلين هم الذين صـــعدوا من الزفرات قـــدر ما صعدت ، وذرفوا من الدموع فى حياتهم مقدار ما ذرفت ، ولكن الفقر أو خوف الانحطاط إليـــه لم يقويـــا قط على أن

أنفث زفرة ، أو أذرف دمعة ! .. إن نفسى ــ التى خلقت فى حصانة ضد الحظ ، فهى لا تتأثر به ـ لم تعرف قط استكانة إلى نعمة .. وعندما لا أفتقر إلى شىء يمكن أن تمس إليه الحاجة ، فذاك هو الوقت الذى أشعر فيه بأننى أشقى المخلوقات ! .

***

ما أن مثلت امام مدام دى فاران ، حتى طمأننى مسلكها ! وقد ارتجفت لأول نبرة من صوتها ، وارتميت على قدميهـــا . وفى اختلاجات تنم عن أقوى غبطة جياشة ، الصقت شفتى بيدها ! ولست أدرى هل كانت قد سمعت أى نبأ عنى ، ولكن وجهها لم ينم عن كثير دهشة أو استياء ، بل قالت فى صوت حنون : « يا صغيرى المسكين ! أهذا أنت مرة أخرى ؟ كنت أعرف أنك أصغر من أن تقوم بهذه الرحلة . اننى مغتبطة على أية حال لأنها لم تنته إلى ما كنت أخشـــاه ! » .. ثم حملتنى على أن أروى لها قصتى ، التى لم تكن طويلة ، والتى رويتها بأمانة ، وإن كتمت بعض تفصيلات قليلة ، دون أن اتستر على نفسى أو أستميح لها الاعذار !

وكان تدبير المكان الذى أنام فيـــه مشكلة ، فاستشارت وصيفتها . ولم أجسر على أن أنبس ببنت شفة خلال الحديث، ولكنى لم أكد أسمع أن بوسعى أن أنام فى الدار ، حتى كدت أعجز عن تمالك نفسى !.. ورأيت متاعى القليـــل يحمل إلى الغرفة التى عينت لى ، بمثل المشاعر التى رأى بها «سان برو»

محفته تنقل إلى مأوى عربات مدام « دى ولمار »(١) . ومما ضاعف اغتباطى أننى علمت أن هـذه الخطـوة لم تكن أمرا عابرا ، ففى اللحظة التى كان يبدو على فيها أننى أفكر فى شىء آخر ، سمعت السيدة تقول : « دعيهم يقولون ما يشاءون » ، فقد عقدت العزم ـ مذ ردته العناية الالهية إلى ـ على أن لا أفارقه ! » .

وهكذا استقر بى المقام أخيرا فى دراهـا . على أن هـذا الاستقرار لم يكن بعد هو ذاك الذى أتخذه بداية لتاريخ الأيام السعيدة فى حياتى ، ولكنه ساعد على تعبيد الطريق إلى ذلك اليوم . فبالرغم من أن هذا الشعور المرهف فى القلب ـ الذى يجعلنا نغتبط بأنفسنا غبطة صادقة ـ هو من صنع الطبيعة ، وربما كان من نتاج نظامها ، فانه يتطلب مواقف معينة تنميه. وبدون الأسباب التى تحدث هذه التنمية ، فان الرجل الذى ولد بحساسية قوية قد لا يشعر أو يحس بشىء ، وربما مات دون أن يعرف قط حقيقة نفسه !.. ولقد كان هذا هو الشأن معى ـ أو ما يقرب منه ـ حتى ذلك الحين . وربما كنت مسوقا إلى أن أبقى كذلك دائما ، لو لم يقدر لى أن أعرف مدام دى فاران، أو لو أننى ـ بعد أن عرفتها ـ لم أقم معها وقتا كافيا لأن أستمرىء حلاوة المشاعر الرقيقة الحانية التى ألهمتنيها . بل إننى لأجرؤ على القول بأن ذاك الذى لا يشعر بغير الحب

---

(١) « سان برو » و « مدام دى ولمار » من شخصيات قصة روسو الطويلة : « هيلويز الجديدة » .

وحده ، لا يحس بأحلى ما فى الحياة . فأنا أعرف شعورا آخر ربما كان أقل سورة وحرارة ، ولكنه أكثر من الحب متعة ألف مرة !.. وهو قد يقترن أحيانا بالحب ، ولكنه كثيرا ما يكون منفصلا عنه . وليس هذا الشعور هو الصداقة البسيطة ، وإنما هو أشد منها عنفا فى غوايته ، وأكثر حنانا فى رقته . ولست أعتقد أن من الممكن الشعور به نحو شخص من جنسك .. وعلى كل حال ، فانني عرفت الصداقة كما لم يعرفها أى رجل آخر ، ومع ذلك فانني لم أحس بهذا الشعور فى حضور أى شخص من أصدقائى . وهو شعور غامض خفى إلى حد ما ، ولكنه لا يلبث أن يتضح فيما بعد ، وفيما ينجم عنه ـــ فالواقع أنه ليس من سبيل إلى وصف المشاعر بدرجة مرضية ، إلا عن طريق آثارها ونتائجها !

كانت مدام دى فاران تقيم فى بيت عتيق ، بالغ الاتســـاع بحيث يحتوى على غرفة بديعة تزيد عن حاجة السيدة ، فكانت تتخذ منها حجرة للجلوس . وفى هذه الحجرة أنزلتنى . وكانت تفضى إلى الدرب الذى سبق أن تكلمت عنه ، والذى تم فيه أول لقاء بيننا . وعلى ضفة الجدول المقابلة ، كانت البساتين والريف تبدو للعين . ولم يكن هذا المنظر قليل الشأن بالنسبة للشاب الذى شغل الحجرة ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى ـ منذ كنت أقيم فى (بوسى) ـــ التى رأيت فيها أية خضرة أمام نافذتى ! كنت دائما محوطا بالجدران ، وليس أمام عينى سوى سقوف الدور ، أو سمرة الطرقات الكالحة .. فبأى طـــرب شعرت بسحر التجديد الذى عزز ميلى إلى المشاعر الرقيقة

الحانية !.. لقد اعتبرت هـذا المنظر الفاتن كلون آخـر من ألوان كرم ربة نعمتى العزيزة ، ولاح لى أنها هى التى وضعت كل شىء هناك ، خصيصا من أجلى ، فغرست نفسى هنـاك إلى جوارها ، وقد امتلأت بهناءة وادعـة .. وصرت أرى راعيتى فى كل مكان ، وسط الزهور والخضرة . كانت مفاتنها تمتزج بمفاتن الربيع أمام عينى بطريقة لا يلم بها ادراكى !.. وانتفخ قلبى ــ الذى كان مكبوتا حتى ذلك الحين ــ وامتد فى هذا الفضاء غير المحدود ، وأصبحت زفراتى تجد متنفسـا طليقا وسط البساتين !

ولم أجد لدى مدام دى فاران الأبهة التى رأيتها فى (تورين) ، ولكنى وجدت نظافة ، وأناقة ، وخيرا فياضا ، لا تقترن بهـا الغطرسة والكبرياء قط !. كانت تمتلك أطباقا قليلة العدد ، فلا صينى ولا خزف ، ولا لحوم فى مخزن المئونة ، ولا خمور أجنبية فى أقبية القصر ! .. ولكن المطبخ وقبـو الدار كانا مزودين بما يكفى أى امرىء ، وكانت السيدة تقدم فى الأقداح الدلفية(١) قهوة رائعـة . وكان كل من يزورهـا يدعى إلى العشاء على مائدتها . وما من عامل ، أو رسـول ، أو عابر طريق مر بالدار دون أن يأكل ويشرب . وكان خدمها يتألفون من وصيفة ــ على قسط من الجمال ــ من بلدة (فريبور) تدعى « ميرسيريه » ، ووصيف من وطنها يدعى « كلود آنيه » ــ سأذكر عنه مزيدا فيما بعد ــ وطاهية ، واثنين من الحمالين

---

(١) الاقداح الدلفية : أقداح من خزف مصنوع فى هولندا .

كانا يستأجران لحمل المحفـــة « السيدان »(٢) فى المناسبات النادرة التى كانت السيدة تؤدى فيها الزيارات . وكان هذا العدد من الخدم عبئا على معاش سنوى قدره ألفا « ليبرة » ، لولا أن دخل السيدة الضئيل كان ــ إذا أحسن تدبير انفاقه ــ كافيا فى بلد كانت الأرض فيه سخية جدا ، والنقود شحيحة جدا ! ولكن الاقتصاد لم يكن لسوء الحظ من الصفات الحبيبة لدى السيدة ، فكانت تستدين ، ثم تدفع بقدر ما تستطيع . كانت النقود تذهب فى كل ناحية ، والأمـــور تسير على خير ما يمكن أن تسير !

وكانت الطريقة التى نظمت بهـــا دارها هى عين ماكانت أوثره لو عهد إلى اختيار هذا التنظيم ، ومن ثم فمن الميسور تصور مبلغ سرورى بالحياة معها ، والإفادة منها . أما الأمر الذى كان أقل مدعاة للسرور ، فهو أننى كنت مضطرا إلى أن أبقى جالسا إلى المائدة وقتا طويلا ، فقد كانت السيدة لا تكاد تحتمل أن تشم الغبير المتصاعد من الحساء وأصناف الطعام الأخرى عندما تحمل إلى المـــائدة ، إذ كانت الرائحة تسلمها إلى الإغماء ! وقد دام هذا النفور بعض الوقت ، ولكنها لم تلبث أن تمالكت نفسها تدريجا . وكانت إذا جلست إلى المـــائدة انصرفت إلى الكلام ، دون أن تأكل شيئا ، فلم يكن ينقضى أقل من نصف ساعة قبل أن تتناول قطعة لحم ! وكان بوسعى ــ

---

(١) « السيدان » هى محفة مؤلفة من مقعد ذى مظلة ، يحمله رجلان ، وكانت من مركبات ذلك العصر [م]

فى هذه الفترة ــ أن أتناول ثلاث وجبات ، ومن ثم فاننى كنت دائما أفرغ من طعامى قبل أن تشرع هى فى الأكل بوقت طويل. وقد اعتدت ــ لكى أؤنسها ــ أن أشرع فى الأكل مرة أخرى ! وبهذا الوضع كنت أتناول غذاء شخصين ، وما شعرت إطلاقا بضير من ذلك . وبعبارة موجزة : أسلمت نفسى للذة الشعور بالراحة ، التى كانت تخامرنى عندما أكون معها ، لا سيما وأن هذه اللذة التى كنت استمرئها كانت خلوا من أى قلق بشأن وسائل الاحتفاظ بها ! . . ولما لم أكن قد أشركت بعد ــ بثقة تامة ــ فى شئون السيدة ، فقد رحت أتصور أن الحال الراهنة قد تستمر على الدوام . ولقد وجدت نفسى هذه الرفاهية فى دارها فى أوقات أخرى بعد ذلك ، ولكنى كنت قد ألممت بحقيقة وضعها ، وتبينت أنها كانت تستنفد معاشها قبل أن تتسلمه ، ومن ثم فلم أكن أشعر بعين الغبطة التى شعرت بها فى ذلك الوقت ! . . إن التطلع إلى المستقبل يفسد دائما هناءتى . فليس من المفيد لى فى شىء أن أتنبأ بالمستقبل ، إذ أننى لم أعرف البتة كيف اتفاداه !

ولقد توطد بينى وبين مدام دى فاران ــ منذ اليوم الأول ــ أكمل ود وألفة ، وقد داما خلال ما بقى من عمرها . كان اسمى لديها « الصغير » ، وكان اسمها عندى « ماما » ، وقد ظللنا دائما «الصغير» و « ماما » ، حتى عندما محت السنون كل فارق بيننا تقريبا . وإنى لأرى أن هذين الاسمين يعطيان فكرة جد رائعة عن لهجة أحاديثنا ، وعن بساطة الأسلوب الذى كان مرعيا فى سلوكنا ، وعن العلاقة المتبادلة بين قلبينا

قبل كل شيء آخر !.. كانت ــ بالنسبة لي ــ أرق أم ، فلم تسع قط إلى ما فيه سرورها ، وإنما كانت تسعى دائمـــا إلى ما فيه الخير لي . وإذا كانت الشهوة قد خالطت يوما تعلقها بي ، فانها لم تبدل من طابع هذا التعلق ، وإنما جعلته أكثر فتنة .. واسكرتني ببهجة الظفر بأم شابة حسناء كنت أجد غبطة في أن الاطفها (١) .. « ألاطفها » بأدق ما في الكلمة من معنى ، فما خطر لهـــا قط أن تقتصد في قبـــلات الأم ، أو في عناقاتها الرقيقة وملاطفاتها ، ومن المؤكد انه لم يخطر ببـــالي اطلاقا أن أسيء استغلال ذلك . وقد يقال إننا ــ في النهاية ــ ارتبطنا بعلاقة ذات طابع مختلف ، وإني لأقر بهـــذا ، ولكني أرى أن أتريث قليلا ، فليس في وسعي أن أروي كل شيء في التو !

كانت لحظة لقائنا الأول ، هي اللحظة الوحيدة التي جعلتني أشعر بها مليئة بالانفعال العاطفي الحقيقي . على أن هـــذه اللحظة كانت من نتائج المفاجأة .. ولم تجسر نظراتي قط على أن تتسلل مستخفية إلى ما تحت المنديل الذي كان يحيط بعنق السيدة ، برغم أن سوء التستر على بدانة هـــذا العنق كان خليقا بأن يجتذب النظر . ولم أكن أشعر في حضـــورها بأية نزوات أو شهوات، بل كنت في حالة استجمام فاتن واستمتاع، وإن لم أدر فيم كان هـــذا الاستمتاع !.. وكان بوسعي أن أقضي في هذه الحال كل حياتي الدنيوية ، بل وحياتي الأخرى،

---

(١) الملاطفة هنا يقصد بها التحسس والقبلات والغزل .

دون ما لحظة من الملل والسـأم ، فان مدام دى فاران هى الشخص الوحيد الذى لم أشعر معه بذلك الفتور والنضوب اللذين يتطرقان إلى الحديث فيجعلان الاضطرار إلى المضى فيه ضربا من التضحية والاستشهاد !.. ولم يكن كلامنا الهامس فى خلواتنا حديثا بقدر ما كان ثرثرة لا ينضب لها معين ، ولم تحن لها نهاية اللهم إلا إذا طرأ ما يقطع استرسالها ! ولم تكن ثمة حاجة بها إلى أن تدعونى للكلام ، بل كانت الحاجة إلى فرض السكوت على أكثر لزوما . وكانت كثيرا ما تستغرق فى شرود حالم لفرط تفكيرها المستمر فى مشروعاتها ، فكنت أتركها لأفكارها ، وأمسك لسانى ، وأنظر إليها .. وإذ ذاك كنت أسعد الرجال ! .. وكنت لا أزال أحتفظ بخيال مذ ، فكنت أسعى دائما إلى مسامرتها دون من ولا تظاهر بصنيع ، فقد كنت استمرىء هذه الخلوات بشغف يتطور إلى جنون عندما كان الضيوف المزعجون يعكرون صفوها ! فما أن يفد أحد ـ سواء كان رجلا أو امرأة ـ حتى أغادر الحجرة وأنا أزمجر ، عاجزا عن أن أبقى فى حضور طرف ثالث ! وكنت أقبع فى حجرتها الداخلية ، أعد الدقائق ، والعن هؤلاء الضيوف ـ الذين يأبون الانصراف ـ ألف مرة ، وأنا لا أقوى على أن أتصور كيف كان لديهم من الحديث ما يشغل كل هذا الوقت .. فقد كان لدى ما يفوقه !

ولم أكن أشعر بقوة تعلقى بالسيدة إلا عندما كنت لا أراها .. ولا كنت هانىء البال إلا حين أراها ، فاذا غابت كان قلقى يصبح أليما . كانت حاجتى إلى العيش معها تسبب لى نوبات

عاطفية كثيرا ما انتهت بالدموع ! ولن أنسى مطلقا أننى فى يوم عيد من الأعياد مضيت للنزهة خارج المدينة ، بينما كانت هى فى قداس المساء .. وشعرت أن قلبى قد امتلأ بصورتها ، وبرغبة متأججة فى أن أقضى حياتى معها ، وكنت من الإدراك والعقل بحيث أرى أن هذا كان مستحيلا فى وقتى الراهن ، وأن السعادة التى كنت أستمتع بها كل الاستمتاع كانت قصيرة الأمد .. ولقد بعث هذا فى خواطرى مسحة من الأسى ، لم يكن فيها ــ مع ذلك ــ أى اكتئاب ، بل كانت تخفف منها آمال مراودة .. كان صوت الأجراس ــ الذى كان يهزنى دائما بوجه خاص ــ وشدو الطيور ، وبهاء ضوء النهار ، والمناظر الطبيعية الساحرة ، والمساكن القروية المتناثرة التى كان خيالى يتخذ منها مقاما لنا .. كل هذه كانت تخلق فى نفسى تأثيرا قويا ، عاطفيا ، حزينا ، يهز أوتار قلبى إلى درجة أرى معها أننى أنتقل فى غيبوبة حالمة إلى ذينك الوقت والمكان السعيدين ، اللذين كان قلبى فيهما يمتلك كل ما كان يصبو إليه من سعادة ، فيقبل على تذوقها فى انتشاء لا سبيل إلى وصفه ، دون أدنى تفكير فى لذة شهوية . وما أذكر البتة أننى أوغلت يوما فى التفكير فى المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرنى فى تلك المناسبة . وكان أعظم ما أدهشنى من ذكرى هذا الحلم بعد أن تسنى له أن يتحقق ، هو أننى ألفيت الأمور تطابق تماما ما تصورته فى الخيال . وإذا قدر يوما لأحد أحلام اليقظة التى تراود ذهن إنسان ما أن يكون شبيها برؤى النبوة ، فهو حلمى هذا بالتأكيد . فما خدعنى خيالى إلا فى الأمد الذى



وما اذكر البته اننى أوغلت يوما فى التفكير فى المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرنى فى تلك المناســبة ..

تصورته ، فقد تمثلت فى الحلم أن حياتنا معـــا امتدت أياما وأعواما فى سكينة صافية سامية لا يعكرها شىء .. فى حين أن هذه الحال لم تدم ـــ فى واقع الحيـــاة سوى لحظـــة .. ويا لحسرتى !.. فإن أبقى سعادة ظفرت بها ، إنمـــا كانت حلما لم تلبث اليقظة أن أعقبت تحققه فى الحال !

ولن أفرغ من مهمتى إذا أنا خضت فى تفصيلات كل الحماقات التى كان تذكرى لهذه الأم العزيزة يحملنى على ارتكابها عندما لا أكون فى حضرتها : فكم كنت أقبل سريرى لأنها نامت فيـــه يوما ، وستائرى وكل أثاث حجرتى لأنها كانت ملكا لها ، ولأن يدها الجميلة كانت تمسها !.. حتى الأرض كنت أتقلب عليها ما دامت هى قد خطرت فوقها !.. وكنت أحيانا أرتكب ـــ فى وجودها ـ نزوات ما كان ليوحى بها سوى أعنف ألوان الحب ! وقد حدث ذات يوم أن كنا نجلس إلى المائدة ، وما أن وضعت قطعة من اللحم فى فمها ، حتى هتفت قائلا إننى لمحت شعرة فيها ، فردت القطعة إلى طبقها ، وإذ ذاك انقضضت عليها فى لهفة وابتلعتها ! وبإيجـــاز : لم يكن بينى وبين أشد العشاق تدلها سوى فارق واحد ـــ ولكنه جوهرى ـــ يجعل حالتى فوق كل تصور وإدراك !

وكنت قد عدت من إيطاليا على غير ما ذهبت إليهـــا ، بل لعلنى عدت منها كما لم يعد قط أى امرىء فى سنى ، فقد حملت معى ـــ فى عودتى ـــ طهرى الجسدى ، وإن لم احتفظ بطهرى العقلى والخلقى ! ولقد شعرت بحكم السنين ، وقدر أخيرا لطباعى القلقة غير المستقرة أن تغدو ملموسة محسوسة ، وقد

سبب لى تجليها لأول مرة ـــ على غير إرادة منى ـــ انزعاجا بشأن صحتى ، بدرجة تبين أكثر من أى شىء آخـــر مـــدى البـــراءة التى كنت أعيش فيهـــا حتى ذلك الحين . وما أن اطمأننت ، حتى تعلمت تلك الوسائل الخطرة التى تعاون تلك الطباع ، والتى تغرر بالطبيعة وتوفر للشبان الذين أوتوا مثل مزاجى ، كثيرا من الاضطرابات وألوان الإفراط ، على حساب صحتهم وقوتهم و .. حياتهم أحيانا ! ولهذه الرذيلة ـــ التى يرتاح إليها الخجل والجبن ـــ إغراء عظيم يجتذب التخيلات : ذلك هو ـــ كمـــا ينبغى أن يقـــال ـــ حشـــد الجنس بأسره لإرضائها ، واستغلال الجمال لملذاتهـــا ، دون ما حاجة إلى الحصول على موافقته أو رضاه !.. وتحت إغراء هذه الخلة المهلكة ، جهدت فى تدمير البنيـــة البديعـــة التى منحتنيهـــا الطبيعة ، والتى أتحت لها الوقت لتتسق فى تشكلها . أضف إلى هذه العادة ظروف مركزى الحالى ، إذ كنت أقيم فى دار امرأة جميلة ، أداعب طيفها فى قرارة قلبى ، وأراها باستمرار طوال النهار ، وأحاط فى الليل بأشياء تذكرنى بها ، وأنام فى سرير عرفت أنها كانت تنام فيـــه !.. فأية مثيرات هذه ! إن القارىء الذى يتمثلها لنفسه يرى ولا ريب أننى كنت فى منتصف الطريق إلى الموت بالفعل ! ولكن الأمر كان على نقيض ذلك تماما ، فان الشىء الذى كان خليقا بأن يقضى على ، كان عين ما أنقذنى ، ولو إلى حين : ففى انتشائى بسحر الإقامة معها ، وبالرغبة الجامحة فى أن اقضى أيامى بقربها ، كنت أرى فيهـــا دائما ـــ سواء كانت غائبة أو حاضرة ـــ أما حنونا ، وأختا

حبيبة ، وصديقة لطيفة .. ولا أكثر من هذا !.. هكذا كنت أراها دائما ، وهكذا كانت دائما ، فلم أكن أرى سواها قط ! وكانت صورتها الماثلة فى قلبى دائما لا تدع مكانا لأحد البتة !.. كانت لى المرأة الوحيدة فى العالم ، وكانت العذوبة البالغة التى اتسم بها ما كانت تلهمنى من مشاعر ، لا تدع لحواسى وقتا تستيقظ فيه على غيرها ، بل كانت تعصمنى منها ومن كل جنسها ! ومجمل القول اننى كنت عفيفا ، لأننى كنت أحبها !.. فليقل من يستطع ــ على ضوء هذه النتائج التى لم أحسن وصفها ــ أى نوع كان تعلقى بها !.. أما أنا ، فكل ما أملك أن أقول عنه هو أنه إذا كان يبدو جد غريب ، فانه سيبدو فى عواقبه أغرب !

وكنت أقضى وقتى على خير وجه ، وإن شغلت بأقل ما كان يروق لى من أشياء . كانت ثمة مشروعات تدبر ، ومذكرات تنسخ مصححة ، ووصفات تنقل ، وأعشاب تنتقى ، وعقاقير تصحن وتسحق ، وأنابيق (أجهزة للتقطير) تراقب .. وفى غمرة هذا كله ، كان عابرو السبيل والمتسولون والزائرون ــ من كافة الطبقات ـ لا يكفون عن الوفود زرافات ، فكنا نضطر إلى أن نستضيف جنديا وصيدليا وكاهنا وسيدة راقية وطالب مأوى .. فى آن واحد ! وكنت أسب ، وازمجر ، والعن ، وأتمنى أن يتخطف الشيطان كل هذه الشرذمة اللعينة . أما مدام دى فاران ــ التى كانت تتقبل ذلك بحسن نية ــ فكانت غضباتى تضحكها حتى تدمع عيناها ، وكان يضاعف من ضحكها أن ترانى أزداد سخطا لأننى لم أكن أملك أن أصد

نفسى عن الضحك !.. كانت الفترات القصار التى كنت أحظى فيها بالزمجرة ، لحظات ساحرة !.. ولو أن قادما جديدا من هؤلاء الضيوف الثقلاء أقبل خلال الجدال ، فان السيدة كانت تعرف كيف تنتزع لنفسها من ذلك تسلية ، وذلك بأن تطيل الزيارة فى تخابث ، وهى ترمينى بنظرات أود معها لو أضربها ! وكانت تتمالك نفسها بعناء حتى لا تنفجر مقهقهة ، إذ ترانى اتجلد وأكظم مشاعرى تأدبا ، وأرمقها كشخص مسلوب النهى ؛ فى حين أننى كنت فى قرارة فؤادى ـ بل ورغما عن نفسى ـ أرى الأمر كله داعيا للضحك !

ولئن لم يكن كل هذا يسرنى ، إلا أنه كان يروق لى ، لأنه كان يؤلف جزءاً من نوع من الوجود كان يبهجنى . ولم يكن فى كل ما كان يجرى حولى ـ ولا فى كل ما كنت مضطرا إلى عمله ـ شىء يلائم ذوقى ، ومع ذلك فقد كان كل شىء يروق لفؤادى . وأعتقد أننى كنت قمينا بأن أميل إلى الطب ، لولا أن نفورى منه سبب تلك المناظر المضحكة التى أطربتنا كثيرا .. ولعل هذه هى المرة الأولى التى يخلق فيها هذا الفن أثرا كهذا . كنت ازعم أن بوسعى أن أعرف أى مركب طبى من رائحته ، وكان الطريف فى الأمر أننى نادرا ماكنت أخطىء ! ولقد حملتنى مدام دى فاران على أن أتذوق أفظع العقاقير ، ولم تكن ثمة جدوى من الفرار أو محاولة الدفاع عن نفسى ، فبالرغم من مقاومتى ومن عبوسى ، وبالرغم من اصطكاك أسنانى ، كنت أضطر أخيرا إلى أن أفتح فمى عندما أرى أصابعها الجميلة ـ ملطخة بالعقار ـ بالقرب منه ، فامتصها !.. وعندما كان كل أهل

دارها يجتمعون فى حجرة واحدة ، يسمعون جرينا وصراخنا وضحكنا ، كان أى امرىء خليقا بأن يظن أننا كنا نمثل إحدى المسرحيات ، بدلا من تحضير البلاسم والأكاسير !

على أن وقتى لم يكن وقفا على هذه الحماقات . فقد وجدت فى الغرفة التى كنت أشغلها بضـــعة كتب : « المتفرج » ، و « بيغنـــدروف » ، « ســـانت ايفريموند » ، والقصـــيدة «الهنرية» . ومع أننى لم أكن أحتفظ بجنونى القديم بالقراءة ، إلا أننى كنت أقرا قليلا عندما لا أجد شيئا آخر أفعله . وكان كتاب « المتفرج » يلذ لى بوجه خاص ، وقد أثبت أنه كان ذا نفع لى . وكان الأب دى جوفون قــد علمنى أن أقـــرأ فى غير إسراع ، وبمزيد من التأمل ، ولهـــذا أصبحت المطـــالعة أكثر فائدة لى . وعودت نفسى أن أفكر فى اللغة والأسلوب وبلاغة تركيب العبارات ، كمـــا دربت نفسى على أن أميز الفرنســـية الفصحى من التعبيرات الإقليمية . وتعلمت كيف أصحح الكثير من الأخطاء الهجائية التى كان يشاركنى فى ارتكابها جميع أهل (جنيف) !

وكنت أتحدث إلى « ماما » أحيانا عن مطالعاتى ، كما كنت أقرأ لهـــا أحيانا ، فأحظى بسرور عظيم ، وأحـــاول أن أتقن القراءة ، وكان هذا ـــ بدوره ـــ مفيدا لى . ولقد ذكرت أنها كانت ذات عقل مصقول ، كان ذلك الوقت بالذات فى عنفوانه . وقد أبدى عدد من رجال الأدب شـــوقا إلى الظفر بالحظـــوة لديها ، فعلموها كيف تحكم على المؤلفات التى تنم عن عبقرية . وكان لها ذوق « بروتستانتى » بعض الشىء ـــ إذا جاز لى أن

أقول هـــذا ـــ فلم تكن تتكلم إلا عن « بايل » ، وكانت تقـــدر القديس « ايفريموند » الذى مات فى فرنســـا قبل ذلك بوقت قصير . ولكن هذا لم يعقها عن أن تتعرف إلى أى أدب طيب ، وأن تناقشـه فى فطنة. وكانت قد نشأت فى مجتمع رفيع، ووفدت على (سافوا) وهى بعد صغيرة . وفى الوســـط البهيج الذى يعيش فيه علية القوم فى هذه البلاد ، فقدت طريقة أهل إقليم (فود) فى الحديث، حيث تحرص النساء على التظاهر بالحصافة واللباقة ، ولا يعرفن الكلام إلا بالطرائف والحكم الشعرية !

ومع أنها لم تحظ إلا بمعرفة عابرة بالبلاط الملكى ، إلا أنها ألقت عليه نظرة سريعة ، كانت كافية لأن تعرفه بها . وكانت تحتفظ لنفسها دائما بأصدقاء فيه ، وعلى الرغم من الدسائس الخفية المنبعثة عن الغيرة ، وبالرغم من الاستياء الذى كان مسلكها وديونها تثيره ، إلا أنها لم تفقد قط معاشها . ولقـــد أوتيت خبـــرة بالدنيا ، ومقدرة فكرية على الإفادة من هـــذه الخبرة ، فكانت تؤلف أفضل موضوع فى أحاديتها . وكان هذا بالذات هو الموضوع الذى أجدنى فى حاجة ماسة إلى الإلمام به ، بالنسبة إلى آرائى الخيالية . . ولقد قرأنا كتاب « لابروبير »، فأعجبها أكثر من كتب « لاروشفوكو » الذى كان أديبا كئيبـــا ممضا ، لا سيما للشباب الذين لا يكترثون لرؤية النـــاس على حقيقتهـــم . وكانت إذا وعظت استغرقت أحيانـــا فى خطب طويلة ، ولكنى كنت أتزود لاحتمالهـــا بتقبيل فمها ويديها من وقت إلى آخر ، فلا يعود إسهابها يضجرنى !

* * *

وكانت هــذه الحياة أبهج من أن تدوم . وكنت أشــعر بذلك ، فكان اغتمامى بالإشفاق من أن أراها تنتهى هو الشىء الوحيد الذى عكر استمتاعى بها ! وكانت « ماما » فى وسط مداعباتها تدرسنى ، وتراقبنى ، وتسألنى ، وترسم — من أجل تقدمى — مشروعات كنت أتجاوزها بسهولة . ولحسن الحظ أنه لم يكن كافيا أن تعلم ميولى وأذواقى وامكانياتى ، بل كان من الضرورى البحث عن فرص لاستخدامها على وجه نافع ، أو « خلق » هذه الفرص . ولم يكن هذا بالعمل الذى يتم فى يوم واحد . بل إن الأحكام الصادرة عن الهوى ، والتى كانت المسكينة تتخذهــا إزاء مواهبى ، كانت — فى الوقت ذاته — سببا فى تأجيل لحظات تطبيقها بالذات ، إذ كانت تجعلهــا تعنى عناية خاصة باختيار الوسائل . وبالإيجاز : سار كل شىء وفق رغباتى بفضل حسن رأيها فى . ولكن هذه الحياة كانت مسوقة إلى نهاية ، إن عاجــلا أو آجلا .. وإذ ذاك ، وداعا لكل أمل فىالطمأنينة !.. فقد جاء لزيارة مدام دى فاران قريب لها ـ يدعى السيد « دوبون » ـ كان رجلا عظيم الدهاء يجيد الدس، وذا عبقرية ـ مثل قريبته ـ فى رسم المشروعات، ولكنه كان أبرع من أن يدع مشروعاته تقضى عليه ، كان من المغامرين ! وكان قد اقترح على الكاردينال « دى فليرى » مشروعا لتنظيم « يانصيب » ، بلغ من تعقده أنه لم يلق قبولا. فجاء بعرضه على بلاط (تورين)، حيث قبل ونفذ . وقد مكث هذا الرجل بعض الوقت فى (أنيسى) ، حيث عشق زوجة وكيل الحكومة ! وكانت امرأة جد لطيفة، قريبة إلى ذوقى ، حتى

أنها كانت الوحيدة التي كنت أسر برؤيتها في دار « ماما » .
ولقد رآني السيد « دوبون » ، وحدثته قريبته عني ، فتكفل بامتحاني ليرى ما أصلح له ؛ فاذا ما وجدني أهلا لشيء ، بحث لي عن منصب !

وارسلتني مدام فاران إليه في صباحين أو ثلاثة متعاقبة ، بحجة بعض مهام لها ، دون أن تبصرني بشيء . وأفلح الرجل في حملي على الكلام ، وابدى لي الود ، وتبسط معي إلى أقصى ما أمكنه ، وتحدث معي في مسـائل غير ذات بال ، وفي كافة الموضوعات .. كل ذلك دون أن يشعرني بأنه كان يراقبني ، ودون أدنى كلفة ، وكأنه وجـد في صحبتي مسرة فرغب في التسامر معي دون ما قيود . وأعجبت به .. وكانت نتيجة ملاحظاته أنني ـ برغم مظهري الجذاب وملامحي الدالة على الفطنة ـ كنت فتى قليل الذكاء ، عديم الأفكار ، عديم المعرفة تقريبا ، إن لم أكن غبيا !.. وبعبارة موجـزة ، كنت محدود العقل من كل الاعتبارات ، وكان أرفع منصـب بحق لي أن أصبو إليه ، هو أن أصبح يوما راعيا لكنيسة إحدى القرى ! هكذا كانت النتيجة التي قدمها عني لمدام دي فاران ، وكانت هذه هي المرة الثانية أو الثالثة التي يحكم علي فيها بمثل ذلك . بل إنها لم تكن المرة الأخيرة ؛ فكم من مرة عزز فيها رأي السيد « ماسيرون » .

وكانت أسباب هذه الأحكام ترتبط بخلقي ارتباطا وثيقـا لا داعي معه إلى أي إيضاح هنا . ذلك لأنه من المفهـوم ـ صراحة ـ أنني لا أستطيع أن أقر هـذه الآراء دون تحفظ ،

وأننى ـ بكل حيدة وتجرد عن الهوى ـ لا أستطيع أن أتقبل كل ما قاله السيدان « ماسيرون » و « دوبون » وغيرهما على علاته !.. فلقد اتحد فى نفسى شيئان متنافران تقريبا ، بطريقة لا أملك ادراكها : طباع حادة ، وعواطف محتدمة صاخبة .. وفى الوقت ذاته ، أفكار بطيئة النمو ، مهوشة ، لا تكشف قط عن نفسها إلا بعد فوات الأوان . ومن الممكن أن يقال إن قلبى وعقلى لا يمتان إلى فرد واحد . فان الشعور يستحوذ على نفسى بأسرع من البرق الخاطف ، ولكنه يكوينى ويعشى بصرى ، بدلا من أن ينيرنى . فاذا بى أحس بكل شىء دون أن ارى شيئا ! إن العواطف تجرفنى ، ولكنى بطىء التفكير ، لابد لى من أن أسرى عن نفسى حدة الانفعالات لكى أستطيع أن أفكر. والعجيب فى الأمر هو أننى ـ برغم ذلك ـ أوتيت رأيا مؤكد الصواب ، وبصيرة نفاذة ، ودقة فى الحكم ، إذا ما أتيح لى الوقت الكافى .. وأننى لأصدر آراء عاجلة إذا تركت وشأنى ، ولكنى لم أفه يوما بشىء ذى قيمة فى اللحظة التى طلب إلى فيها ذلك ! وبوسعى أن أجيد النقاش عن طريق التراسل ، بنفس النهج الذى يقال عن الأسبان أنهم ينتهجونه فى لعب الشطرنج . وعندما قرأت عن أحد دوقات (سافوا) أنه قطع رحلته وعاد ليصيح : « سأنقض على عنقك ايها التاجر الباريسى » ، لم أتمالك أن أقول : « هكذا أنا » !

هذا البطء فى التفكير مع فورة الشعور ، لا يلازمانى فى الحديث فحسب ، وإنما هما معى حتى فى وحدتى ، وعندما اعمل ! .. فان أفكارى تنسق نفسها فى رأسى بعناء لا يكاد يصدق ، إذ أنها تدور فيه على غير هدى ، ثم تتخمر وتفور

حتى تحركنى وتبعث الحرارة فى كيــانى ، فيتســـارع خفقان قلبى . وفى غمرة هذا الانفعال ، لا أعود أرى أى شىء بوضوح، ولا أقوى على أن أكتب كلمة واحدة ، وأضطر إلى الانتظار والتريث .. ولا يلبث الانفعـــال العظيـم أن يخف بطريقــة لا أفقهها ، فينقشع الاضطراب ، ويستقر كل شىء فى مكانه ، ولكن .. فى بطء ، وبعد انفعـــال طويل مربك . أنما قدر لك يوما أن تشهد « الأوبرا » فى إيطاليـــا ؟.. ففى خلال تبديل المناظر ، تسود هذه المسارح العظيمة فوضى غير مستحبة ، تمتد فترات طويلة . إذ تختلط كافة الزخارف (الديكورات) بعضها ببعض ، وترى الأشـــياء تجذب فى كل ناحية بشـــكل مؤلم ، حتى ليخـــال للمرء أن كل شىء قد انقلب رأســـا على عقب ! ثم لا يلبث كل شىء أن ينتظم شيئا فشيئا ، ولا يبقى أى نقص ، ويدهش المرء إذ يرى منظرا رائعـــا عقب هـــذه الفوضى الطويلة ! هـــذه العلمية تقـــرب من تلك التى تجرى فى مخى عنـــدما أرغب فى الكتابة . ولو أننى تعلمت أن أتريث أولا ، ثم أجنى الأشـــياء التى ارتسمت فى ذهنى ، صـــاقلا جمالها ، لما تفوق على سوى قليل من الكتاب !

ومن هنا كانت الصعوبة البالغة التى أجدها فى الكتابة . وأن مخطوطاتى بما فيها من كشط ومحو وسطور متداخلة ، وكتابة لا تكاد تقرأ ، لتشهد بالعناء الذى تكبدنيه . فليس بينها ما لم اضطر إلى نسخه أربع أو خمس مرات قبـــل أن أستطيع أن أدفع به إلى المطبعة ! وما استطعت قط أن أنتج وأنا جالس إلى منضدتى وأوراقى والقلم فى يدى ، وإنما اعتدت أن أكتب

على صفحة ذهنى بينما أتمشى وسط الصخور والغابات ، أو فى الليل وأنا مستلق فى فراشى مستيقظا . وفى وسع المرء أن يقدر ذلك البطء ، سيما لدى إنسان حرم تماما من ذاكرة تحفظ الكلام ، وما قدر له فى حياته أن يحفظ ستة أبيات من الشعر عن ظهر قلب ! .. بل إن من عباراتى وجملى ما ظللت أقلبه وأديره فى رأسى خمس أو ست ليال ، قبل أن يغـدو صالحا لأن يسجل على الورق ! وهنا أيضا السر فى أننى أكثر توفيقا فى أعمالى التى تتطلب جهدا ، منى فى تلك التى تتطلب خفـة أسلوب معينة ، كالرسائل .. وهى خفة لم يقدر لى قط أن أتمكن من الإلمام بها ، ومن ثم فان هذه المهمة ترهقنى . فلست أكتب رسالة فى أتفه موضوع ، إلا وتكبدنى ساعات من الضنى .. كمـا أننى إذا حاولت أن أكتب فورا ما يعن لى ، لا أدرى كيف أبدأ ولا كيف أنتهى . ومن ثم تكون رسالتى لغوا طويلا مهوشا ، يلقى المرء عناء فى فهمه إذا ما قرأها !

ولا تكبدنى الأفكار عناء فى تسجيلها فحسب ، وإنما تكبدنى العناء ذاته فى تلقيها . لقد درست الناس ، وأعتقد أننى قوى الملاحظة ، ومع ذلك فاننى لا أملك أن أرى بوضوح شيئا مما أشهده ، وإنما أتمثل بوضوح ما أذكره ، ولا أبدى الفطنة إلا فى ذكرياتى .. فمن كل ما يقال ، ومن كل ما يعمل ، ومن كل ما يجرى فى حضورى ، لا أشعر بشىء ولا أتغلغل ببصيرتى فى شىء . وإنما الذى يؤثر فى هو الظاهر وحده !.. بيد أن كل شىء لا يلبث أن يرتد إلى ذهنى فيمـا بعـد ، فأذكر المكان ، والزمان ، والحال ، والنظرة ، والإشارة ، والظـروف ..

لا يفوتنى منها شىء . وعندئذ ، أتبين مما قاله القوم أو فعلوه ما كانوا يفكرون فيــه ، ونادرا ما أخطىء !.. ولــو أننى سيطرت على طاقتى الذهنية قليلا ، فيما بينى وبين نفسى ، ففى وسع المرء أن يحدس ما كنت أصبح عليه من براعة فى الحديث ، حيث يجب ــ من أجل الكلام فى الموضــوع ــ أن أفكر فى ألف شىء فى نفس الوقت والمكان . ولكن مجرد التفكير فى التوفيق بين هذه الأشياء ــ التى أوقن من أننى لابد أن أنسى شيئا واحــدا منها على الأقل ــ يكفى لكى يبث الخــوف فى نفسى ! بل إننى لا أفهم كيف يجد أى امرىء الجرأة على الكلام فى جماعة ، حيث لا غنى له عن أن يطوف ببصره مستعرضا الحــاضرين ، مع كل كلمــة .. وحيث لا بد له من أن يلــم بشخصياتهم وسيرهم ، حتى يستوثق من تجنبه ذكر أى شىء قد يجرح شعور أحد منهم . ومن هذه الناحية ، يمتاز الذين يعيشون فى الدنيا[1] بميزة كبرى ، هى أنهم يكونون أكثر من سواهم دراية بما لا ينبغى أن يصمتوا عنه ، وأشد اطمئنانا إلى ما يقولون .. ومع ذلك ، فكثيرا ما تفلت منهم هفوات ، وهنات . فما بالك بمن يسقط فى وسطهم من بين السحب ؟![2] .. إنه ليستحيل عليه تقريبا أن يتكلم لدقيقة دون خوف من الزلل ! .. وهناك مضايقة أخرى فى المسارة ــ أى عنــدما

---

(١) يقصد الذين يختلطون بالناس ويغشون المجتمعات .

(٢) يقصد الذى يعيش بعيدا عن المجتمع ، فى أحلامه الخاصة ، ثم يقدر له أن يتكلم وسط الناس .

أتحدث مع شخص ما فى خلوة ـــ أجدها أنكى مما سبق : تلك هى ضرورة الكلام باستمرار . فاذا وجه إليك الحديث ، كان عليك أن تجيب .. وإذا لم توجـــد كلمة تقال ، كان عليك أن تحيى الحديث من جديد . هذا الاضطرار الذى لا يطاق ، هو وحده الذى ينفرنى من المجتمع . ولست أجد ضيقا أفظع من الاضطرار إلى الحديث عفو الخاطر وباسترسال . ولا أدرى ما إذا كان لهذا أى شأن من كراهيتى المميتة لكل قهر ، من أى نوع . بيد أنه يكفينى أن أكون مضطرا إلى الكلام ، لكى أنطلق فى لغو لا محيص منه .

أما ما يفوق هذا شناعة ، فهو أننى بدلا من أن أستطيع أن أمسك لسانى عندما لا أجد شيئا يقال ، إذا بى أجد نفسى ـــ فى هذا الوقت بالذات ـــ أكاد أجن شـــوقا إلى الكلام ، لأرد الدين بأسرع ما أستطيع !.. فأبادر إلى إطـــلاق عبـــارات متلعثمة خالية من أية فكرة ، وتشتد سعادتى إذا كانت لا تعنى شيئا على الاطـــلاق . وإذ أحاول أن أغـــالب أو أن أخفى غبائى ، فاننى نادرا ما أخفق فى إظهـــاره ! ومن ألف مثـــال أستطيع ذكرها ، أختار واحدا لا يمت إلى أيام الصبا ، وإنما إلى وقت كان خليقا بى أن أكون قـــد اكتسبت عنده يسرا فى القول ـــ إن كان هذا ممكنا ـــ بعد أن عشت سنوات عديدة بين الناس . ففى ذات مســـاء ، كنت أجلس بين ســـيدتين عظيمتين ورجل يحق لى أن أذكر اسمه ، وهو السيد الدوق « دى جونتو » . ولم يكن ثمة سوانا فى الحجرة ، وقد رحت أجاهد فى سبيل ذكر بضع كلمات ـــ يعـــلم الله ماذا كانت ـــ

خلال حديث كان يدور بين أربعة أشخاص ، كان بينهم ثلاثة فى غير حاجة ـ بالتأكيد ـ إلى تعقيبى . وأمرت ربة البيت بإحضار دواء كانت تتناوله مرتين يوما لعلاج معدتها . وإذ رأت السيدة الأخرى وجهها يتغضن ـ اشمئزازا من الدواء ـ قالت ضاحكة : « أهذا الدواء من لدن السيد ترونشان » . فأجابتها الأولى بنفس اللهجة : « لا أظنه ! » .. وهنا عقب روسو الذكى فى تأدب : « أظن أنه لا يفوقه فى شىء ! »(١) . وبقى الجميع واجمين ، فلم يفه أحد بأتفه كلمة أو بأضأل ابتسامة . وبعد لحظة ، اتخذ الحديث اتجاها آخر . وما كانت هذه الفلتة لتبدو ـ فى أى مجلس آخر ـ سوى فكاهة ، أما وقد وجهت إلى امرأة كانت من رقة الشعور بحيث لا تحب أن تجعل نفسها مادة للحديث ، ولم تكن لدى ـ بكل تأكيد ـ أية رغبة فى مس شعورها ، فقد بدت شنيعة ، وأعتقد أن الشاهدين ـ الرجل والمرأة ـ عانيا كثيرا لكى يكبحا الضحك . هذا مثال لفلتات الذكاء التى تمنعنى من الرغبة فى الكلام عندما لا أجد شيئا يقال .. ولن أنسى بسهولة هذا الحادث ، لا لأنه ـ فى ذاته ـ مما يعلق بالذاكرة ، وإنما لأنه يجول بخاطرى أنه كانت له عواقب تدفعه إلى ذاكرتى كثيرا .

---

(١) كان الدواء حبوبا لتليين المعدة . ومن هنا ندرك أنه لم يكن من اللياقة أن يتدخل رجل فى حديث السيدتين اللتين لم تكونا سوى : مدام دى لوكسمبورج ـ وهى ربة البيت ـ ومدام دى ميربوا ، اللتين سيرد ذكرهما فى الكراسة العاشرة .

وأعتقد أن هذا يكفى لبيان كيف أننى وإن لم أكن غبيا ، إلا أننى كثيرا ما ظن بى ذلك ، حتى من جانب أناس لهم ما يمكنهم من الحكم الصحيح . ومما يضاعف سوء حظى أن ملامحى وعينى توحى بفكرة أفضل ، وأن خيبة هذا الحدس تبدى هذا الغباء للغير بشكل أبشع !.. وهذا الإسهاب فى شرح الفكرة ، الذى تولد عن مناسبة خاصة ، ليس خاليا من النفع بالنسبة لما سيأتى فيما بعد . فهو يتضمن ما يجلى غوامض كثير من الأمور الشاذة التى شوهدت منى ، والتى تعزى إلى طباع وحشية غير اجتماعية ، ليس لدى فى الواقع شىء منها ! فلقد كنت خليقا بأن أحب المجتمع كأى فرد آخر ، لو لم أكن متأكدا من أن ظهورى فيه ليس فى صالحى ، فضلا عن أننى أبدى نفسى شخصا آخر غير ما أنا حقيقة . ومن ثم فان الوضع الذى اتخذته وأنا أكتب وأعيش فى عزلة ، هو عين الوضع الذى يناسبنى تماما . وأينما أكون حاضرا لا سبيل إطلاقا إلى تقدير قيمتى ، ولو تخمينا . وهذا ما جرى لمدام « دوبان » ، برغم أنها كانت امرأة ذكية ، وبرغم أننى كنت أعيش فى دارها لسنوات عدة . ولقد صارحتنى ــ هى نفسها ــ بذلك كثيرا منذ ذلك الحين . ومع ذلك ، فان لهذه القاعدة استثناءات ، سأعود إليها فيها بعد(١) .

أما وقد استقر مجال مواهبى عند هذه الحدود ، فقد تعين الوضع المناسب لى واتضح للمرة الثانية ، ولم يبق من سؤال

---

(١) سنشهد أحد هذه الاستثناءات فيما سيذكره روسو فى الكراسة الرابعة عن زيارته لمجلس الشيوخ فى (برن) مع كبير الأساقفة .

سوى : كيف أملأ مكانى ؟.. وكانت الصعوبة تتمثل فى أننى لم أستكمل دراستى ، ولم أكن أعرف ـــ كذلك ـــ من اللاتينية ما يكفى لكى أصبح قسا . وكانت مدام دى غاران قد فكرت ـــ فى بعض الأوقات ـــ فى أن أتعلم فى المعهد الدينى ، وتحدثت إلى رئيسه ، وكان راهبا لازاريا(١) ـــ يدعى السيد «جرو» ـــ طيبا ، ضئيل الجسم ، أوشك أن يفقد ابصار إحدى عينيه ، كما كان هزيلا ، أشيب الشعر . وكان أعظم لازارى عرفته ذكاء ، وأقلهم غطرسة .. وما هـذا القول بكثير عليـه فى الحقيقة !

وكان يتردد أحيانا على دار « ماما » ، فكانت تحتفى به ، وتداعبه ، وتعاكسه كذلك ، وتحمله أحيانا على أن يربط لها مشداتها (الكورسيه) ، وهى مهمة كان يقبل عليها راضيا ! وبينما يكون منهمكا فيها ، تأخذ فى الجرى ـــ فى الغرفة ـــ من جانب إلى آخر ، لتفعل شيئا هنا ، وشيئا هنـاك ، والسيد الرئيس يتبعها ـــ مشدودا إلى الخيط ـــ وهو يزمجر ولا ينفك يقول : « ولكن ، اثبتى يا سيدتى ! » .. وكان هذا موضوعا طريفا جديرا بالتصوير !

وتقبل السيد « جرو » مشروع «ماما» بتحمس قلبى ، فقنع بأجر متواضع لإقامتى ، وتكفل بتعليمى ، ولم يشترط سوى موافقة الأسقف ، الذى لم يمنح هذه الموافقة فحسب ، وإنما

(١) من اتباع مذهب القديس لازار فى الرهبنة .



وتحمله أحيانا على أن يربط لها مشداتها (الكورسيه) ،
وهى مهمة كان يقبـــل عليهـــا راضـــيا !..

رغب فى دفع نفقات إقامتى ، كما سمح بأن أظل فى زيى المدنى إلى أن يقضى لى بالنجاح المنشود ، بعد امتحان !

* * *

اى تحول هذا !.. وكنت مضطرا إلى الانصياع ، فذهبت إلى المعهد الدينى وكأننى ذاهب إلى عقوبة أليمة ! فيا للمعهد من مأوى حزين كئيب ، لا سيما لمن بارح لتوه دار امرأة حبيبة .. ولم أحمل معى سوى كتاب واحد ، رجوت « ماما » أن تعيرنيه ، وكان مصدر عزاء كبير لى . ولن يتصور أحد أى كتاب كان ذلك !.. لقد كان كتابا فى الموسيقى !.. فبين المواهب التى تعهدتها «ماما» فى نفسها ، لم تكن الموسيقى منسية . إذ كان لها صوت عذب ، وكانت تجيد الغناء ، وتعزف ـــ إلى حد ما ـــ على « البيانو » ، وقد تفضلت بتلقينى بعض دروس فى الغناء ، وكان لابد لها من أن تبدأ من الأصول الأولى ، إذ أننى كنت لا أكاد أدرى شيئا من موسيقى مزاميرنا . وكانت ثمانية أو عشرة دروس على يدى امرأة ـــ وهى دروس لم يكن سبيل إلى استمرارها دون ما يعكر جوها ويقطع استرسالها ـــ أقل بكثير من أن تمكننى من السلم الموسيقى ، أو من الإلمام بالعلامات الموسيقية . على أننى كنت من الشغف بهذا الفن بحيث رغبت فى أن أحاول المران بنفسى . ولم يكن الكتاب الذى اصطحبته من الكتب السهلة ـــ فى ذاته ـــ فقد

تضمن أغانى « كليرامبو » . ومن الممكن تصور مدى إقبالى وعنادي ، عندما أقول إننى وفقت ـ دون دراية ولا تبديل ـ إلى أن أترجم وأغنى ، دون خطأ ، اللحن الأول من أغنية « الفيه واريثيز » وكلماتها .. وإن كان هذا اللحن ـ فى الواقع ـ موزونا بحيث لا يستلزم أكثر من إلقاء الشعر مع مراعاة المسافات والوحدة ، لكى يكسب وقع الحن !

وكان فى المعهد « لازارى » لعين تعهدنى ، فجعلنى أكره اللغة اللاتينية التى أراد أن يلقننى إياها . وكان له شعر ناعم، أسود ، ينضح بالدهن ، ووجه كرغيف من خبز الزنجبيل[1] ، وصوت كصوت الجاموس ، ونظرة كنظرة البومة ، ولحية كذقن التيس !.. وكانت ابتسامته ساخرة ، وأطرافه مخلخلة كأطراف الدمية !.. ولقد نسيت اسمه البغيض ، ولكن وجهه المخيف ، ذا اللطف المتكلف ، ظل باقيا فى ذاكرتى ، لا أكاد أذكره دون أن أرتجف . ولا أزال أتصور أننى ألقاه فى الردهات ، راغما فى جلال قلنسيوته المربعة المتسخة ، مشيرا لى بدخول حجرته ، التى كانت أبغض لدى من غرفة السجن ! .. فتصور ـ على سبيل المقارنة ـ أستاذا كهذا لتلميذ راهب كان ينتمى إلى البلاط الملكى !

---

(١) نوع من الخبز يخلط دقيقه بالزنجبيل .

ولو قدر لى أن أمكث شهرين تحت رحمة هـذا الوحش ؛ فانى موقن من أن رأسى ما كان ليحتمل ذلك . ولكن السـيد جرو الطبيب لاحظ أننى كنت حزينا ، وأننى لم أكن أقبل على الأكل ، بل كنت ممعنا فى الهزال ، فأدرك سر أساى ـ إذ لم يكن هذا بالأمر العسير! ـ وأنقذنى من براثن هذا الحيوان!.. وبتناقض آخر ، شديد الغرابة هو الآخر ، أسلمنى إلى ألطف الرجال : وكان راهبا شابا من (فوسيينى)(١) ، يدعى السيد « جاتييه » ، كان موشكا على الفراغ من الدراسة فى المعهد . وقد شاء ـ بدافع من الرغبة فى إرضاء السيد جرو ، وبدافع من الإنسانية على ما أعتقد ـ أن يسلب دراساته الوقت الذى وهبـه لتلقينى دروسى . والحق أننى أبدا ما رأيت أسارير أكثر تأثيرا فى النفس من أسارير السيد جاتييه !.. فقد كان أشقر ، تميل لحيته إلى الحمرة ، وله الهيئة المألوفة لدى أهل إقليمه الذين يخفون تحت مظهرهم الثقيل ذكاء وافرا . على أن ما كان يميزه حقا هو روح لطيفة ، رحيمة ، مفعمة بالود . وكان فى عينيه الزرقاوين الواسعتين خليط من الرقة والحنان والأسى ، تجعل من المستحيل على أى شـخص أن يراه دون أن يميل إليه .. وكان من الممكن أن يقال ، من نظرات هذا

---

(١) مقاطعة صغيرة فى دوقية (سافوا) .

الشاب المسكين ومسلكه ، أنه كان على علم بمصيره ، وأنه كان يشعر بأنه ولد ليكون شقيا !

ولم تكذب شخصيته مظهره ، فقد كان يتميز بالصبر وحب الإرضاء ، مما جعله يبدو أقرب إلى الاستذكار معى منــه إلى التدريس لى ! .. وكان هذا وحده أكثر من أن يكفى لأن يحملنى على حبــه .. ومع ذلك ، فعلى الرغم من كل الوقت الذى منحنيه ، وعلى الرغم من كل التحمس القلبى الذى وجهه كل منا إلى دراساتنا ، ومع أنه سار على خير نهج ، فاننى لم أحظ من اجتهاده الجم إلا بتقدم بسيط ! ومن الغريب أننى ، بمــا أوتيت من إدراك واسع ، لم أتعلم شيئا من الأساتذة ــ فيما عدا أبى والسيد لامبرسييه ــ أما القليل الذى عرفتــه فوق ما علمنيه هذان ، فقد حصلته بنفسى ، كما سيتجلى فيمــا بعد . فان روحى التى لا تصبر على أى نوع من النير ، لا تقوى على الرضوخ لحكم اللحظة . بل إن الخوف من عدم التعلم يحول دون أن أنتبه ، كما أننى ، خوفا من أن أجعل الشخص الذى يتحدث إلى يفقد صبره ؛ أتظاهر بالفهم ، ومن ثم يمضى قدما فى حديثه ؛ دون أن أعى شيئا ! فلا بد لعقلى من أن يحدد الوقت الذى يروق له للعمل ، ولا يستطيع أن يخضع للوقت الذى يحدده له الغير !

وحان وقت تنصيب معلمى « شماسا » ، حسب الطقوس

الدينية المألوفة ، فعـــاد إلى إقليمه ، وحمل معه حسراتى ، ومحبتى ، وعرفانى . وقد قدمت من أجـــله نذورا لم تتقبـــل بأكثر مما تقبلت به النذور التى قدمتها من أجل نفسى . ولقد علمت بعد ذلك ببضع سنوات ، أنه بينما كان نائبا لأبرشية ، أنجب طفلا من فتاة كانت هى الوحيدة التى أحبها ، برغم قلبه المسرف الرقة . وكانت هذه فضيحة شنيعة فى أبرشية كانت تخضع لأنظمة شديدة . فإن القساوسة ــ نظرا لخضوعهم لنظم طيبة ــ ينبغى لهم ألا ينجبوا أطفالا إلا من نساء متزوجات!! .. ومن ثم فإن القس الشاب سجن لانتهاكه قانون العفـــة هذا ، وفضح ، وجرد من رتبته . ولست أدرى ما إذا كان قد استرد مركزه فيما بعد ، ولكن الشعور بســـوء حظه نقش بخطوط عميقة على قلبى ، وقد عاودتنى قصته عندما كتبت « اميل » ، فمزجت شخصيتى السيد جاتييه والسيد جايم ، وجعلت من هذين القسين الفاضلين الشخصـــية الأصـــلية لأسقف سافوا ، وإنى لأغبط نفسى لأن الشـــخصية التى خلقتها لم تنل من قدر الشخصيتين الأصليتين !

وفى أثناء وجودى فى المعهد الدينى ، كان الســـيد دوبون قد اضطر إلى مبارحة (أنيسى) .. فقد خطر للسيد «كورفيزى» وكيل الحكومة أن يستاء من غرامه بزوجته ! وكان هذا أشبه

بما جرى لكلب البستانى(١) .. ذلك لأنه بالرغم من أن مدام كورفيزى كانت ذات جمال يهفو بالقلوب ، إلا أن زوجهـا ـ الوكيل ـ كان يعيش معهـا على شقاق ، إذ أن الأهواء التى ورثها عن أهل الجبال النائية جعلت زوجته غير ذات نفع له ، فكان يعاملها بوحشية أثارت مسألة الانفصال بينهما . وكان السيد كورفيزى رجلا شريرا ، أسود كالفأر الجبلى ، خطافا كالحدأة ، وقد انتهى به استغلاله سلطاته إلى طـرده من منصبه . ويقال إن أهل الريف يتشفون فى أعدائهم بالأغانى ، أما السيد دوبون فقد تشفى بمسرحية هزيلة . وقد أرسل هذه التمثيلية إلى مدام دى فاران ، التى اطلعتنى عليهـا فأعجبت بها ، وتولدت لدى نزوة تأليف مسرحية أخرى ، لأرى ما إذا كنت قد ظللت « بهيما » كما وصفنى يوما ! على أننى لم أحقق هذا المشروع إلا فى (شامبيرى) ، حيث كتبت «عاشق نفسه» ! (ومن ثم فاننى عندما قلت فى مقدمة هذه المسرحية إننى كتبتها فى الثامنة عشرة من عمرى ، إنما كنت أكذب ، إذ أننى تجاوزت عن بضع سنوات !) .

* * *

---

(١) الظاهر أن روسو يشير بهذا الى قصة كانت شائعة بين أبناء عصره .

وفى حوالى ذلك الوقت ، وقع حادث كان قليل الأهمية فى حد ذاته ، ولكنه كان ذا عواقب بالنسبة لى، كما أنه أحدث ضجة فى العالم عندما نسيته . فلقد كنت أحرص على التماس الإذن بالخروج من المعهد مرة فى كل أسبوع ، ولست بحاجة إلى أن أذكر كيف كنت أفيد من ذلك . وفى يوم من أيام الآحاد ، كنت لدى «ماما» عندما شب حريق فى إحدى بنايات « الرهبان السمر » ، وكان ملاصقا لدار مدام دى فاران . وكان هذا المبنى — الذى أقيم فيه فرن الرهبان — مليئا بالوقود الجاف، فسرعان ما أصبح كله شعلة من النار ، وأصبحت دار السيدة فى خطر عظيم ، وقد لفها اللهب الذى حملته إليها الريح . وصار من الواجب نقل الأثاث بسرعة من الدار ، وحمله إلى الحديقة التى كانت مواجهة لنوافذ حجرتى القديمة ، حيث كان يجرى خلفها الجدول الذى تحدثت عنه . وكنت من الاضطراب بحيث رحت ألقى من النافذة بدون وعى كل ما كان يقع تحت يدى ، ولو كان حجرا كبيرا من أحجار الجدار كنت — فى الأوقات الأخرى — لا أكاد أقوى على رفعه .. بل إننى أوشكت أن ألقى كذلك بمرآة كبيرة ، لو لم يردنى شخص ما عن ذلك ! ولم يقبع الأسقف الطيب — الذى كان فى زيارة «ماما» فى ذلك اليوم — خاملا ، بل إنه انتقل بها إلى الحديقة ، حيث شرع يصلى معها ، ومع كل من كانوا هناك .. حتى إذا وصلت إلى الحديقة بعد ذلك بقليل ، وجدت الجميع جاثين

على ركبهم ، فحذوت حذوهم • وفى أثناء صلاة الرجل التقى، تغير اتجاه الريح فجأة ، وفى اللحظة المناسبة ، فاذا ألسنة اللهب التى كانت تحوط الدار والتى أخذت تسعى إلى النوافذ ، تتجه إلى الجانب الآخر من الفناء ، فلم يصب البيت بأى سوء !

وبعد ذلك بعامين ـــ وكان السيد دى برنيكس ، الأسقف ، قد توفى ـــ شرع الرهبان الانطونيون ، وهم زملاؤه السابقون، فى جمع الأنباء التى يمكن استغلالها فى تطويبه(١) . واستجابة لرجاء الأب « بوديه » أضفت إلى تلك الأنباء شهادة بالواقعة التى ذكرتها ، والتى كنت فيها على صواب • ولكنى أخطأت إذ قدمتها على أنها معجزة ! فلقد رأيت الأسقف وهو يصلى ، ورأيت الريح تتبدل أثناء صلاته ، وفى اللحظة المناسبة تماما .. وكان ينبغى أن أذكر هذا وأشهد به . أما أى الأمرين كان سببا للآخر ، فهذا ما لم يكن ينبغى لى أن أشهد به ، لأننى لم أكن أملك أن أعرفه • ومع ذلك فاننى ـــ بقدر ما استطيع أن أذكر آرائى يومئذ ـــ كنت كاثوليكيا مخلصا ، ومن ثم فقد كنت صادق الإيمان ، ولكن حب الغرائب الخارقة ـــ وهو طبيعى فى فؤاد البشر ـــ وتوقيرى لهذا الراهب الوقور ،

---

(١) التطويب فى المسيحية هو أن يعلن البابا ـ أو البطريرك لدى الارثوذكس ـ بأن شخصا قد حظى بالتمجيد فى السماء ، فأصبح فى عداد القديسين ـ اذا كان ميتا ـ أو اقترب من القداسة، اذا كان على قيد الحياة.

والزهو المستتر بأنني ربما كنت قد ساهمت بنفسى فى المعجزة ، ساعدت على تضليلى . أما الشىء المؤكد فهو انه إذا كانت تلك المعجزة نتيجة للصلاة الحارة ، فقد كان من حقى أن أطالب لنفسى بنصيب فيها !

وعندما نشرت « رسائل الجبل » ـ بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما ـ نقب السيد « فريرون » بطريقة ما عن هذه الشهادة ، واستغلها فى تعليقاته . وجدير بى أن أعترف بأن هذا الكشف كان موفقا ، وقد بدا لى إذ ذاك أن إعلانه فى تلك المناسبة كان أمرا سارا .

وكان مقدرا لى أن أكون طريد كل المهن . فمع أن السيد دى جاتييه رفع عن تقدمى فى الدراسة تقريرا اعتبرته أقل ما كان بوسعه أن يقدمه ، من حيث إساءته إلى ، إلا أنه رؤى أن تقدمى لم يكن متناسبا مع مجهوداتى ، وأن هذا لم يكن مشجعا على المضى فى دراستى . ومن ثم فان الأسقف ورئيس المعهد فصلانى وردانى إلى مدام دى فاران كشخص لا يصلح ولو لأن يكون مجرد قس ؛ وإن كان ـ فيما عدا ذلك ـ فتى طيبا ، وخلوا من اية رذيلة ، كما قالا . وكان هذا هو السبب فى انها لم تنبذنى ، برغم تعدد الأحكام المثبطة ضدى !

وأعدت إليها ـ مزهوا ـ كتابها الموسيقى الذى أفدت منه . وكان لحن « ألفيه وأريثيز » هو كل ما تعلمت ـ تقريبا ـ

فى المعهد الدينى . ولقد أوحى إليها ميلى الملحوظ إلى هـذا الفن ، بأن تجعل منى موسيقيا ! وكانت الفرصـة مواتية ، فقد كانت الموسيقى تعزف فى دارها مـرة فى الأسـبوع على الأقل . وكان رئيس فريق الكاتدرائية الموسيقى يدير هـذه الحفلات الصغيرة ، وقد اعتاد أن يتردد كثيرا على الدار . وكان باريسيا يدعى السيد « لوميتر » ، بارعا فى التلحين ، كثير النشاط ، مرحا جدا ، لا يزال شابا ، على قسط كبير من الملاحة ، ونصيب قليل من الذكاء . . لكنه كان ـ فى مجموعه ـ طيبا . وقد عرفتنى به « ماما » ، فملت إليه ، كما أنه لم ينفر منى . وبحث أمر الأجر ، وتم الاتفاق . وبإيجاز ، ذهبت إلى داره ، حيث قضيت أحب شتاء لدى ، إذ أن الدار لم تكن تبعد أكثر من عشرين ياردة عن منزل « ماما » ، فكان بوسعنا أن نكون إلى جانبها فى أية لحظة ، وكثيرا ما تناولنا عشاءنا معها .

ولابد أنكم أدركتم أن الحياة فى دار « لوميتر » ـ بما فيها من غناء دائم ، ومن صحبة الموسيقيين والأطفـال المنشدين «الكورس» ـ قد راقت لى أكثر من حياة المعهد الدينى مع رهبان القديس لازار . على أن هذه الحياة ، وإن كانت أكثر حرية ، إلا أنها لم تكن أقل نظاما . فقد روضت على حب الاستقلال دون أن أنسى استغلاله البتة . ففى ستة أشهر كاملة ، لم أخرج مرة واحدة إلا لأذهب إلى بيت « ماما » أو إلى الكنيسة ، ومع

ذلك فاننى لم أشعر بشوق إلى الخروج . كانت تلك إحدى فترات حياتى التى عشت خلالها فى أعظم دعة ، والتى أذكرها بأعظم اغتباط . فمن بين الأوضاع المتباينة التى وجدت نفسى فيها ، أوضاع امتازت بشعور من السكينة والدعة يجعلنى — حين اذكرها — اتأثر بها وكأننى ما أزال فيها . فلست أذكر الأوقات والأماكن والأشخاص فحسب ، وإنما أذكر كل الأشياء التى كانت تحيط بى ، وحرارة الجو ، وعبير الوسط ، ولونه ، وأى طابع محلى لا يوجد إلا هناك ، بحيث تردنى ذكراه الحية إلى هناك من جديد !.. مثال ذلك أن كل ما كان يتردد فى دار رئيس الفريق الموسيقى ، وكل ما كان الفريق يترنم به ، وكل ما كان يحدث هناك ، وزى انشمامسة الجميل، ومسوح القساوسة ، وتيجان المرتلين ، ووجوه الموسيقيين ، ونجار أعرج طاعن فى السن كان يعزف على الكمان الكبير « الكونترباس » ، وراهب صغير أشقر يعزف على الكمان العادى ، والرداء الكنسى المهلهل الذى كان السيد « لوميتر » يرتديه فوق لباسه المدنى بعد أن ينزع عنه سيفه ، والقميص الاكليروسى البديع ، الرقيق النسيج ، الذى كان يستر به الرداء البالى عندما يسعى إلى فرقة المرتلين ، والزهو الذى كنت اسير به — وأنا ممسك بصافرتى الصغيرة — لأتخذ مكانى مع العازفين على المنصة ، لأشترك فى ختام مقطوعة صغيرة لحنها السيد « لوميتر » خصيصا من أجلى .. ثم

الفداء الطيب الذى كان ينتظرنا بعد ذلك ، والشهية الملحوظة التى كنا نقبل بها عليه .. هذا التتابع الحافل ، الذى أتمثله ، قد فتننى ـــ فى ذكره ـــ أكثر مما فتننى فى الحقيقة مائة مرة ! ولقد احتفظت دائما بميل عاطفى للحن معين من «كونديتور آلمى سيديرم » يرافق شعرا من بحر الغمب(١) ، لأننى سمعته مرة ـــ فى يوم أحد الصوم الكبير ـــ وأنا مستلق فى فراشى ، وكان يرتل على درج الكاتدرائية قبيل انبثاق النهار ، وفقا لعادات تلك الكنيسة . ولقد كانت الآنسة « ميرسيريه » ـــ وصيفة « ماما » ـــ على دراية بقسط من الموسيقى . ولن أنسى البتة أرجوزة دينية صغيرة كان السيد « لوميتر » يحملنى على أن أغنيها معها ، فكانت سيدتها تصغى إليها فى طرب عظيم . وقصارى القول أن الجميع ، حتى الخادم الطيبة « بيرين » ـــ وهى فتاة ساذجة اعتاد الفتية المرتلون أن يثيروا غيظها ـــ هؤلاء جميعا يمثلون للخاطر من بين ذكريات تلك الأيام الهنيئة البريئة ، التى كثيرا ما تتراءى لى لتطربنى وتحزننى !

وعشت فى (أنيسى) زهاء عام دون ما لوم ولا تثريب ، فقد كان الناس كلهم راضين عنى ، فاننى ـــ مذ غادرت تورين ـــ لم أرتكب حماقة ، وما كان لى أن أرتكب ما دمت تحت بصر

---

(١) بحر من الشعر الأعجمى تكون القافية فيه مؤلفة من كلمات ذات مقطعين .

« ماما » ، فقد كانت ترشدنى ، وكانت دائما تحسن إرشادى، وأصبح تعلقى بها هو عاطفتى المشبوبة الوحيدة . ومما يدل على أنها لم تكن عاطفة رعناء ، أن قلبى كان يكون عقلى وإدراكى . ومن الصحيح أن ثمة إحساسا واحدا كان يبتلع ــ كما ينبغى أن يقال ــ كل مقدراتى وكفاءاتى ، فجعل فى غير استطاعتى أن أتعلم شيئا ، حتى الموسيقى ، بالرغم من أننى بذلت كل جهدى . على أنه لم يكن ذنبى !.. فقد كانت العزيمة الطيبة متوفرة على أتم وجه ، كما كانت المثابرة موجودة . ولكنى كنت شارد الذهن ، حالما .. فكنت أتنهد : ما الذى أملك أن أفعله ؟ لم يكن ينقص تقدمى شىء من الأشياء المتوقفة على أنا ، ولم أكن أحتاج ــ لكى أرتكب حماقات جديدة ــ إلى غير موضوع أو شخص « ملهم » يوحى إلى بهذه الحماقات !.. ولقد ظهر هذا الموضوع ، إذ تولت المصادفة تدبير الأمور ، وعرف رأسى الغبى كيف يستغل ذلك ، كما سترى مما يلى :

ففى إحدى أمسيات شهر فبراير البارد ، سمعنا طرقا على الباب الخارجى ، بينما كنا نحيط بالمدفأة . وحملت « بيرين » مصباحها ، وهبطت ففتحت الباب ، وإذا بشاب يدخل ، ويصعد معها ، ويقدم نفسه فى غير كلفة ، ويوجه إلى السيد « لوميتر » تحية قصيرة ، لبقة ، ويعلن أنه موسيقى فرنسى

دفعه سوء حالته المـــالية إلى أن يعرض خدماته على كنائس الابرشيات ليحصل على ما يمكنه من مواصلة الانطـــلاق فى طريقه . وإزاء هذه الكلمات من « الموسيقى الفرنسى » ، خفق قلب « لوميتر » الطيب ، فقد كان يتدله فى حب بلده وفنه . واحتفى بالمسافر الشاب ، وعرض عليه مأوى لليلته ، وهو ما كان يبدو فى أمس الحاجة إليه ، ومن ثم فقد قبله دون كثير كلفة . وأخذت اتفحصه وهو يتدفأ ويسمر فى انتظار العشاء . كان قصير القامة ، عريض المنكبين . وكان ثمة عيب ـــ لم أدر كنهه ـــ فى قوامه ، دون ما نقص معين أو تشويه محدد . كان ـــ إذا صح التعبير ـــ ذا ظهر محدودب ، مع استواء لوجى الكتفين ، كما أظن أنه كان يعرج قليلا فى مشيته . وكان فى ثوب أسود أبلاه الاستعمال المستمر أكثر ممـــا أبلاه القدم ، فتهلهل . . وقميص من نسيج ثمين ولكنه جد متسخ ، به زوائد ذات حواف دقيقة الوشى تزين صـــدره ، وطماقين (١) كان بوسعه أن يدس ساقيه معا فى أى منهما !. . كمـــا كان يتقى الصقيع بقبعة صغيرة يستطيع أن يدسها تحت إبطه !. . ومع هذا الزى المضحك ، فانه كان على شىء من النبل لم تكن هيئته تكذبه . كانت طلعته رقيقة بشوشة ، وكان يتـــكلم بطلاقة

---

(١) « الطماق » وقاء يعلو الحذاء وبعض الساق ، وقد اشتهر باسمه الأعجمى « جيتر » أو « طزلك » .

ولباقة ، ولكن فى تواضـــع جم .. كان كل شىء فيـــه ينم عن شاب ماجن ـــ وإن كان طيب التربيـــة ـــ لم يكن يســـتجدى كالمتسولين ، وإنما كالمجانين ! ولقد أنبأنا بأنه يدعى « فينتور دى فيينيف » ، وقد وفد من باريس ، وضل الطريق .. وأنه نسى ، إلى حد ما ، دوره كموسيقى . وأضاف أنه كان ذاهبا إلى (جرينوبل) ليقابل قريبا له عضوا فى البرلمـــان .

وأثناء العشاء دار الحديث حول الموسيقى ، فأجاد الـــكلام عنها . كان يعرف كبار العازفين جميعـــا ، وكافة المؤلفين الذائعى الصيت ، وكل الممثلين ، وجميع الممثلات ، وحسان النساء طرا ، والسادة العظماء بأسرهم ! كان يبدو ملما بكل شىء يقال ، ولكن ما أن يثار موضوع ، حتى يجول عنه الانتباه ببعض الفكاهات التى تبعث على الضـــحك وعلى نســـيان ما يقال !.. وكنا فى يوم السبت ، ومن المقرر أن نعـــزف فى الكاتدرائية فى اليوم التالى ، فاقترح عليـــه السيد لوميتر أن يشترك فى الغناء هناك .. « عن طيب خاطر ! » .. فسأله عن طبقة الصوت .. « الطبقة العليا » ، ثم مضى يتحدث عن شىء آخر !.. وقبل الذهاب إلى الكنيسة ، قدم إليـــه دوره ليطلع عليه ، فلم يلق عليه نظـــرة . وأذهل تصرفـــه هـــذا « لوميتر » ، فهمس فى أذنى : « لســـوف ترى أنه لا يعـــرف علامة واحدة من العلامات الموسيقية ! » ، فأجبت : « شـــق

ما أخشى أن يكون كذلك » . ورحت أرقبه فى قلق ، حتى إذا بدىء الغناء ، خفق قلبى فى قوة كبيرة ، فقــد كنت شــديد الاهتمام به . وسرعـــان ما تبينت ما طمـــأننى ، إذ أنه غنى قطعتيه بأداء صحيح وبكل ذوق سليم يمكن تصورهما ، وفوق ذلك ، بصوت بالغ الجمال . أبدا لم ألق مثل هـــذه المفاجأة المستحبة ! وبعد القداس ، تلقى السيد فينتور التهانى ، جزافا من الكهنة والموسيقيين ، فكان يجيب عنها متفكها ، ولكن فى كثير من الكياسة دائما . وعانقه السيد لوميتر بحرارة ، وكذلك فعلت أنا ، وقد أبصر أننى كنت مغتبطا ، فبدا أن هذا سره !

وإنى لواثق من أن القارىء سيقرنى على أننى وقد أولعت بالسيد باكل ـــ الذى لم يكن برغم كل شىء سوى قروى جلف ـ كنت حريا بأن أشغف بالسيد فينتور الذى أوتى ثقافة وتربية ومواهب وذكاء وخبرة بالدنيا ، والذى كان من الممكن أن يوصف بأنه ماجن مستحب ! . . وكان هذا عين ما حدث لى ، وما أظن أنه كان حريا بأن يحدث لأى شاب آخــر فى مكانى . بل إن سهولة حدوثه كانت خليقة بأن تزداد كلما كان المرء أسلم رأيا فى إدراك الكفاءة ، وكلما كان أشد استعدادا لأن يفتتن بها . فليس من شك فى أن « فينتور » قد أوتى كفاءة ، وكفاءة نادرة فى مثل سنه ، تلك هى عدم الاندفاع إلى الكشـــف عن كل ما اكتسب من معرفة وتجربة وخبـــرة . ومن الصحيح أنه كان

يتمشدق بأشياء كثيرة لم يكن على علم بها ، ولكنه لم يكن يقول شيئا عن الأشياء التى كان على إلمام طيب بها ، والتى كانت كثيرة العدد .. وإنما كان ينتظر حتى تحين مناسبة لعرضها ، فاذا ما حانت انتهزها دون تلهف واندفاع ، فكان هذا يحدث أكبر الأثر . ولما كان يقف عقب كل موضوع ، فلا يحدث عما عداه ، لذلك لم يكن من سبيل إلى التكهن بالوقت الذى يفرغ عنده من عرض كل ما كان لديه .. كان فى حديثه مداعبا ، مرحا ، لا ينضب له معين ، ذا جاذبية خلابة .. يبتسم دائما ولا يضحك أبدا ، ويتكلم بأرق لهجة عن أشد الموضوعات جفافا ، فيجعلها مستساغة !.. حتى أشد النساء حياء كن يذهلن لما يتحملنه منه ، وكم شعرن بأن من الخليق بهن أن يظهرن له الغضب ، فلم يجدن القدرة على ذلك !.. ولم يكن ينشد من النساء سوى المومسات . ولست اعتقد أنه خلق ليكون ذا ثروة وجاه ، ولكنه خلق ليثير إيناسا ومرحا لا حد لهما فى مجالس أولئك الذين أوتوا الجاه والثراء ! وكان من العسير أن يبقى محصورا فى وسط الموسيقيين طويلا وهو الذى يملك مثل هذه المواهب المستحبة ، فى بلاد تقدرها وتحبها !

ولقد كان ميلى إلى السيد «فينتور» أكثر رشدا فى أسبابه ، وأقل انحرافا عن الصواب فى نتائجه ، بل وأكثر حرارة وأطول بقاء من حبى للسيد باكل !.. فلقد أحببت أن أراه ، وأن

أسمعه ، وكان كل ما يفعله يبدو لى رائعا ، وكل ما يقوله يبدو لى آيات منزلة ، ولكن افتتانى به لم يذهب إلى الدرجة التى لا أطيق معها فراقه . فلقد كان لى فى الجيرة وقاء عاصم من هذا الشطط (١) . وإلى جانب ذلك شعرت بأن مبادئه ، وإن كانت جد صالحة له ، إلا أنها لم تكن تصلح لى ، فلقد كنت أهفو إلى نوع آخر من المتع لم تكن لديه أية فكرة عنه ، بل أنه كان حريا بأن يسخر منى من أجله ! ومع ذلك ، فلقد وددت أن أربط هذا الود ، بذاك الذى كان يسيطر على . فتحدثت عنه إلى « ماما » فى وجد وحرارة ، كما أن « لوميتر » حدثها عنه فى إطناب ، فرضيت بأن يحضر إلى دارها . ولكن هذا اللقاء لم يكن موفقا على الاطلاق ، إذ أنه وجد « ماما » متحذلقة ، بينما وجدته هى ماجنا ، وخشيت على من مثل هذه المعرفة السيئة ، فلم تكتف بأن حرمت على إحضاره إلى الدار مرة أخرى ، بل أنها راحت تبين لى — بوضوح قوى — الأخطار التى أتعرض لها مع هذا الشاب ، حتى أننى ازددت تحفظا فى اندفاعى نحوه ، ولحسن حظ أخلاقى وإدراكى ، لم نلبث أن افترقنا بعد قليل !

* * *

كان للسيد « لوميتر » ما لأبناء فنه من ميول ، فكان يحب النبيذ .. على أنه كان يزهده إذا ما جلس إلى المائدة ، أما أثناء عكوفه على العمل فى مكتبه ، فقد كان لابد له من أن

---

(١) يقصد مدام دى فاران ، اذ كان بيتها مجاورا لدار السيد لوميتر .

يشرب . وكانت خادمته تعرف ذلك تماما ، فكان إذا ما أعد ورقه للتأليف ، وحمل كمانه ، لحقت به قنينة الشراب والكأس بعد لحظة !.. وكانت تستبدل بها قنينة أخرى مليئة بين آن وآخر ، فقد كان يكثر من النبيذ دون أن يثمل . وكان هذا فى الحق شيئا يدعو للرثاء ، إذ أن « لوميتر » كان فتى طيبا بفطرته ، وطروبا ، حتى أن « ماما » لم تكن تدعوه إلا بـ « قطى الصغير » !.. وكان - لسوء الحظ - مشغوفا بموهبته الموسيقية ، فكان يسرف فى العمل ، وبالتالى فى الشراب . وقد أثر هذا على صحته ، ثم على طباعه فى النهاية ، فكان فى بعض الأوقات كثير الهواجس ، سهل الاستثارة . وكان عاجزا عن أية خشونة أو غلظة ، عاجزا عن أن يقصر فى منح كل إنسان حقه من الاحترام ، فما قال يوما سبة ، ولو لصبى من المرتلين . وكذلك لم يكن أحد ليقصر فى احترامه وتقديره ، وكان هذا عدلا !.. ولكن سوء حظه تمثل فى أنه كان قليل الذكاء ، لا يميز بين التصرفات ولا بين الشخصيات ، ومن ثم فكثيرا ما كان يتوهم الإساءة لغير ما سبب !

ولقد فقد مجمع أساقفة جنيف القديم - الذى كان كثير من الأمراء والأساقفة يتشرفون بدخوله - بهاءه القديم ، فى مهجره ، ولكنه احتفظ بكرامته وكبريائه . فلابد دائما - للانضمام إليه - من أن يكون المرء من السادة ، أو من حاملى درجة الدكتوراه من « السربون » ، وإذا كان ثمة فخر مباح بعد ذاك المستمد من الكفاءة الشخصية ، فذاك هو الفخر المستمد من المولد . هذا إلى جانب أن كل القساوسة الذين

أوتوا رجالا مدنيين فى خدمتهم ، كانوا يعاملونهم عادة بكثير من الترفع والتعالى. وهكذا كان رجال الكنيسة يعاملون «لوميتر» المسكين فى كثير من الأحيان ، لا سيما المرتل الذى كان يدعى السيد الأب دى فيدون ، والذى كان فى كافة النواحى الأخرى موفور الأدب ولكنه شديد الزهو بنبل أصله ، فقد كان لا يولى « لوميتر » دائما حقه من التقدير الذى تؤهله له مواهبه ، ولم يكن هذا ليحتمل راضيا الغض من شأنه . ولقد وقع بينهما فى « أسبوع الآلام » ـ من ذلك العام ـ نزاع أشد احتداما من ذى قبل ، بسبب ترتيب الحضور فى مأدبة عشاء اعتاد الأسقف أن يقيمها لرجال الكنيسة ، وكان « لوميتر » يدعى إليها دواما. فقد أبدى له المرتل بعض الازدراء الصريح ، ووجه له كلمات قاسية لم يستطع أن يتحملها . ومن ثم فقد عقد العزم لفوره على أن يفر فى الليلة التالية . ولم يستطع شىء أن يثنيه ، برغم أن مدام دى فاران ـ التى ذهب إليها ليودعها ـ بذلت قصارى جهدها لتحوله عن عزمه . فما كان بوسعه أن ينزل عن لذة الثأر لنفسه من طغاته ، بأن يوقعهم فى مأزق فى عيد الفصح ، وهو الوقت الذى كانت تمس فيه الحاجة إليه . على أن ألحانه كانت أشد بواعث حيرته ، فقد أراد أن يحملها معه ، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة ، لأن الألحان كانت تملأ صندوقا كبيرا وعظيم الثقل ، بحيث لا يمكن حمله تحت الذراع .

ولقد فعلت « ماما » ما كان ينبغى أن تفعله ـ وما كنت أنا الآخر أفعله لو أننى كنت فى مكانها ـ فبعد كثير من الجهود غير المجدية لحمله على البقاء ، رأت أنه قد صمم على الرحيل

مهما يحدث ، فتحولت إلى التطوع لمساعدته فى كل ما يمكن أن يعتمد عليها فيه . وإنى لأجرؤ على القول بأن هذا كان واجبا عليها نحوه ، إذ كان « لوميتر » قد وقف نفسه ـــ كما ينبغى أن يقال ـــ لخدمتها . وكان رهن إشارتها تماما ، سواء فيما يتعلق بفنه ، أو فيما يحتاج إلى عنايته . وكان التحمس القلبى الذى اعتاد أن يبديه فى أداء رغباتها ، يضاعف من قيمة حرصه على إرضائها . ومن ثم فانها ـ بما أبدته من رغبة فى مساعدته ـــ إنما كانت تؤدى لصديق ، فى مناسبة حرجة ، ما يقابل كل ما فعله من أجلها فى مناسبات كثيرة متفرقة ـــ خلال ثلاث أو أربع سنوات ـــ وإن كانت قد أوتيت نفسا لا تحتـــاج ، لكى تؤدى مثل هذه الواجبات ، إلى من يذكرهـــا بأنها التزامات عليها . لذلك استدعتنى ، وأمرتنى بأن أرافق السيد «لوميتر» حتى (ليون) على الأقل ، وأن أظل ملازما له أطول وقت يكون فيه بحاجة إلى . ولقد اعترفت لى فيما بعد بأن الرغبـــة فى إقصائى عن « فينتور » كانت ذات شأن كبير فى هذا الإجراء . وتشاورت مع « كلود آنيه » ـــ خادمها الأمين ـــ بصدد نقل الصندوق ، فكان من رأيه أننا بدلا من أن نستأجر دابة لحمله من (أنيسى) ـــ مما قد يعرضنا للافتضاح ـــ يجب أن نتولى نحن حمل الصندوق إذا ما جن الليل ، إلى مسافة معينة ، ثم نستأجر حمارا من إحدى القرى لنقله إلى (سيسل) ، حيث نصبح على أرض فرنسية فلا نكون معرضين لأى خطر . وقد أخذنا بهذه النصيحة ، فرحلنا فى الساعة السابعة من مساء اليوم ذاته ، وأتخمت « ماما » كيس نقود « القط الصغير » المسكين ، بمبلغ لم يكن عديم النفع له ، بحجة دفع نفقاتى .

وحمل كلود آنيه والبستانى وإياى الصندوق ـ بقدر ما استطعنا ـ حتى أول قرية ، حيث أعفانا منه حمار .. وبلغنا (سيسل) فى الليلة ذاتها .

وأعتقد أننى أشرت من قبل إلى أن ثمة أوقاتا لا أشبه فيها نفسى فى شىء ، حتى لأبدو شخصا آخر ، ذا شخصية مخالفة لشخصيتى . وها كم مثالا لذلك : فان السيد « ريديليه » ـ راعى كنيسة سيسل ـ كان من قساوسة كنيسة القديس بطرس ، ومن ثم كان يعرف « لوميتر » ، كما كان من الذين ينبغى على هذا أن يتوارى عنهم . ولكنى رأيت نقيض ذلك ، فنصحت بأن نذهب فنقدم نفسينا إليه بحجة ما ، ونسأله مأوى لليلتنا ، وكأننا فى (سيسل) بموافقة من « المجمع » ! واستساغ « لوميتر » هذه الفكرة التى تجعل ثأره ساخرا ، لاذعا ، ومن ثم سعينا متجلدين إلى دار السيد « ريديليه » الذى أحسن استقبالنا . وذكر له « لوميتر » أنه كان فى طريقه إلى (بيلاى) بناء على طلب من الأسقف ، ليدير موسيقاها فى عيد الفصح ، وأنه يتوقع أن يعود بعد أيام قلائل . أما أنا فقد كان على ـ لكى أدعم هذه الأكاذيب ـ أن أسكب مائة أكذوبة أخرى ، بشكل طبيعى ، حتى أن السيد « ريديليه » ـ إذ رآنى فتى جميلا ـ أبدى لى الود وعانقنى ألف مرة . وحظينا بحفاوة طيبة ، وبمضجعين مريحين . ولم يدر السيد «ريديليه» إلى أى حد رفع قدرنا ، وافترقنا كأحس أصدقاء فى العالم ، بعد أن وعدناه بأن نمكث وقتا أطول فى عودتنا . ولم نكد نقوى على الانتظار حتى نخلو إلى نفسينا لنطلق العنان لقهقهتنا . وأصارحكم أنى ما أزال أفعل الشىء ذاته كلما فكرت فى تلك

الحيلة ، فلست أتصور البتة حيلة ماكرة أكثر إحكاما ولا أسعد مصيرا منها . وقد كانت جديرة بأن تنعش نفسينا طيلة الرحلة ، لولا أن « لوميتر » ـــ الذى لم يكف عن الشراب وعن التنقل بين حانات الريف ـــ أصيب مرتين أو ثلاثا بنوبات كادت تقضى عليه ، وكانت شديدة الشـــبه بالصرع . وقد زج بى هذا فى مآزق أفزعتنى ، وحملتنى على التفكير فى الخروج من الأمـــر كله بقدر استطاعتى !

وذهبنا إلى (بيلاى) لنقضى عيد الفصح ، كما قلنا للسيد ريديليه ، ومع أن أحدا لم يكن يتوقع حضورنا ، إلا أننا لقينا من رئيس موسيقيى الكنيسة ترحيبا ، كما احتفى بنا الجميع بسرور بالغ . فقد كان للسيد لوميتر صيت ذائع فى فنه ، وكان يستحقه عن جدارة . ولقد تاه رئيس موسيقيى (بيـــلاى) فخرا بعرض أبدع ألحانه عليه ، وسعى للحصول على تقريظ ناقد مثلـــه ، فقـــد كان لوميتر خبيرا ، وكان إلى جانب ذلك منصفا دائما ، متحررا من الغيرة ، بعيدا عن الرياء . كان أرفع مكانة من كل رؤساء فرق المرتلين الإقليمية ، وقد كانوا يدركون ذلك كل الإدراك ، حتى أنهم كانوا ينظرون إليه كرئيس لهم ، أكثر منه كزميل !

وبعد أن قضينا أربعة أو خمسة أيام ـــ على خير حال ـــ فى (بيـــلاى) ، استأنفنا الرحيل ، ومضـــينا فى طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التى ذكرتها من قبل . وإذ بلغنا (ليون) ، نزلنا فى فندق « نوتردام دى بيتييه » . وفيما كنا ننتظر وصول الصندوق ـــ الذى استطعنا بفضل أكذوبة أخرى ، أن نرسله



ومضينا في طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التي ذكرتها من قبل ..

على مركب فى نهر (الرون) بمعونة راعينا الطبيب : السيد ريديليه ـ ذهب السيد لوميتر لزيارة معارفه ، ومنهم الأب كاتون ، (أحد الرهبان السمر ، وسوف يرد ذكره فيما بعد) ، والراهب دورتان ، كونت دى ليون . وقد تلقاه الاثنان فى إكرام ، ولكنهما غدرا به فيما بعد ، كما سيتبين القارىء فى الحال . فلقد نفد حسن حظه فى دار السيد ريديليه !

بعد يومين من وصولنا إلى (ليون) ، كنا نجتاز شارعا صغيرا ، بالقرب من فندقنا ، وإذا لوميتر يصاب باحدى نوباته ، وكانت من العنف بدرجة أفزعتنى ، فرحت أصيح وأصرخ مستنجدا ، وذكرت اسم الفندق ، راجيا نقله إلى هناك . وبينما التف الناس حوله ، متحمسين لمعونة رجل سقط فى الطريق فاقد الوعى وقد أخذ الزبد يفور على فمه ، إذا به يمنى بهجر الصديق الوحيد الذى كان من حقه أن يعتمد عليه . إذ أننى انتهزت اللحظة التى لم يكن فيها أحد يفكر فى أمرى ، وتسللت حول ركن الشارع ، ثم اختفيت . وإنى لأحمد السماء إذ أدليت بهذا الاعتراف الأليم الثالث . ولو كان لدى كثير من هذا النوع ، لهجرت هذا المؤلف الذى بدأته .

لقد بقيت آثار من كل الذى ذكرته حتى الآن ، فى الأماكن التى عشت فيها ، ولكن الذى سأورده فى الكراسة التالية ، يكون مجهولا تماما .. إنها أعظم حماقات حياتى ، وقد كان من حسن الحظ أنها لم تفض إلى نهايات أسوأ مما انتهت إليه . ولكن رأسى كان قد فقد اتزانه ، ثم استرده من تلقاء ذاته ، وإذ ذاك كففت عن الحماقات ، أو أننى لم أعد ارتكب منها

سوى ما هو أكثر ملاءمة لطبيعتى ! وهذه الفترة من شبابى هى إحدى الفترات التى تضطرب ذكراها فى رأسى ، إذ أنه لم يمر بى خلالها من الأحداث شىء مشـــوق لقلبى بدرجة تكفى لأن أحتفظ له بذكرى واضـــحة . ومن ثم فمن العســـير الا ارتكب بعض أخطاء أخلط فيها بين الأزمنة أو الأماكن ، أثناء مثل هذه الروحات والغدوات ، وفى خلال التطورات العديدة المتتابعة .. إننى اكتب معتمـــدا على ذاكرتى تمـــاما ، دون ما مذكرات ، ودون ما مواد تعيننى على التذكر .. وفى حيـــاتى أحداث لا تزال حاضرة وكأنها وقعت لتوها ، ولكن هناك كذلك ثغرات وفراغات لا أملك أن أملأها إلا بروايات مهوشة كتلك الذكريات المتبقية لها . ومن ثم فاننى معرض للخطأ أحيـــانا ، كما أننى قد أرتكب الخطأ ثانية ـــ فى مسائل غير مهمة ـــ إلى أن يحين الوقت الذى أملك فيه عن نفسى معلومات أوثق . أما فى كل ما له أهمية حقيقية من الموضوعات ، فاننى مطمئن إلى دقتى وأمانتى ، اللتين سأحرص عليهما دائما فى كل شىء .. وللقارىء أن يثق من ذلك .

* * *

ما أن غادرت السيد لوميتر ، حتى استقر عزمى ، فكررت عائدا إلى (انيسى) . وكنت قد شغلت بسبب غموض رحيلنا إلى درجة كبيرة ، من أجل سلامة إقامتنا . وقد صرفنى هـــذا الانشغال ـــ الذى استغرق كل اهتمامى ـــ أياما عن التفكير فى العودة . على أن الشعور بالسلامة لم يكد يعفينى من القلق ، حتى عاد وجـــدى إلى سيطرته وسلطانه ، فلم يهف بقلبى أو

يغرينى شىء سوى أن أعود إلى « ماما » . كان صدق تعلقى بها ورقته قد اجتثا من فؤادى كل حماقات الطموح ، ولم أعد أرى سعادة إلا فى العيش معهــا ، ولا سرت خطوة دون أن أشعر بأننى كنت أبتعد عن هنائى . ومن ثم عدت إليها بأسرع ما كان ممكنا . وكان سفرى متعجلا ، وذهنى شــاردا ، إلى درجة أننى وإن كنت أذكر بكثير من السرور رحلاتى الأخرى ، فلست أملك أتفه ذكرى لهذه الرحلة ، اللهم إلا مغادرتى ليون ووصولى إلى (انيسى) .. ومنذا الذى يتصور أن تخبو هذه الأخيرة من ذهنى !.. فعند وصولى ، لم أجد مدام دى فاران .. كانت قد رحلت إلى باريس !

ولم يقدر لى قط أن أعرف سر هذه الرحلة .. ولقد كانت هذه السيدة خليقة بأن تذكره لى ، لو أننى ألححت ، فهذا ما أثق منه كل الثقة . ولكن أحدا لم يكن قط أقل منى فضــولا إزاء أسرار الأصدقاء ، إذ أن قلبى لا يفعم بغير الحاضر ، وهو يمتلىء به تماما ، فلا يبقى فيه ركن خال لأى شىء من الماضى ، فيما عدا المتعالسالفة ، التى تؤلف بعد ذلك لذتى الوحيدة !.. على أن الذى أتخيله ــ من القليل الذى أنبأتنى به « ماما » ــ هو أن الثورة التى قامت فى (تورين) بسبب نزول ملك سردينيا عن عرشه ، جعلتها فى خوف من أن تغدو منسية ، فشاءت ــ بفضل حيل السيد دوبون ــ أن تسعى للحصول على نفس ما كان لها من امتيازات ، من بلاط فرنســا الذى كانت كثيرا ما تقول لى انها تفضله على بلاط ملك سردينيا ، لأن المرء ــ فى غمرة الشئون الهامة الكثيرة التى يشغل بها ذلك البــلاط

الفرنسى ـ لا يظل تحت رقابة صارمة.. وإذا كان الأمر كذلك، فمن الغريب حقا أنها لم تقابل ـ عند عودتها ـ بوجوه عابسة، وأنها ظلت تستمتع بمعاشها باستمرار ، ودون انقطاع . ولقد اعتقد كثير من الناس أنها كانت مكلفة بمهمة سرية : إما من قبل الأسقف ـــ الذى كانت له بعض شئون فى البلاط الفرنسى ـــ وإما من قبل شخصية أعظم سلطانا ، كانت تعــرف كيف تضمن لها عودة سعيدة !. والمؤكد ـــ إذا كان الأمر كذلك ـــ أن اختيـــار مدام دى فاران كرســـول ، لم يكن بعيـــدا عن الصواب ، فقد كانت تملك كل المؤهلات اللازمة لإنجاح أيـــة مفاوضات ، سيما وأنها كانت لا تزال شابة .. وجميلة !

الكراسة الرابعة

٦ ـ من سنة ١٧٣١ إلى سنة ١٧٣٢

وصلت فلم أجدها ، فتصور مدى دهشتي وأساى !.. إذ ذاك ، بدأ ندمى على التخلص من السيد « لوميتر » يتخذ شكلا محسوسا ، لم يلبث أن ازداد حدة عندما سمعت بما أصابه من نحس ، فان الصندوق الموسيقى الذى كان يحتوى على كل ثروته .. هذا الصندوق الثمين الذى أنقذ بكثير من العناء ، انتزع منه عند وصوله إلى (ليون) ، بناء على أمر الكونت « دورتان » الذى كتب إليه مجمع القساوسة يطلعه على التهريب .. وعبثا طالب « لوميتر » بثروته ، بوسيلة معاشه ، بنتاج عمله طيلة العمر ! وكانت ملكية الصندوق تستحق أن تكون موضوع نزاع قضائى على الأقل ، بيد أن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد حسم الأمر فى الحال ــ بحكم قانون الأقوى ! ــ وبهذا فقد « لوميتر » المسكين ثمرة مواهبه .. جهد شبابه ومعين شيخوخته !

ولم يكن ينقص الضربة التى تلقيتها شيء كى تصبح مضنية، ولكنى كنت فى سن ليس للأحزان فيها قبضة تذكر ، فسرعان ما ابتدعت لنفسى أسباب العزاء .. فرحت أتوقع أن أتلقى عما قريب أنباء من مدام «فاران» ، برغم أننى لم أكن أعرف عنوانها، كما كانت هى تجهل أننى رجعت .. أما بصدد التخلى عن السيد « لوميتر » ، فاننى بعد التأمل فى هذا الأمر لم أجد فيه ذنبا بالغا ، فلقد كنت نافعا له فى فراره ، وهذه هى الخدمة

الوحيدة التى كانت تتوقف على . ولو أننى بقيت معه فى فرنسا لما شفيته من علته ، ولما أنقذت صندوقه ، ولما فعلت سوى أن أضاعف نفقاته دون أن أملك له نفعا .. هكذا رأيت الأمر ، إذ ذاك ، وإن كنت أراه اليوم على النقيض . فان التصرف الخسيس لا يكربنا عند ارتكابه ، وإنما يصبح مصدر هم لنا عندما نذكره بعد وقت طويل ، لأن ذكراه لا تخمد قط !

وكان الدور الوحيد الذى استطعت أن أقوم به للحصول على أنباء « ماما » ، هو أن أنتظر ، وإلا فأين كنت أبحث عنها فى باريس ، وبأى نفقات كنت أقوم بالرحلة ؟ لم يكن ثمة مكان أكثر ضمانا من (أنيسى) لمعرفة مقرها ، إن عاجلا أو آجلا . ومن ثم فقد مكثت بها ، ولكنى أسأت التصرف إلى حد كبير ، إذ أننى لم أذهب إطلاقا لزيارة الأسقف الذى كفلنى من قبل — والذى كان بوسعه أن يكفلنى من جديد — فان راعيتى لم تعد على مقربة منه ، وقد خشيت اللوم منه على ذلك الهرب . وكذلك لم أعد أذهب إلى المعهد الدينى ، إذ أن السيد «جرو» لم يعد هناك .. ولم أر أحدا من معارفى ، وإن كنت قد تمنيت أن أذهب لزيارة زوجة وكيل الإدارة ، لولا أننى لم أجرؤ قط !.. بل إننى ارتكبت ما هو أسوأ من كل هذا ، فقد سعيت إلى السيد « فينتور » ، الذى لم أفكر فيه البتة منذ رحيلى ، برغم شغفى به ، فوجدته متألقا مكرما فى (أنيسى) بأسرها ، والنساء يتزاحمن عليه ! وقد أفقدنى هذا التوفيق حجاى تماما ، فلم أعد أبصر سوى السيد « فينتور » ، بحيث أوشك أن ينسينى « مدام دى فاران » . ولكى أفيد من دروسه بمزيد

من اليسر ، عرضت عليه أن يشركنى معه فى مسكنه ، فوافق . وكان يسكن لدى إسكافى لطيف مهذار ، لم يكن يطلق على زوجته ــ بلهجته الريفية ــ سوى « العاهرة » ، وهو اسم كانت أهلا له ! وكانت له معها مشاجرات اعتاد «فينتور» أن يسعى لإطالتها وهو يتظاهر بالرغبة فى أن يفعل العكس . إذ كان يوجه إليهما ــ بلهجة هادئة ، وبلكنته الإقليمية ــ كلمات تحدث أعظم أثر .. وكانت تلك مناظر تجعل المرء يقع مغشيا عليه لفرط الضحك !.. وهكذا كانت فترات الصباح تنقضى دون أن يفطن إليها المرء . فاذا كانت الساعة الثانية أو الثالثة ، تناولنا لقمة ، ثم يذهب « فينتور » إلى الأوساط التى كان يغشاها ، حيث يتناول عشاءه .. أما أنا فكنت اتمشى وحيدا ، مفكرا فى براعته البالغة ، وأنا أعجب بمواهبه الفذة وأغبطه عليها ، لاعنا طالعى المنحوس الذى لم يكن يفضى بى إلى مثل هذه الحياة الهانئة !.. آه ! ما أقل ما كنت أعرفه عن الحياة الهانئة ! إن حياتى بالذات كانت خليقة بأن تكون أكثر بهجة مما كانت مائة مرة ، لو أننى كنت أقل غباء ، ولو عرفت كيف أستمتع بهذه الحياة على نحو أفضل !

ولم تكن مدام دى «فاران» قد صحبت معها سوى «أنيه» ، بينما تركت « ميرسيريه » وصيفتها التى تحدثت عنها من قبل، والتى وجدتها تشغل مخدع سيدتها . وكانت الآنسة «ميرسيريه» فتاة تكبرنى قليلا، ليست بالجميلة ، ولكنها مقبولة الشكل .. فتاة طيبة من بنات (فريبورجوا) بريئة من الخبث ، ما عرفت لها من عيب سوى أنها كانت فى بعض الأحيان ــ

تعصى سيدتها . فأخذت أكثر من زيارتها ، إذ أنهـا كانت من المعارف القدامى ، وكان مرآها يذكرنى بمن كانت أعز منهـا لدي ، وبمن أحببتها من أجلها . وكانت لها صديقات عديدات بينهن آنسة تدعى « جيرو » ، من بنات (جنيف) ، شاءت أن تهوانى ، برغم نقائصي . فكانت تلح دائما على « ميرسيريه » أن تصطحبنى إلى دارها . وقد تركتها تفعل لأننى كنت أحبها ـ أعنى ميرسيريه ـ ولأننى كنت أجد هناك فتيات أخريات أرتاح إلى رؤيتهن . أما عن الآنسة جيرو ـ التى كانت تبدى لى كل ألوان المضايقات ـ فلم يكن لدى إنسان ما يفوق النفور الذى كنت أحسه نحوها !.. كنت أجد عناء ـ إذا ما قربت من وجهى أنفها الأعجف الأسود الملوث بالسـعوط ـ فى أن أكبح نفسى عن البصق عليه ! بيد أننى تشبثت بالصبر ، إذ كنت إلى جوارها أنعم كثيراً بالوجود وسـط هؤلاء الفتيات اللائى كن يتبارين فى الاحتفاء بى ، إما بدافع التملق للآنسـة جيرو ، أو التقرب إلى شخصيا . ولم أكن أرى فى كل هـذا صداقة . ولقد تراءى لى فيما بعد أنه كان فى وسعى أن أرى ما يزيد على الصداقة ، ولكن هـذا لم يخطر ببالى ، ، ولا أنا أوليته أى تفكير !

وإلى جانب ذلك ، فان الحائكات والوصيفات وعاملات المتاجر لم يكن يستهويننى البتة ، وإنما كنت أصبو إلى الآنسـات الراقيات !.. إن لكل امرىء أحلامه الخيالية ، وقد كانت تلك أحلامى دواما . ولسـت أرى فى ذلك ما رآه « هوراس » . على أنه من المؤكد أن أبهة المكانة والمنصب لم تكن هى التى

تجتذبنى ، وإنما كانت تفتننى بشرة مصـــونة بعناية ، ويدان جميلتان ، وزينة بديعة ، وجو من الرقة والطهر يشمل الشخص بأكمـــله ، وذوق ضـــاف فى الحـــركة والقـــول ، وثـــوب غال بديع الصنع ، وحذاءان صغيران ، وأشرطة و «دانتيلا» ، وشعر أنيق التصفيف .. وقد اعتدت دائمـــا أن أفضـــل من أوتيت كل هذا ، ولو كانت أقل الفتيات جمالا ! .. والواقع أننى أنا نفسى أرى فى هذا التفضيل أمرا يدعو إلى الضحك ، ولكن قلبى يهفو إليه على الرغم منى !

***

حسنا ! .. لقد سنحت لى هـــذه الميزات مرة أخـــرى ، ولم يكن على سوى أن أستغلها . لكم أحب أن أقع ـــ من آن إلى آخر ـــ على اللحظات البهيجة فى شبابى ! .. ما كان أحلاها لى ، وما كان أقصرها وأندرها ! .. ولقد استمتعت بها بأبخس الأثمان ! .. آه ! إن مجـــرد تذكـــرها يثير من جديد فى قلبى نشوة طاهرة أنا فى مسيس الحاجة إليهـــا لتجديد جرأتى ، ولدرء الهجوم عن بقية سنى حياتى !

ففى ذات صباح ، بدا لى الفجـــر من الجمال بحيث أننى ارتديت ثيابى فى عجلة ، وأسرعت إلى الخلاء لأشهد شروق الشمس . واستمرأت هذه المتعة بكل فتنتها ، وكان ذلك فى الأسبوع التالى لعيد القديس يوحنا ، والأرض فى أبهى زينتها ، وقد كساها العشب والزهور .. وكانت البلابل قـــد أوشكت على نهاية تغريدها ، فبدا أنهـــا كانت تســـتعذب الإمعان فى

إطلاق أصواتها .. بل إن الطيور جميعا راحت تشدو مودعة الربيع ، متغنية بمولد يوم بديع من أيام الصيف .. يوم من تلك الأيام الجميلة التي لم يعد المرء يراها في سني هذه ، والتي لا يراها المرء إطلاقا في هذه البلاد الكئيبة التي أقيم فيها اليوم (١) .

وابتعدت عن المدينة دون أن أشعر . واشتدت حرارة الشمس ، فرحت أسير تحت ظلال أشجار واد صغير على ضفة غدير . ثم سمعت خلفي وقع حوافر جياد ، وصوت فتاتين بدا أنهما كانتا في محنة ، وإن راحتا تقهقهان من أعماقهما . والتفت ، فإذا نداء باسمي ينبعث ، فاقتربت .. ووجدت فتاتين من معارفي ، هما الآنسة دي « جرافينرييه » والآنسة دي « جالي » ، اللتان لم تعرفا كيف تحملان جواديهما على عبور الغدير ، لأنهما لم تكونا فارستين ماهرتين . وكانت الآنسة « دي جرافينرييه » شابة من (بيرن) ذات ملاحة طاغية ، وقد طردت من موطنها من جراء بعض الطيش الذي تتسم به سنها ، فحذت حذو مدام دي « فاران » — التي كانت تتردد على دارها لماما — على أنها لم تكن ذات مورد للعيش ، فلم تملك سوى أن تغتبط بأن تربط نفسها بالآنسة دي «جالي» التي شعرت بمودة نحوها ، فأغرت أمها على السماح لهذه الرفيقة بأن تقيم معها ريثما تجد عملا . وكانت الآنسة دي جالي تصغر زميلتها بعام ، كما كانت تفوقها حسنا . كانت

---

(١) كان « روسو » وهو يكتب هذا الجزء من اعترافاته يعيش في (ووتون) بمقاطعة (ستراففورد شاير) بانجلترا .

على قدر من الرقة والترفه لا قبل لى بوصفه ، وكانت فى الوقت ذاته دقيقة القسمات ، بديعة القوام ، أوتيت من الفتنة أكبر قسط يمكن أن تحظى به فتاة !.. وكانت كل منهما مشغوفة بالأخرى حبا ، ولم تكن طيبة نفسيهما إلا عامـلا على تمكين هذا الود من أن يبقى طويلا ، دون أن يقوى أى عاشق على تعكيره !

وقالت لى انهما كانتا تقصدان (تون) ، القصر العتيق الذى كانت تمتلكه السيدة جالى ـ والدة الفتاة ـ ثم طلبتا مساعدتى فى حمل الجوادين على عبور الجدول ، الأمـر الذى لم تقويا عليه . وهممت بأن أسوط الجوادين ، ولكن الفتاتين أشفقتا على من الركلات ، وعلى نفسيهما من الوقوع .. لذلك عمدت إلى حيلة أخرى ، فأخذت بمقود جواد الآنسة دى جالى ، ثم جررته خلفى ، وخضت الجدول الذى وصل ماؤه إلى ركبتى .. وإذ ذاك تبعنا الجواد الآخر دون عناء . وإذ تم ذلك ، هممت بأن أحيى الآنسـتين ثم أمضى فى طريقى كأى أحمق ، ولكنهما تبادلتا بضع كلمات بصـوت خفيض ، ثم خاطبتنى الآنسة دى جرافينرييه قائلة : « لا ، لا .. ما هكذا يفلت المرء منا ! لقد أصابك البلل وانت تؤدى لنا خدمة ، فأصبح من واجبنا ـ نحو ضميرنا ـ أن نعنى بك حتى تجف .. فخليق بك ـ إذا تكرمت ـ أن تأتى معنا ، إذ أنك أسيرنا ! » .

وخفق قلبى ، وتطلعت إلى الآنسة جالى ، فأضافت وهى تضحك لما بدا على من ارتباك : « أجل ، اجل .. أسير حرب! اركب خلفها ، فنحن مسئولتان عنك ! » .. فقلت محتجا : « ولكن ، يا آنسة .. إننى لم أحظ بشرف التعرف إلى أمك ،

فماذا ترينها قائلة إذا ما رأتنى ؟ » .. وأجابت الآنسة دى جرافينرييه : « إن أمها ليست فى (تون) ، فقد جئنا وحدنا ، وسنعود فى المساء ، وبوسعك أن تعود معنا ! » .

وما كان للكهرباء أن تحدث فى كيانى تأثيرا أسرع مما أحدثته هذه الكلمات .. فقفزت إلى صهوة جواد الآنسة دى جرافينرييه وأنا ارتجف غبطة . وكنت كلما اضطررت إلى أن أحيط خصرها بذراعى لأحفظ توازنى ، خفق قلبى بعنف لم تلبث أن لاحظته ، فقالت إن قلبها ـ هو الآخر ـ كان يخفق ، لأنها كانت فى خوف من الوقوع !.. وكان قولها ـ فى مثل هذا الموقف ـ بمثابة دعوة لى كى أتحرى بنفسى صدقه ، ولكنى لم أجرؤ قط !.. ولقد ظلت ذراعاى ـ طيلة الرحلة ـ تحيطان بها إحاطة الحزام المشدود ، ولكنه حزام لم يتزحزح عن موضعه لحظة !.. وكم من امرأة ممن يقرأن هذا ، تحس من نفسها رغبة فى أن تعرك أذنى .. ولن تكون مخطئة فى ذلك !

وأطلق بهاء الرحلة وثرثرة الشابتين لسانى ، فلم نسكت حتى المساء . بل إننا لم نصمت لحظة طيلة وجودنا معا ! ولقد استطاعتا أن تسريا عنى الحرج ، فاذا لسانى لا يقل نشاطا عن عينى ، وإن اتخذ أسلوبا غير أسلوبهما . ولم يكن الحديث يتوتر قليلا إلا فى بضع لحظات كنت أجد نفسى فيها على انفراد مع إحدى الشابتين ، ولكن الغائبة كانت سرعان ما تعود ، دون أن تسمح لنا بوقت نتجرى فيه سبب ارتباكنا !

وما أن بلغنا (تون) ، وجففت ثيابى ، حتى تناولنا الفطور . وكان لابد بعد ذلك من الانصراف إلى المسألة الهامة : مسألة

إعداد الغداء . فكانت الشابتان تتوقفان من حين إلى آخر ـ وهما عاكفتان على الطهو ـ لتقبلا أبناء حارسة المزرعة .. بينما كان غاسل الأطباق المسكين ـ أنا ! ـ يحملق فيهما ويكبح جماح نفسه ! وأرسلتا إلى المدينة فى طلب المؤن وكل ما يكفى لغداء شهى ، لا سيما الحلوى . ولكنهما نسيتا النبيذ لسوء الحظ ! ولم يكن هذا النسيان بمستغرب من فتاتين لا تشربان الخمر قط ، بيد أننى استأت إذ كنت أعـول على معونته فى استمداد الجراة . ولقد استاءتا هما الأخريان كذلك ، ولعل استياءهما كان لنفس السبب ، وإن كنت لا أظن ذلك . وكان مرحهما العارم الفاتن هو البراءة ذاتها ! وإلا فماذا كانتا تملكان أن تفعلاه بى فيما بينهما ؟!.. ولقد أرسلتا فى البحث عن نبيذ فى كافة البقاع المجاورة ، فلم يعثر على شىء منه البتة ، إذ كان اهل تلك المقاطعة فقراء لا يقربون الخمر . وإذ راحتا تعربان لى عن أسفهما ، قلت لهمـا أن لا داعى لأن تتجشما هـذا العناء ، وإنهما لم تكونا بحاجة إلى نبيـذ لكى تسكرانى !.. وكانت هذه هى المجاملة الوحيدة التى جرؤت على قولها طيلة النهار . على أننى اعتقد أن الماكرتين قد شهدتا بجلاء كاف أن هذه المجاملة كانت صادقة !

* * *

وتناولنا غداءنا فى مطبخ المزرعة ، وقد جلست الصديقتان على مقعدين طويلين (دكتين) إلى جانبى المـائدة ، وضيفهما بينهمـا ، على مقعـد مخفض ذى ثـلاث قوائم . ويا له من غداء !.. أية ذكرى طافحة بالفاتن ! ولمـاذا يسعى المـرء وراء ملاه أخرى ، إذا كان بوسعه أن يحظى بمسرات فى طهر

هذه وصدقها ، بأبخس الأثمان !؟.. أبدا ما قدر للوجبات فى منازل باريس الصغيرة أن تدانى هذه الوجبة . ولست أقول هذا عن بهجتها فحسب ، ولا عن طربها فحسب ، بل أقوله عن نشوتها الحسية كذلك !

وعمدنا بعد الغداء إلى شىء من الاقتصاد ، فبدلا من أن نحتسى القهوة التى تبقت من الافطار ، احتفظنا بها لنتناولها مع القشدة والفطائر التى أحضرتها الفتاتان معهما . ولكى نرضى شهيتنا ، ذهبنا إلى البستان لنتخذ من « الكريز » حلوى نختتم بها وجبتنا . فتسلقت الشجرة ورحت ألقى للفتاتين بعناقيد من الثمار ، بينما كانتا تردان إلى البذور (النويات) خلال الأغصان . وحدث فى إحدى المرات أن بسطت الآنسة جالى مرولتها ، وطوحت برأسها إلى الخلف ، وثبتت فى مكانها، فما كان منى إلا أن أحكمت الرماية وأنا ألقى بعنقود من الكريز ، فهوى فى صدرها !.. وانطلقت الضحكات !.. وقلت لنفسى : « ليت شفتى كانتا من الكريز !.. لكم أنا على استعداد لأن أرمى بهما إلى نفس المكان عن طيب خاطر ! ».

وهكذا انقضى النهار فى مرح استرسلنا فيه بأقصى تحرر ، مع التزام أقصى حدود الاحتشام على الدوام !.. فما من كلمة مبهمة تحتمل تأويلا ، ولا ملحة (نكتة) شاردة .. ولم يكن هذا الاحتشام يثقل علينا البتة ، بل إنه كان ينساب من تلقاء نفسه، وكنا نصدر فى أفعالنا وأقوالنا عن إيحاء قلوبنا !.. وقصارى القول أنه بلغ من حيائى ـ الذى قد يسميه الغير غباء ! ـ أن أقصى مغازلة أفلتت منى هى أن قبلت يد الآنسة جالى مرة

واحدة ! والحق أن الظروف أسبغت على هذه النعمة قيمة خاصة ، إذ كنا وحيدين ، وكانت أنفاسى تنبعث فى تهدج ، كما كانت عيناها منكستين .. وبدلا من أن يجد فمى قولا ، إذا به يلتصق بيدها التى لم تلبث الفتاة أن سحبتها فى رفق — بعد أن انطبعت عليها القبلة — وهى ترمقنى بنظرة لم تنم عن أى انفعال .. ولست أدرى ما كنت خليقا بأن أقوله للفتاة ، لولا أن أقبلت صديقتها على الغرفة ، فلاحت لى — فى تلك اللحظة — بالغة الدمامة !

وأخيرا ، فطنت الفتاتان إلى أنه لا ينبغى التريث فى العودة إلى المدينة حتى يهبط الليل . ولم يكن قد تبقى من النهار سوى الوقت الذى يمكننا من العودة ، فأسرعنا بالرحيل ، بنفس النظام الذى كنا عليه فى المجىء . ولو أننى وجدت جرأة ، لكنت قد غيرت هذا النظام ، إذ أن نظرة الآنسة جالى كانت قد أثارت فؤادى .. بيد أننى لم أجسر على أن أقول شيئا ، ولم يكن مما يليق بها أن تقترح هى هذا التغيير ! ورحنا نقول — خلال انطلاقنا — إن اليوم قد انقضى سراعا ، ولكنا بدلا من أن نشكو من قصره ، أجمعنا على أننا أوتينا معجزة إطالته بفضل أسباب اللهو التى عرفنا بها كيف نملؤه !

وفارقتهما عند البقعة التى التقطتانى عندها ، تقريبا .. ولكن ، بأية حسرة افترقنا ! وبأى سرور رسمنا الخطة للقاء آخر !.. إن الاثنتى عشرة ساعة التى قضيناها معا بدت لنا قرونا لفرط الألفة ! وإن الذكرى العذبة التى اقترنت بذلك اليوم لم تكبد الشابتين اللطيفتين شيئا ، ولكن الوحدة الحنون

التى ربطت بين ثلاثتنا كانت تعادل فىقيمتها متعا أكثر بهجة واحتداما .. متعا لم يكن لها بقاء فى ظـــلال تلك الرابطة . فلقد تحاببنا فى غير ما استخفاء ولا استحياء ، وكنا راغبين فى أن نتحاب دائما بهذا الشكل . وان لسذاجة الخلق لنشوتها التى تعادل تماما أية نشوة أخرى ، لأنهـــا لا تعرف راحة ، ولا تفتأ تحتدم باستمرار !

أما بالنسبة لى ، فانى أدرك أن ذكرى مثل هذا اليوم أكثر تأثيرا فى نفسى ، وفتنة لى ، وترددا على فؤادى من ذكرى أية متعة تذوقتها فى حيـــاتى ! وما كنت أدرى تماما ما الذى كنت أبتغيه من الفتاتين الساحرتين ، ولكنهما أطربتانى معـــا كل الطرب . ولست أقول إن قلبى كان خليقـــا بأن ينقسم بينهما قسمة عادلة ، لو قدر لى أن أســيطر على أمورى ، فقــد احسست بشىء من الإيثار والتفضيل : كان يسعدنى أن أحظى بالآنسة جرافينرييه عشيقة ، ولكننى لو خيرت لآثرت ـــ فيما أعتقد ـ أن أتخذها صديقة حميمة ! وسواء كان هذا أو ذاك ، فقد بدا لى إذ فارقتهما أننى لم أعد أقوى على الحياة بدونهما معا . فمن كان منبئى بأنه لم يكن مكتوبا لى أن أراها فى حياتى مرة أخرى ، وأن هـــذه كانت نهاية حبنا الذى لم يعمر سوى يوم واحد !

إن الذين يقرأون هـــذه السطور لن يتمالكوا أنفسهم من الضحك من مغامراتى الغرامية ، وملاحظة أن أكثرها تطورا كانت تنتهى ـــ بعد كثير من التمهيدات ـــ بقبلة على اليد !.. ولكن ، لا تغتروا يا قرائى ! فلعلنى نعمت من تلك الغراميات

ــ التى كانت تنتهى بهذه القبلة على اليد ــ بمتعة تفوق كل ما سيتاح لكم فى غرامياتكم التى قد تبدأ بمثل هذه القبلة !

***

وعاد « فينتور » إلى البيت بعد عودتى بقليل ؛ إذ كان قد تأخر كثيرا فى الذهاب إلى مضجعه فى الليلة السابقة . وفى هذه المرة ، لم أشعر بسرور لرؤيته كمألوف عادتى ، كما أننى كتمت عنه النهج الذى قضيت عليه يومى . فان الآنستين كانتا قد تحدثتا إلى عنه شيء من الازدراء ، وبدا لى أنهما استاءتا إذ علمتا أننى كنت فى مثل هذه الرعاية السيئة . فنال هذا من مكانته لدى ، سيما وأن كل ما كان يشغلنى عن التفكير فيما بدا لى غير مستحب . على أن فينتور ما لبث أن ردنى إلى نفسى وإليه ، بأن أخذ يتكلم عن موقفى ، إذ غدا أحرج من أن يستمر . فمع أننى لم أكن أنفق غير القليل جدا ، إلا أن كيسى بدأ يفرغ ، ولم يكن لى مورد . . ولم يكن ثمة نبأ عن « ماما » ، فلم أدر ماذا أفعل ، وشعرت بانقباض شديد إذ رأيت صديق الآنسة جالى يهبط إلى مستوى المتسولين !

وانبأنى فينتور بأنه قد تحدث عنى إلى الضابط القضائى[1] ، وأنه اعتزم أن يصطحبنى لتناول العشاء عنده فى اليوم التالى ، وأن هذا الرجل كان فى مركز يمكنه من أن يخدمنى عن طريق أصدقائه . . فضلا عن أنه كان من خيرة من يحسن التعرف إليهم ، كان ذكيا وأديبا ، ذا طباع جد ملائمة . وكان

---

(1) (OUGEMAGE) كان موظفا ذا مركز هام ، يطبق العدالة باسم الملك .

موهوبا ، بقدر المواهب لدى الغير . ثم أطلعنى — وهو يمزج التواغه بالخطير من الأمور ، جريا على عادته — على مقطع بديع من الشعر ، وصل من باريس ، وكان يردد فى لحن بإحدى « اوبرات » وريه ، ذاع فى ذلك العهد . ولقد أعجب السيد سيمون — وهو اسم الضابط القضائى — به ، فأراد أن ينظم مقطعا آخر ، على نفس النغمة ، ردا عليه .. وطلب إلى فينتور أن ينظم مقطعا هو الآخر ، فتملكته نزوة أوحت إليه بأن يحملنى على أن أنظم بدورى واحدا ، حتى تترى هذه المقاطع تباعا — حسب قوله — فى اليوم التالى ، كما كانت المحفات تتتابع فى « القصة المضحكة »(١) .

وإذ عز على النوم — فى تلك الليلة — نظمت المقطع بقدر ما استطعت . وكان لا بأس به ، إذا قدرنا أنه كان أول ما نظمت من الشعر ! بل أنه كان أفضل — أو على الأقل ، أرق — مما كنت خليقا بأن أنظم فى اليوم السابق ، إذ أن موضوعه دار حول موقف عاطفى كان قلبى قد تفتح له . واطلعت فينتور — فى الصباح — على مقطعى الشعرى ، فرآه بديعا ، ودسه فى جيبه دون أن ينبئنى بما إذا كان هو قد نظم مقطعه .. وذهبنا نتناول العشاء فى دار السيد « سيمون » ، الذى أحسن استقبالنا . وكان الحديث طليا ، وما كان من الممكن أن يكون غير ذلك ، وقد دار بين رجلين

---

(١) منظر فى الفصل السابع من (ROMAN COMIQUE) ، أروع مؤلفات « سكارون » .

ذكيين واسمى الاطلاع .. أما أنا ، فقد قمت بدورى المعتاد ، إذ رحت أصغى وأنا ممسك لسانى . ولم يقل أحد منهما شيئا عن أى مقطع شعرى ، وكذلك لم أقل أنا شيئا .. ولم يرد ذكر ــ على قدر ما عرفت ــ للمقطع الذى نظمته !

وبدا على السيد سيمون أنه ارتاح إلى مسلكى . وكان هذا قصارى ما عرفه ــ تقريبا ــ عنى فى هذا اللقاء . وكان قد رآنى من قبل عدة مرات بدار السيدة « دى غاران » ، دون أن يولينى اهتماما يذكر . ومن ثم فاننى أحسب معرفتى به منذ ذلك العشاء .. المعرفة التى لم تكن ذات نفع للموضوع الذى كان يشغل بالى ، ولكنى أفدت منها ــ فيما بعد ــ منافع أخرى ، تجعلنى أذكر السيد سيمون بسرور . وما ينبغى أن أرجىء الحديث طويلا عن شكله الذى يستحيل على أى امرىء أن يكون فكرة عن الرجل ما لم أتحدث عنه ، سيما إذا راعينا ما كان للسيد سيمون من سلطة إدارية وروح طيبة كان يفخر بها ..

لم يؤت السيد الضابط القضائى ــ بالتأكيد ــ من الطول قدمين(١) . وكانت ساقاه مستقيمتين ، نحيلتين ، وطويلتين فى نفس الوقت ، وكانتا خليقتين بأن تبدياه طويلا ، لو أنهما كانتا رأسيتين ، ولكنهما كانتا منفرجتين كساقى فرجار

---

(١) كتب «روسو» فى مخطوطات الطبعة الأولى أن طول سيمون كان قدمين، ثم ضرب عليها بالقلم وكتب « ثلاثة أقدام » ؟.. ولكنه لم يثبت هذا التعديل فى النسخة الثانية من المخطوطات ، وهى التى استخدمت فى طبعة جنيف .

(برجل) مفتوح على سعته ، ! أما جسمه ، فلم يكن قصيرا فحسب ، وإنما كان نحيلا وضئيلا بدرجة لا سبيل إلى وصفها. ولابد أنه كان يبدو ـ إذا ما تجـرد من ثيابه ـ كالجرادة ! اما رأسه ـ الذى كان عادى الحجم ، وله وجه مليح التكوين، وقسمات نبيلة ، وعينان بديعتان ـ فقد كان يبدو كرأس زائف أقيم على أرومة تبقت من جـذع شـجرة !.. ولابد أنه كان يقتصد كثيرا من نفقات الكسـاء ، إذ كانت قلنسـوة الشعر المستعار وحدها تكسوه تماما من رأسه إلى قدمه !

وكان له صوتان مختلفان تمام الاختلاف ، يختلطان معـا باستمرار كلما تكلم ، ويتباينان بشكل يبدو ـ فى أول الأمر ـ طريفا ، ولكنه لا يلبث أن يغدو كريها ! وكان أحدهما جهوريا عميقا ، وهو صوت رأسه ، إن جاز لى أن أقول هذا . أمـا الآخر فكان واضحا ، حادا نفاذا ، وكان صوت جسده ! وكان ـ إذا ما التزم الحذر ـ تكلم بتحفظ بالغ ، ونظم تنفسـه ، فيستطيع أن يتكلم باستمرار بصوته العميق .. ولكنه لا يكاد يتحمس قليلا ، ويتكلم بلهجة أكثر حدة ، حتى يشبه صـوته صفيرا منبعثا من نغم عال .. وكان يجد عناء بالغا فى العودة إلى الطبقة الخفيفة من الصوت !

ومع هذا المظهرالذى وصفته ، والذى لا مغالاة فيه إطلاقا ، كان السيد سيمون مؤدبا . راوية للطرائف ، شديد العنـاية بلباسه إلى درجة الحذلقة . ولما كان راغبا فى أن يبدو فى أعظم

مظاهره ، فقد كان يحلو له أن يعقد مقابلاته فى الصباح وهو فى السرير ، لأن الذى كان يرى رأسا بديعا على الوسادة ، لم يكن يتصور أن هذا كل ما لديه من حسن ! وكان هذا يؤدى ـ فى بعض الأوقات ـ إلى مناظر مضحكة ، أعتقد أن (أنيسى) لا تزال تذكرها !

ترى كيف أبعد ((روسو)) عن الفتاتين الفاتنتين : جرافينرييه وجالى ؟٠٠ وما الحيلة الماكرة التى دبرتها الآنسة جيرو ــ العجوز الشوهاء ــ لإقصائه عنهما ؟ وما المتاعب والمغامرات التى خاضها حتى استطاع أن يلتقى بمدام دى فاران مرة أخرى ؟ وكيف قبلت ((أمه !)) هذه أن تصبح عشيقته ؟

إن ((روسو)) يحدثنا عن كل هــذا ، فى الكراسات المقبلة من اعترافاته ، التى تقدمها ((مطبوعات كتابى)) فى الجزء الثانى من ((الاعترافات)) ــ كما يحدثنـا عن نزواتــه وأهوائه وتجاربه ، ثم عن ذهابه إلى باريس ، حيث بدأ نجمه فى التألق ٠

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٩٧٧ – ١٦٣ – ٠٨٠ – ٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة

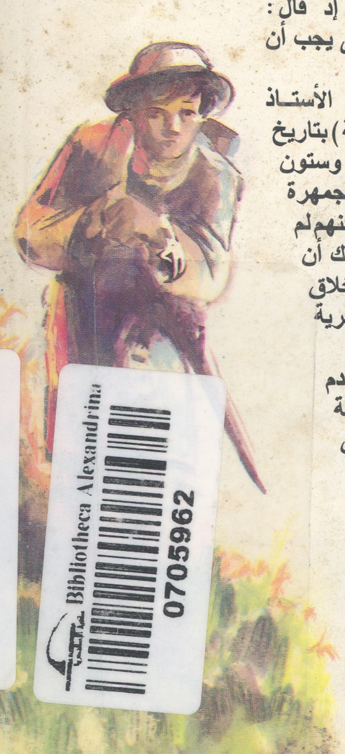


عزيزى القارئ ..

إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبى الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال :

« واعترافات جان جاك روسو من الكتب التى يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة .. » .

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ « عبد الرحمن صدقى » فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٣٩ يقول : « انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة « روسو » ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب « روسو » الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تتبدل » .



.. والواقع أن هذه (الاعترافات) التى تقدم (مطبوعات كتابى) إليك اليوم أول ترجمة أمينة « كاملة » لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، إنها كانت أول عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

حلمى مراد